مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية العلم والإرادة

للعلامة الإمام شيخ الاسلام علم العلماء الأعلام
أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر
بابن قيم الجوزية المتوفي
سنة ٧٥١ هجرية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقى المتوفى سنة ٧٥١ كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسلة يقتبس من مجموعها معرفة العلم وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفال والزجر ومعرفة أصول نافعة جامعة مما تكمل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

الجزء الأول

يطلب من
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا ، واتخذهم عبيداً له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا ، وكتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا . والحمد لله الذى أقام فى أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا . واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا ، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا ، فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ، ومن مبتدع فى دين الله بشهب الحق قد رموه ، جهاداً فى الله وابتغاء مرضاته ، وبياناً لحججه على العالمين وبيناته ، وطلباً للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته . فحاربوا فى الله من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم ، الذين عقدوا ألوية البدعة واطلقوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا فى الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم واتخذوا غيره منه بديلا . أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه . وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه . وأستهديه سبيل الذين أنعم عليهم ممن اختاره لقبول الحق وارتضاه . وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه . وأستغفره من الذنوب التى تحول بين القلب وهداه . وأعوذ بالله من شر نفسى وسيئات عملى استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياه ، وأعتصم به من الأهواء المردية والبدع المضلة فما خاب من أصبح به معتصما وبحماه نزيلا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين ، وأتحملها عن الجاحدين ، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين ، وأشهد أن الحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور ، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، أرسله رحمة للعالمين ، ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق ، وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته ، وتعظيمه وتوقيره وتبجيله ، والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق

لم يفتح لأحد إلا من طريقه ، فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح به أعيناً عميا ، وآذاناً صما وقلوبا غلفا ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه راد ، داعيا إلى الله لا يصده عنه صاد ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألفت القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس فى الأقطار ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، فلما أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته ، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ، ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التى لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين ، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، صلاة دائمة بدوام السموات والأرضين مقيمة عليهم أبداً لا تروم انتقالا عنهم ولا تحويلا .

(أما بعد) فإن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له فى ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها فى الدار الآخرة فان الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا فى دار النعيم لم يعرفوا قدرها وأيضا فانه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذى لم يكن لينال بدون الأمر والنهى * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم فى مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذى قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها وأيضا فانه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن أسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحى المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء ... فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطى ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته . وأيضا فانه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى

دار يتم عليهم فيها ذلك وأيضا فانه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه ، وأيضا فان الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض والأرض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء ، قال الله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل حكمة بالغة ومشيئة نافذة ذلك تقدير العزيز العليم وأيضا فانه سبحانه لما قال للملائكة (إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أجابهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) ثم أظهر سبحانه علمه لعباده ولملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا إليّ ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي ويبذل دمه ونفسه في محبتي وأخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدونني أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتريكم ولا عدو أسلطه عليكم بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدهم .
وأيضا فاني أريد أن أظهر ما خفي عليكم من شأن عدوي ومحاربته لي وتكبره عن أمري وسعيه في خلاف مرضاتي وهذا وهذا كانا كامنين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم دارا أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفردا بعلمه لا يعلمه سواه وظهرت حكمته وتم أمره وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون . وأيضا فانه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . وأيضا فانه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبتهم له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم

ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وكمال رحمته وهو البر الرحيم * وأيضا فانه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعني العبودية الإختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا * وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقــــام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال في مقام الاسراء (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه وقال في مقام الدعوة (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال في مقام التحدي (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم * وأيضا فانه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التذاذاً بما أعطاهم من النعـــيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشهدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحهم وتتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سروراً وعظمت لذته وكملت نعمته * وأيضا فانه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء إنما يحصل في دار المحنة والإبتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف *

وأيضا فانه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم فانه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه مايجنى عواقب إجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذراً فيها وأشد هروباً وهذا كحال رجل سائر على طريق قد كمنت الأعداء في جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد في سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم اغارة عدوه عليه وتبييته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم مافعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبته .. فان قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقا آخر غير بني آدم فان بني آدم قد ركبوا على العقل والشهوة . وأيضا فانه لما كانت محبة الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته فبهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها في القلب اقتضت حكمته سبحانه اخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التي بإيثار الحق عليها والإعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك يتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعي الغي والضلال ومجاهدتها يقوى سلطان المحبة وتثبت شجرتها في القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هي المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبده على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء وأيضا فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذي لا نهاية بعده وكان ظهور الأسباب التي يحمد عليها من مقتضى كونه محموداً وهي من لوازم حمده تعالى وهي نوعان فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتب عليها كمال الحمد الذي هو أهله فكما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا نبه سبحانه على هذا كثيراً كما في سورة الشعراء حيث يذكر في آخر كل قصة من قصص الرسل وأممهم (إن في ذلك لآية

وماكان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فأخبر سبحانه أن ذلك صادرعن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولاتباعهم ونقمته وإهلاكه لأعدائهم إلا فى محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم إلى ديارهم التى لا يليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) . وأيضا فانه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبى بالأنعام وخص دون غيره بالاكرام ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا فى مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح وفى الأثر المشهور ان الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إنى أحب أن أشكر فاقتضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد . وأيضا فانه سبحانه لاشىء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه . ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التى تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب فى دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين . وأيضا فانه سبحانه له الخلق والأمر والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجرى عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هى دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فان الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى فى غير موضع من كتابه فقال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وان ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر فى الفطر والعقول وقبح تركه سدى معطلا أيضاً مستقر فى الفطر فكيف ينسب إلى الرب ماقبحه مستقر فى فطركم وعقولكم وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا فى القرآن كثيرة . وأيضاً فانه سبحانه يحب من عباده

أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا فى دار الابتلاء والامتحان فانه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولاريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية مهلكة إذا وجدها كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وسيأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر هذا الفرح بتوبة العبد والمقصود أن هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لازمان لهذا الفرح ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله فى دار النعيم التى لاذنب فيها ولا مخالفة ممتنع ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية اليه ليترتب عليها المسبب الذى هو محبوب له وأيضا فان الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له فى ذلك من الحكمة التى اقتضتها أسماؤه وصفاته فان الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال ان الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم. وعلى هذا حمل غير واحد ماجاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون). قالوا وأما نفى دخولها بالأعمال كما فى قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا فالمراد به نفى أصل الدخول. وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التى نفى معها الدخول فالمقتضية هى باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها والباء التى نفى بها الدخول هى باء المعاوضة والمقابلة التى فى نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر النبى ﷺ أن دخول الجنة ليس فى مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وان تناهى

موجباً بمجرده لدخول الجنة ولا عوضا لها فان أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهى لاتقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ولا تعادلها بل لوحاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لكانت رحمته خيراً له من عمله كما فى السنن من حديث زيد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والمقصود أن حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإنزالهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة * وأيضاً فانه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر سبحانه فى كتابه بقوله (انى جاعل فى الأرض خليفة) وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويستخلفكم فى الأرض) فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد وعلم سبحانه بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس فان النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولا فعلم سبحانه مافى طبيعته من الضعف والخور. فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عياناً فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً فان محبة الشىء وطلبه والشوق اليه من لوازم تصوره فمن باشر طيب شىء ولذته وتذوق به لم يكد يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقة تواقة فاذا ذاقت تاقت، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الإيمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً، وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه المرفوع أن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول مايسألنى عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لايارب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا فاقتضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه اياها ثم قص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع اليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كانه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى:

وحى على جنات عدن فانها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فسر هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق فى حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لاتنال لا بأسبابها التى جعلها الله أسباباً مفضية اليها ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها أجلها فلا تنال إلا بأسباب نصبها مفضية إليها وإذا كانت الغايات التى هى دون ذلك لاتنال لا بأسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال الجاه فى الدنيا فكيف يتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سبب يفضى اليه لم يكن تحصيل تلك الأسباب إلا فى دار المجاهدة والحرث فكان اسكان آدم وذريته هذه الدار التى ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام انعامه عليهم وسرها يضا أنه سبحانه جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فأنزلهم دارا أخرج منهم الأنبياء وبعث فيها الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلا وكلم موسى تكليما واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم يحبونه وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الانعام والاحسان ، وأيضا أنه أظهر لخلقه من آثار أسمائه وجريان أحكامها عليهم مااقتضته حكمته ورحمته وعلمه . وسرها أيضاً أنه تعرف إلى خلقه بافعاله وأسمائه وصفاته وما أحدثه فى أوليائه وأعدائه من كرامته وانعامه على الأولياء واهانته واشقائه للاعداء ومن اجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلائهم وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء وتقليبهم فى أنواع الخير والشر فكان فى ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكهم . وأنه الله الذى لاإله إلا هو وأنه العليم الحكيم السميع البصير وأنه الاله الحق وكل ماسواه باطل فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده فى الأرض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموفقون من عباده وأقروا بتوحيده إيماناً واذعاناً وجحده المخذولون على خليقته وأشركوا به ظلماً وكفراناً فهلك من هلك عن بينة ويحى من حى بينة والله سميع عليم . ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة فى الأرض ورأى آثارها . علم تمام حكمته فى اسكان آدم وذريته فى هذه الدار إلى أجل معلوم فالله سبحانه إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدما لهم . ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها إلى الدار التى خلقت لهم وأنهم لاينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى فى هذه الدار (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤف رحيم) فهذا شأن الانتقال فى الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فباع المغبونون

منازلهم منها بأبخس الحظ وأنقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمناً للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) فهو سبحانه ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده اليها أكمل اعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لاتجزع من قولى لك اخرج منها فلك خلقتها فانى أنا الغنى عنها وعن كل شيء وأنا الجواد الكريم وأنا لا أمتع فيها فانى أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن انزل إلى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيداً فحينئذ فتعال فاستوفه أحوج ما أنت اليه الحبة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فانى أعلم بمصلحتك منك وأنا العلى الحكيم ﴿ فان قيل ماذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل أن الجنة التى أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التى أعدت المتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها ﴾ ولكن قد قالت طائفة منهم أبو مسلم ومنذر بن سعيد البلوطى وغيرهما انها انما كانت جنة فى الأرض فى موضع عال منها لا أنها جنة المأوى التى أعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة . وذكر منذر بن سعيد هذا القول فى تفسيره عن جماعة فقال وأما قوله لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فقالت طائفة أسكن الله تعالى آدم ﷺ جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة وقال آخرون هى جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التى تدخل بعد القيامة هى من حيز الآخرة وفى اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقد وصفها الله تعالى لنا فى كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التى وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به . قالوا وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التى أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بأنها دار جزاء ولم يقل أنها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين اليها يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم من الآفات التى تكون فى الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر فيها آدم وقال فيمن يدخلها وما هم منها بمخرجين وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يمسهم فيها نصب وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند أصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب بعينه الذى نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمعه فيها ابليس الكذب وغره وقاسمه عليه أيضا بعد أن اسمعه

اياه . وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه فى كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب ابليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة فى أعلى عليين والله تعالى انما قال انى جاعل فى الأرض خليفة ولم يقل انى جاعله فى جنة المأوى فقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة اتقى لله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون لا علم لنا إلا ما علمتنا . وفى هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض والا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) والله تعالى أخبرنا أن ابليس قال لآدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فان كان قد أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول وكيف تدلنى على شىء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبه لأن ابليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان يكون زاريا عليه لأنه انما وعده على معصية ربه بما كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا المجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول ابليس ولا قبل نصيحته ولكنه لما كان فى غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمره الله به وهو معتقد للتصديق بخبر ربه فهو عاص . وانما سمى الله آدم عاصيا ولم يسمه كافراً . قالوا فان كان آدم أسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس النجس الملعون المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم وابليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة انما هى دار المتقين وابليس غير تقى فبعد أن قيل له (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) انفسح له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فان كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبر . ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول

ان ابليس لم يصل اليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده وقول الله تعالى حكم بيننا وبينه وقوله تعالى وقاسمهما يرد ما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما ومما يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه انما وسوس اليه مخاطبة لا أنه أوقع ذلك فى نفسه بلا مقاولة فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة :

٭ وسوس يدعو مخلصا رب الفلق ٭

وقال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت ٭ كما استعان بريح عشرق زجل

قالوا وفى قول ابليس لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ٭ ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة) ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال له ابليس لأن آدم لم يكن حينئذ فى الجنة ولا مشاهداً للشجرة مع قوله عز وجل (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنه لا يصعد اليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا ذكره أنه لا يلج المقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة ابليس مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هى شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل اليه لأنها خبيثة غير طيبة كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة ابليس ولا ولجت القدس قال تعالى (كلا ان كتاب الفجار لفى سجين) ٭ وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان آدم نام فى جنته وجنة الخلد لا نوم فيها باجماع من المسلمين لأن النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار السلام مسلمة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كالميت قالوا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأم حارثة لما قالت له يا رسول الله ان حارثة قتل معك فان كان صار إلى الجنة صبرت واحتسبت وان كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جنة واحدة هى انما هى جنان كثيرة فاخبر صلى الله عليه وسلم ان لله جنات كثيرة فلعل آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هى جنة الخلد قالوا وقد جاء فى بعض الأخبار ان جنة آدم كانت بأرض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصححه رواة الأخبار ونقلة الآثار فالذى تقبله الألباب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد

ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فاذا قيل للجنة دار الخلد لم يجز أن ينقص مسمى هذا الاسم بحال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم فى دار الابتلاء والامتحان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التى ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة (فالجواب) أن يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولا قول من قال انها جنة الخلد التى وعدها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وابطال الآخر إذ ليس غرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاخراج آدم من الجنة واسكانه فى الأرض فى دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأبى ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة فى ذلك والرد على أن من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التى لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق (١) لا يحصل غرضاً ولا يزيل مرضا فسلكنا هذا السبيل ليكون قولهم مردوداً على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله فنقول أما ما ذكرتموه من كون الجنة التى أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هى جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والاشهر عند الخاصة والعامة الذى لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الاشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وأبو مالك عن ربعى بن حراش عن حذيفة قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله عز وجل الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على أن الجنة التى أخرج منها آدم هى بعينها التى يطلب منه

(١) — هكذا فى الأصول ويظهر أن يكون كنى به عن اللسان اهـ

أن يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه أن الله سبحانه (قال يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) عقيب قوله اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولا فى الأرض وأيضا فانه سبحانه وصف الجنة التى أسكنها آدم بصفات لا تكون فى الجنة الدنيوية فقال تعالى (إن لك الا تجوع فيها ولاتعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) وهذا لا يكون فى الدنيا أصلا ولو كان الرجل فى أطيب منازلها فلابد أن يعرض له الجوع والظمأ والتعرى والضحى للشمس وأيضاً فانها لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب ابليس فى قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فان آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى وأيضاً فان قصة آدم فى البقرة ظاهرة جداً فى أن الجنة التى أخرج منها فوق السماء فانه سبحانه قال (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . فهذا اهباط آدم وحواء وابليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل انه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذلا ذكر للحية فى شيء من قصة آدم وابليس . وقيل خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) . وقيل لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الاقوال ضعيفة غير الاول لانها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن ابليس داخل فى هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة . ثم قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الاهباط الثانى لابد أن يكون غير الأول وهو اهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التى اهبطوا منها أولا فوق السماء وهى جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشرى الى أن قوله أهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما . قال والدليل عليه قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى) وقال ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وما هو الا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الاقوال فى الآية فان العداوة التى ذكرها الله انما هى بين آدم وابليس وذرياتهما كما قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) . وأما

آدم وزوجه فان الله سبحانه أخبر فى كتابه أنه خلقها منه ليسكن اليها وقال سبحانه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وابليس وذرياتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير اليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابليس فى قولهم فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وابليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام فان قيل فما تصنعون بقوله فى سورة طه : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل اما أن يكون الضمير فى قوله اهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا الى آدم وابليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له وعلى الثانى فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وابليس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على أمرين . أحدهما أمره لآدم وزوجه بالهبوط . والثانى جعله العداوة بين آدم وزوجه وابليس ولا بد أن يكون ابليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى إن هذا عدو لك ولزوجك ، وقال لذريته إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية . واما ذكر الاهباط فتارة يأتى بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة يأتى بلفظ الافراد لابليس وحده . كقوله تعالى فى سورة الاعراف (قال ما منعك أن لاتسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فهذا الاهباط لابليس وحده والضمير فى قوله منها قيل أنه عائد إلى الجنة وقيل عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وابليس إذ مدار القصة عليهم وحيث اتى بلفظ التثنية فاما ان يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجرة واقدما على المعصية . واما ان يكون لآدم وابليس اذ هما ابوا الثقلين فذكر حالهما وما آل اليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما والقولان محكيان فى ذلك وحيث أتى بلفظ الأفراد فهو لإبليس وحده . وأيضاً فالذى يوضح أن الضمير فى قوله اهبطا منها جميعاً لآدم وإبليس ان الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعاً) وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعاً وهذا لأن المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما فى ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ فى حصول هذا المعنى من ذكر أبوى الإنس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه أهبطه

وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة فعلم أن هذا اقتضاه حكم الزوجية وانها صارت إلى ماصار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا . قالوا وأما قولكم انه كيف وسوس له بعد اهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى اهبط . فجوابه من وجوه ء أحدهما أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل الشرط دار من امروا بابتلائه ومحنته وان لم يكونوا اهلا لسكنى تلك الدار ء الثانى انه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما ء الثالث انه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنة الرابع انه قد روى انه اراد الدخول عليهما فمنعته الخزنة فدخل فى فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا ومما يدل على انها جنة الخلد بعينها انها جاءت معرفة بلام التعريف فى جميع المواضع كقوله (اسكن انت وزوجك الجنة) ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التى وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة وإن كان فى أصل الوضع عبارة عن البستان ذى الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرفا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة فى قلوب المؤمنين . وأما ان أريد به جنة غيرها فانها تجىء منكرة كقوله (جنتين من أعناب) أو مقيدة بالإضافة كقوله (ولولا إذ دخلت جنتك) أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة فى الأرض كقوله (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) الآيات فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان فى الأرض . قالوا وأيضاً فانه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم بذلك كما فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلنى إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابى أعذب بك من أشاء الحديث وفى السنن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها قال

فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها الحديث وفى الصحيحين فى حديث الاسراء ثم رفعت لى سدرة المنتهى فاذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ماهذا ياجبريل قال أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران فى الجنة . وفيه أيضا ثم أدخلت الجنة فاذا جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك وفى صحيح البخارى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينما أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال قلت ما هذا ياجبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر . وفى صحيح مسلم فى حديث صلاة الكسوف أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر فى الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال انه عرضت لى الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لأكلتم منه مابقيت الدنيا . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود فى قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث . وفى الصحيح من حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا إخوانتا أنا فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله) الآية . وفى الموطأ من حديث كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وفى البخارى أن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما توفى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن له مرضعاً فى الجنة . وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء . والآثار فى هذا الباب أكثر من أن تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التى أهبط منها آدم إنما كانت جنة بشرقى الأرض وهذه الاحاديث وأمثالها ترد قولهم . قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التى ذكرتموها فى الجنة وأنها منتفية فى الجنة التى أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعرى وغير ذلك فهذا كله حق لا ننكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون

يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام وهذا لاينفي أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الأمرين . قالوا وأما قولكم ان الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة ، فجوابه من وجهين * أحدهما أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكليف وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه . الثاني أن التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجرا عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فان أردتم بأن الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أن غالب التكاليف التي تكون في الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لايدل على مطلوبكم . قالوا وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يعرج عليه ولا يلتفت إليه * قال ، الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل . أما المجمل فانكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير إليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لامسندا ولا مقطوعا . ونحن نوجدكم من قال بقولنا . هـذا أحد أئمة الإسلام سفيان بن عيينة قال في قوله عز وجل (ان لك أن لاتجوع فيهـا ولا تعرى) قال يعني في الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ان الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ وهذا أبي قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بني آدم قالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل و بنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم . وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان في أرض كذا وكذا وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق في الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وانه كان بعدن وإن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة وهو الذي كان يسقيها ، وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره في تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه في غير التفسير عن أبي حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه المسألة . وهذا أبو مسلم الاصبهاني صاحب التفسير وغيره أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه بما هو معروف

فى كتابه . وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية ذكر القولين فى تفسيره فى قصة آدم فى البقرة .
وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين فى كتاب الملل والنحل له . فقال وكان المنذر بن سعيد
القاضى يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلا أنه كان يقول أنها ليست هى التى كان فيها
آدم وامرأته وممن حكى القولين أيضاً أبو عيسى الرمانى فى تفسيره واختار أنها جنة الخلد .
ثم قال والمذهب الذى اخترناه قول الحسن وعمرو بن واصل وأكثر أصحابنا وهو قول
أبى على وشيخنا أبى بكر وعليه أهل التفسير وممن ذكر القولين أبو القاسم الراغب فى تفسيره
فقال واختلف فى الجنة التى أسكنها آدم فقال بعض المتكلمين كان بستانا جعله الله له امتحانا
ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة المأوى لأنه لا تكليف فى الجنة وآدم كان مكلفا .
قال وقد قيل فى جوابه انها لا تكون دار التكليف فى الآخرة ولا يمتنع أن تكون فى وقت دار تكليف
دون وقت كما أن الانسان يكون فى وقت مكلفا دون وقت . وممن ذكر الخلاف فى المسئلة
أبو عبدالله بن الخطيب الرازى فى تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثاً وهو التوقف قال لامكان
الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول
وهو أنها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض وقالوا كانت تطلع فيها الشمس
والقمر وكان ابليس فيها ثم أخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . وممن ذكر القولين
أيضا أبو الحسن الماوردى فقال فى تفسيره واختلف فى الجنة التى اسكناها على قولين. أحدهما أنها جنة
الخلد. الثانى أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء
ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين. أحدهما أنها فى السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن.
الثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا
قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا
كلامه وقال ابن الخطيب فى تفسيره اختلفوا فى أن الجنة المذكورة فى هذه الآية هل كانت فى
الأرض أو فى السماء وبتقدير أنها كانت فى السماء فهل هى الجنة التى هى دار الثواب وجنة الخلد أو
جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الاصبهانى هذه الجنة فى الأرض وحملا الاهباط
على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما فى قوله تعالى اهبطوا مصراً . القول الثانى وهو قول الجبائى
أن تلك كانت فى السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الاهباط الأول كان من
السماء السابعة إلى السماء الأولى والاهباط الثانى كان من السماء إلى الأرض . والقول الثالث
وهو قول جمهور أصحابنا أن هذه الجنة هى دار الثواب والدليل عليه هو أن الألف واللام
فى لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المعهود
السابق والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هى دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال .
والقول الرابع أن الكل ممكن والادلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع.

قالوا ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا وقد ذكرنا على هذا القول مافيه كفاية ۔ وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ماذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق ۔ أما استدلالكم بحديث أبي هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فهذا الحديث لايدل على أن الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هى التى أخرج منها بعينها فان الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) وقال تعالى (وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) وقال تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة) وقال تعالى (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) إلى قوله (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله) فان الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التى أسكنه الله اياها بذنبه وخطيئته هذا الذى دل عليه الحديث . وأما كون الجنة التى أخرج منها هى بعينها التى طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . قالوا وأما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفل . فجوابه من وجهين . أحدهما أن الهبوط قد استعمل فى النقلة من أرض إلى أرض كما يقال هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) وهذا كثير فى نظم العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قـــو م يرتعون من الطلاح

وقد روى أبوصالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا . الثانى أنا لا ننازعكم فى أن الهبوط حقيقة ماذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التى منها الهبوط فوق السموات فاذا كانت فى أعلى الأرض أما يصح أن يقال هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه . وأما قوله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) فهذا يدل على أن الأرض التى أهبطوا اليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا فى جنة عالية أعلى من الأرض التى أهبطوا اليها تخالف الأرض

فى صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله سبحانه فاوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت وهذا مشهود بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكون إلا فيها ثم أهبطوا منها إلى الأرض التى هى محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) إلى آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك عقيب قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) وقوله (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) هو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها والمعنى ان اجتنبت الشجرة التى نهيتك عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد ، قال وأما قولكم أنه لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب ابليس فى قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك فقول ابليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فان الخلد فى لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى لثمود (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) وكذلك قوله (وملك لا يبلى) يراد به الملك الطويل الثابت . وأيضاً فلا وجه للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد أخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بأن اطمعهما فى خلد الأبد والملك الذى لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التى سكنها آدم هى جنة الخلد التى وعدها المتقون غير بين . ثم نقول لو كانت الجنة هى جنة الخلد التى لا يزول ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من ابليس إذ قد علم ان الجنة دار الخلد . فان قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بأن هذه الشجرة وحدها هى شجرة الخلد . قلنا فاقنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب ابليس فى ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير فانقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق . قالوا ، وأما قولكم ان قصة آدم فى البقرة ظاهرة جدا فى أن جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إثباته قولكم أنه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولا بد أن يفيد الثانى غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثانى من السماء فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذى ذكرتموه وقالت طائفة

منهم النقاش وغيره أن الهبوط الثانى انما هو من الجنة الى السماء والهبوط الأول الى الأرض وهو آخر الهبوطين فى الوقوع وان كان أولها فى الذكر وقالت طائفة أتى به على جهة التغليظ والتأكيد كما تقول للرجل اخرج اخرج وهذه الأقوال ضعيفة . فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه . أحدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا سبيله لا يحمل القرآن عليه . الثانى ان الله سبحانه قد أهبط ابليس لما امتنع من السجود لآدم اهباطا كونيا قدريا لا سبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) وقال فى موضع آخر (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) وفى موضع آخر (اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وسواء كان الضمير فى قوله منها راجعا الى السماء أو الى الجنة فهذا صريح فى اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له . وهذا وان كان ممكنا فهو فى غاية البعد عن حكمة الله ولا يقتضيه خبره فلا ينبغى أن يصار اليه . وأما الوجوه الأربعة التى ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهى مع أمر الله تعالى بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذى يجب المصير اليه وما هى إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث أن سياق قصة اهباط الله تعالى لابليس ظاهرة فى أنه اهباط الى الأرض من وجوه . أحدها أنه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام به من التكبر المقتضى غاية ذله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثانى أنه قال (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى إلى يوم الدين) وكونه رجيما ملعونا ينفى أن يكون فى السماء بين المقربين المطهرين . الثالث أنه قال (اخرج منها مذؤماً مدحوراً) وملكوت السموات لايعلوه المذؤم المدحور أبداً . وأما القول الثانى فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لايدل عليه السياق بحال من تقديم ماهو مؤخر فى الواقع وتأخير ماهو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذى قبله . وأما القول الثالث وهو أنه للتأكيد فان أريد التأكيد اللفظى المجرد فهذا لا يقع فى القرآن وان أريد به أنه مستلزم للتغليظ والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال اعيد الاهباط مرة ثانية لأنه علق عليه حكما غير المعلق على الاهباط الأول فانه علق على الأول عداوة بعضهم بعضاً فقال (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) وهذه جملة حالية وهى اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين . والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثانى حكمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعاً والثانى

قوله (فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) فكأنه قيل اهبطوا بهذا الشرط مأخوذاً عليكم هذا العهد وهو أنه مهما جاءكم منى هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولاحزن يلحقه ففى الاهباط الأول إيذان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة وفى الاهباط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاهباط الأول وجبر من اتبع هداه بالاهباط الثانى على عادته سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالإخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداه ومن تدبر حكمته سبحانه ولطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وان ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره ولطفه وهو أعلم بمصلحة عبده منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لايكاد يشعر بذلك ولاينال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه الا على جسر من الذلة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل :

تذلل لمن تهوى لتحظى بقربه ... فكم عزة قد نالها العبد بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاولم تكن ... ذليلا له فاقرأ السلام على الوصل

وقال آخر :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى ... شرع الهوى أنف يشال ويقعد

وقال آخر :

ومافرحت بالوصل نفس عزيزة ... وما العز إلا ذلها وانكسارها

• قالوا وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم . قالوا وأما قولكم ان الجنة إنما جاءت معرفة باللام وهى تنصرف إلى الجنة التى لايعهد بنو آدم سواها فلاريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى آدم لسكناها بقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفا لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا مايدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجىء جنة الخلد معرفة باللام فلانها الجنة

التى أخبرت بها الرسل لاممهم ووعدها الرحمن عباده بالغيب لحيث ذكرت انصرف الذهن إليها دون غيرها لأنها قد صارت معلومة فى القلوب مستقرة فيها ولاينصرف الذهن إلى غيرها ولايتوجه الخطاب إلى سواها وقد جاءت الجنة فى القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان فى بقعة من الأرض كقوله تعالى (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) فهذا لاينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال . قالوا وماقولكم انه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وانه لم ينازع فى ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال . واستدلالكم على وجود الجنة الآن لحق لانناز عكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ماذكرتم ولكن أى تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هى جنة آدم بعينها فكانكم تزعمون أن كل من قال ان جنة آدم هى جنة فى الأرض فلابد له أن يقول ان الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فانه يقول ان جنة آدم هى فى الأرض وكذلك بالعكس ان كل من قال ان جنة آدم فى الأرض فيقول ان الجنة لم تخلق فأما الأول فلاريب فيه وأما الثانى فوهم لاتلازم بينهما لافى المذهب ولافى الدليل فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على انكار قولهم ورده وابطاله ولكن لايلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح . قالوا وأما قولكم ان جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التى وجد بعضها من ابليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين . أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى (لالغو فيها ولا تأثيم) ولقوله تعالى (لاتسمع فيها لاغية) فهذا نفى عام لايجوز تخصيصه إلا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد حكما مطلقاً فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثانى أن ما ذكرتم إنما يصار اليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم أنها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فاما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة ما دلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم . قالوا ومما يدل على أنها ليست جنة الخلد التى وعدها المتقون أن الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن لعمره أجلا ينتهى إليه وأنه لم يخلقه للبقاء . ويدل على هذا ما رواه الترمذى فى جامعه قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبدالرحمن ابن أبى ذباب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله يارب فقال له ربه يرحمك الله يا آدم إذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملاء منهم جلوس فقل السلام

عنيكم قالوا وعليك السلام ثم رجع إلى ربه فقال ان هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتان اختر أيتهما شئت فقال اخترت يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته قال أى رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فاذا كل انسان مكتوب عمره بين عينيه فاذا رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمراً أربعين سنة قال يارب زد فى عمره قال ذاك الذى كتبت له قال أى رب فانى قد جعلت له من عمرى ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ماشاء الله ثم اهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأتاه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت أليس قد كتبت لى ألف سنة قال بلى ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته قال فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ . قالوا فهذا صريح فى أن آدم لم يكن مخلوقا فى دار الخلد التى لا يموت من دخلها وإنما خلق فى دار الفناء التى جعل الله لها ولأهلها أجلا معلوما وفيها أسكن . فان قيل فاذا كان آدم قد علم أن له عمرا ينتهى اليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب ابليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى) بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعاً فى الخلد . فالجواب ما تقدم من الوجهين اما أن يكون المراد بالخلد المكث الطويل لاأبد الأبد أو يكون عدوه ابليس لما قاسمه وزوجه وغرهما وأطمعهما بدوامهما فى الجنة نسى ما قدر له من عمره. قالوا والمعول عليه فى ذلك قوله تعالى للملائكة (انى جاعل فى الأرض خليفة) وهذا الخليفة هو آدم باتفاق الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذى هو جاعله فى الأرض ليس حاله كما توهمتم من الفساد بل أعلمه من علمى مالاتعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها و (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا انك أنت العليم الحكيم) وهذا يدل على أن هذا الخليفة الذى سبق به اخبار الرب تعالى للملائكته وأظهر تعالى فضله وشرفه وأعلمه بما لم تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول فى الأرض لافوق السماء . فان قيل قوله تعالى انى جاعل فى الأرض خليفة إنما هو بمعنى سأجعله فى الأرض فهى مآله ومصيره وهذا لاينافى أن يكون فى جنة الخلد فوق السماء أولا ثم يصير إلى الأرض للخلافة التى جعلها الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول . فالجواب أن الله سبحانه أعلم ملائكته بأنه يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة

أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع الخبر ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم إنما سألوا هذا السؤال فى حق الخليفة المجعول فى الأرض فأما من هو فى دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد فى الأرض ولا كان اظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم بل الذى يحصل به جوابهم وضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو فى محل خلافته التى خلق لها وتوهمت الملائكة أنه لا يحصل منه هناك إلا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله وأما اسم الفاعل وهو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى فى المستقبل من جعله الخليفة فى الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر فى أنه من أول الأمر جعله خليفة فى الأرض وأما جعله فى السماء أولا ثم جعله خليفة فى الأرض ثانياً وإن كان مما لا ينافى الاستخلاف المذكور فهو مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله ندندن . قالوا وأيضا فمن المعلوم الذى لا يخالف فيه مسلم ان الله سبحانه خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب كما روى الترمذى فى جامعه من حديث عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده من طرق عدة وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب وأخبر أنه خلقه من سلالة من طين وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذى له صلصلة مالم يطبخ فاذا طبخ فهو فخار . وقيل فيه هو المتغير الرائحة من قولهم صلّ إذا أنتن والحمأ الطين الأسود المتغير والمسنون قيل المصبوب من سننت الماء إذا صببته وقيل المنتن المسن من قولهم سننت الحجر على الحجر إذا حككته فاذا سال بينهما شىء فهو سنين ولا يكون إلا منتنا وهذه كلها أطوار التراب الذى هو مبدؤه الأول كما أخبر عن خلق الذرية من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة وهذه أحوال النطفة التى هى مبدأ الذرية ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما أخبر عن اسجاد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وماجرى له مع إبليس بعد خلقه فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة فى نسق واحد مرتبطا بعضها ببعض . قالوا فأين الدليل الدال على اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه إلى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه أصلا ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . قالوا ومن المعلوم أن ما فوق

السموات ليس بمكان للطين الأرضى المتغير الرائحة الذى قد أنتن من تغيره وإنما محله هذا الأرض التى هى محل المتغيرات والفاسدات وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة . قالوا وهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء . قالوا وقد قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) فأخبر سبحانه أن هذا العطاء فى جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك جنة الخلد . قالوا وأيضا فلا نزاع فى أن الله تعالى خلق آدم فى الأرض كما تقدم ولم يذكر فى قصته أنه نقله إلى السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم أنواع النعم عليه وأكبر أسباب تفضيله وتشريفه وأبلغ فى بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته وأبلغ فى بيان المقصود من عاقبة المعصية وهو الاهباط من السماء التى نقل اليها كما ذكر ذلك فى حق ابليس فحيث لم يجىء فى القرآن ولا فى السنة حرف واحد أنه نقله إلى السماء ورفعه إليها بعد خلقه فى الأرض علم أن الجنة التى أدخلها لم تكن هى جنة الخلد التى فوق السموات قالوا وأيضا فانه سبحانه قد أخبر فى كتابه انه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وأنكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا جنة آدم هى جنة الخلد لكانوا قد خلقوا فى دار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى) قال الشافعى وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال (أفحسبتم انا خلقناكم عبثا) فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها . قالوا وأيضا فانه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) وجزاء للمتقين بقوله (ولنعم دار المتقين) ودار الثواب بقوله (ثوابا من عند الله) فلم يكن ليسكنها إلا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان . وبالجملة لحكمته تعالى اقتضت انها لا تنال الا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات واذا كان هذا مقتضى حكمته فانه سبحانه لا يفعل الا ما هو مطابق لها . قالوا فاذا جمع ما أخبر الله عز وجل به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة فى الأرض وأن ابليس وسوس له فى مكانه الذى أسكنه فيه بعد ان أهبط ابليس من السماء وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة وان دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم وأن من دخلها لا يخرج منها أبداً وان من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن وأن الله سبحانه حرمها على الكافرين وعدو الله ابليس أكفر الكافرين فمحال أن يدخلها أصلا لا دخول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعيم لا دار ابتلاء وامتحان الى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التى أسكنها آدم اذا جمع ذلك بعضه الى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان

قال الآخرون بل الجنة التى أسكنها آدم عند سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة فى الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أوغير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من اخوانهم المتكلمين المبتدعين فان هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة والكتاب يرد هذا القول وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين) فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط وان بعضهم لبعض عدو ثم قال (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين) وهذا بين انهم لم يكونوا فى الأرض وانما اهبطوا الى الأرض فانهم لو كانوا فى الأرض وانتقلوا منها الى أرض أخرى كما انتقل قوم موسى من أرض الى أرض كان مستقرهم ومتاعهم الى حين فى الأرض قبل الهبوط كما هو بعده وهذا باطل. قالوا وقد قال تعالى فى سورة الأعراف لما قال إبليس (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) يبين اختصاص الجنة التى فى السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فان ابليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير فى قوله منها عائد إلى معلوم وان كان غير مذكور فى اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا وهذا بخلاف قوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) فانه لم يذكر هنا ما اهبطوا منه وإنما ذكر ما اهبطوا إليه بخلاف إهباط ابليس فانه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو الى سفل وبنو اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذى يهبطون اليه ومن هبط من جبل إلى واد قيل له اهبط . قالوا وأيضا فبنو اسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون والذى يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال نزل فيها لأن من عادته أن يركب فى مسيره فإذا وصل نزل عن دوابه ويقال نزل العدو بأرض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل نزل وهبط إلا إذا كان من علو إلى سفل وقال تعالى عقب قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك فى مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح فى أنهم انما صاروا اليه بعد الاهباط . قالوا ولو لم يكن فى هذه إلا قصة آدم وموسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته من الخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستانا فى الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض

عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان فى الأرض ، قالوا وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فان ظهور هذا فى كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتحها وقد أخرج منها بخطيئته من أظهر الأدلة . قال الأولون أما قولكم ان من قال انها جنة فى الأرض فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من اخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء . ومشاركة أهل الباطل للمحق فى المسئلة لا يدل على بطلانها ولا تكون اضافتها لهم موجبة لبطلانها ما لم يختص بها فان أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك وان أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يفدكم شيئا . قالوا وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التى هى دار المتقين يوم المعاد . قالوا وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف أنها ليست جنة الخلد . فقال ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا أن جنة آدم التى خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم . وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين فى تفسيره . قال سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة فقال السكوت عن هذا أفضل . قالوا فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التى أسكنها آدم هى جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف فى ذلك . وقال ابن قتيبة فى كتابه غريب القرآن فى قوله تعالى (وقلنا اهبطوا منها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أبى صالح هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر فى كتابه غيره فأين اجماع سلف الأمة وأئمتها . قالوا وأما احتجاجكم بقوله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر) عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا فى جنة الخلد فان أحد الأقوال فى المسئلة انها كانت جنة فى السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى فى تفسيره وقد تقدم . وأيضا فان قوله (ولكم فى الأرض مستقر) يدل على أن لهم مستقرا إلى حين فى الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد فان الجنة أيضا لها أرض . قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) فدل على أن قوله (ولكم فى الأرض مستقر) المراد به الأرض الخالية من

تلك الجنة لا كل ما يسمى أرضا وكان مستقرهم الأول فى أرض الجنة ثم صار فى أرض الابتلاء والامتحان ثم يصير مستقر المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضا فلا تدل الآية على أن جنة آدم هى جنة الخلد . قالوا وهذا هو الجواب بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فان المراد به الأرض التى أهبطوا اليها وجعلت مسكنا لهم بدل الجنة . وهذا تفسير المستقر المذكور فى البقرة مع تضمنه ذكر الاخراج منها .
قالوا وأما قوله تعالى لإبليس (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) . وقولكم أن هذا انما هو فى الجنة التى فى السماء وإلا لجنة الأرض لم يمنع ابليس من التكبر فيها فهو دليل لنا فى المسئلة فإن جنة الخلد لا سبيل لابليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلا . وقد أخبر تعالى أنه وسوس لآدم وزوجه وكلمهما وغرهما وخانهما وتكبر عليهما وحسدهما وهما حينئذ فى الجنة فدل على أنها لم تكن جنة الخلد ومحال أن يصعد اليها بعد اهباطه واخراجه منها .
قالوا والضمير فى قوله اهبطوا منها إما أن يكون عائداً إلى السماء كما هو أحد القولين وعلى هذا فيكون سبحانه قد أهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود وأخبر أنه ليس له أن يتكبر ثم تكبر وكذب وخان فى الجنة فدل على انها ليست فى السماء أو يكون عائدا إلى الجنة على القول الآخر ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التى كاد فيها آدم وغره وقاسمه كاذبا فى تلك التى أهبط منها بل القرآن يدل على أنها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدل الآية على أن الجنة التى جرى لآدم مع ابليس ما جرى فيها هى جنة الخلد . قالوا وأما قولكم ان بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التى يهبطون وهم كانوا يسيرون ويرحلون فلذلك قيل لهم اهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فان الهبوط يدل على أن تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التى أهبطوا اليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا والفرق بين قوله اهبطوا مصراً وقوله اهبطوا منها فإن الأول لنهاية الهبوط وغايته واهبطوا منها متضمن لمبدئه وأوله لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لابتداء الغاية ونهايتها فى تعيين محل الهبوط بأنه جنة الخلد . قالوا وأما قصة موسى ولومه لآدم على إخراجه من الجنة فلا يدل على أنها جنة الخلد وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان فى الأرض تشنيع لا يفيد شيئا أفترى كان ذلك بستاناً مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة الممنوعة التى هى عرضة الآفات والتعب والنصب والظمأ والحرث والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذى يلحق هذه البساتين ولا ريب أن موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجل من أن يلوم آدم على

خروجه وإخراج بنيه من بستان هذا شأنه ولكن من قال بهذا وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع ساكنها ولا يظمأ ولا يضحى للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشقاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب فى خروجه منها . قالوا وأما اعتذار آدم عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هى التى أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هى بعينها التى أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ فى الاعتذار فانه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية اقدام الطائفتين فمن كان له فضل علم فى هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلول الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال فى حلبة هذا الميدان .

إذا تلاقى الفحول فى لجب ۞ فكيف حال القصيص فى الوسط

هذه معاقد حجج الطائفتين بجنازة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها فى سوق الكساد لا فى سوق النفاق فمن لم يكن له به شىء من أسباب البيان والتبصرة فلا يعدم من قد استفرغ وسعه وبذل جهده منه التصويب والمعذرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين وابخس الحظين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهـــله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العالم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بعلم ابراهيم فقد ذكرنا فى هذه المسئلة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد فى شىء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستمداد وعليه التوكل وإليه الإستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصـــل

ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم وهو عهده الذى عهد إليه وإلى بنيه وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته . قال تعالى عقب إخراجه منها (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وفى الآية الأخرى قال (اهبطا منها جميعاً فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنافنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فلما كسره سبحانه باهباطه من الجنة جبره وذريته بهذاالعهد الذى عهده إليهم . فقال تعالى (فاما يأتينكم منى هدى) وهذه هى أن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان . والمعنى أى وقت وأى حين أتاكم منى هدى وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) كما تقول إن زرتنى فمن بشرنى بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة اما خبراً محضا كقولك ان زرتنى أكرمتك أو خبرا مقرونا بالشرط كهذا أومؤكدا بالقسم أو بأن واللام كقوله تعالى (وإن أطعتموهم انكم لمشركون) . واما طلبا كقول النبى ﷺ إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقوله وإذا لقيتموهم فاصبروا وقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وأكثر ما يأتى هذا النوع مع إذا التى تفيد تحقيق وقوع الشرط لسر وهو افادته تحقيق الطلب عند تحقيق الشرط فمن تحقق الشرط فالطلب متحقق فأتى بإذا الدالة على تحقيق الشرط فعلم تحقيق الطلب عندها وقد يأتى مع أن قليلا كقوله تعالى (وان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم) وأما جملة انشائية كقوله لعبده الكافر ان أسلمت فأنت حر ولامرأته ان فعلت كذا فأنت طالق فهذا انشاء للعتق والط ق عند وجود الشرط على رأى أو انشاء له حال التعليق ويتأخر نفوذه الى حين وجود الشرط على رأى آخر . وعلى التقديرين فجواب الشرط جملة انشائية . والمقصود ان جواب الشرط فى الآية المذكورة جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الشرط يقتضى ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذى هو ملزوم علة ومقتضيا للجزاء الذى هو لازم فان كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون الآخر ممتنعا كدخول الجنة بالإســـلام وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى وهذه هى عامة شروط القرآن والسنة فانها أسباب وعلل والحكم ينتفى بانتفاء علته وان كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزوما خاصا والجزاء لازما عاما فمن تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزاء اللازم العام ولا يلزم العكس كما يقال ان كان هذا انسانا فهو حيوان وان كان البيع صحيحا فالملك ثابت . وهذا غالب ما يأتى فى قياس الدلالة حيث يكون الشرط دليلا على الجزاء فيلزم من وجوده وجود الجزاء لأن الجزاء لازمه ووجود الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء وان

يوم هذا الشرط بين علة ومعلول فان كان الحكم معللا بعلل صح ذلك وجاز أن يكون الجزاء أعم من الشرط كقولك إن كان هذا مرتدا فهو حلال الدم فان حل الدم أعم من حله بالردة . إلا أن يقال أن حكم العلة المعينة ينتفى بانتفائها وإن ثبت الحكم بعلة أخرى فهو حكم آخر وأما حكم العلة المعينة فحال أن يبقى مع زوالها وحينئذ فيعود التلازم من الطرفين ويلزم من وجود كل واحد من الشرط والجزاء وجود الآخر ومن عدمه عدمه وتمام تحقيق هـذا فى مسألة تعليل الحكم الواحد بعلتين وللناس فيه نزاع مشهور وفصل الخطاب فيها ان الحكم الواحد ان كان واحدا بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة وإن كان واحداً بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع أو الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلتين مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه فى هذه المسألة والله أعلم . ومن تأمل أدلة الطائفتين وجد كل ما احتج به من رأى تعليل الحكم بعلل مختلفة إنما يدل على تعليل الواحد بالنوع بها وكل من نفى تعليل الحكم بعلتين إنما يتم دليله على نفى تعليل الواحد بالعين بهما فالقولان عند التحقيق يرجعان إلى شيء واحد . والمقصود أن الله سبحانه جعل اتباع هداه وعهده الذى عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهـذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط منتف بانتفائه كما تقدم بيانه ونفى الخوف والحزن عن متبع الهدى نفى لجميع أنواع الشرور فان المكروه الذى ينزل بالعبد متى علم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به وإذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه فهو دائما فى خوف وحزن وكل خائف حزين فكل حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب وحصول المكروه . فالأقسام أربعة خوف من فوت المحبوب وحصول المكروه وهذا جماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك عن متبع هداه الذى أنزله على ألسنة رسله وأتى فى نفى الخوف بالاسم الدال على نفى الثبوت واللزوم فان أهل الجنة لابد لهم من الخوف فى الدنيا وفى البرزخ ويوم القيامة حيث يقول آدم وغيره من الأنبياء نفسى نفسى فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوف عليهم أى لايلحقهم الخوف الذى خافوا منه وأتى فى نفى الحزن بالفعل المضارع الدال على نفى التجدد والحدوث أى لايلحقهم حزن ولايحدث لهم إذا لم يذكروا ماسلف منهم بل هم فى سرور دائم لايعرض لهم حزن على مافات . وأما الخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضى نفى لحوقه لهم جملة أى الذى خافوا منه لا ينالهم ولايلم بهم والله أعلم فالحزين إنما يحزن فى المستقبل على مامضى والخائف إنما يخاف فى الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم أى لايلحقهم ماخافوا منه ولا يعرض لهم حزن على مافات . وقال فى الآية الأخرى (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فنفى عن متبع هداه أمرين الضلال والشقاء قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ثم قرأ (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء عن متبع الهدى مطلقاً فاقتضت الآية أنه لا يضل فى الدنيا ولا يشقى ولا يضل فى الآخرة ولا يشقى فيها فان المراتب أربعة هدى وشقاوة فى الدنيا وهدى وشقاوة فى الآخرة لكن ذكر ابن عباس رضى الله عنهما فى كل دار أظهر مرتبتيها فذكر الضلال فى الدنيا إذ هو أظهر لنا وأقرب من ذكر الضلال فى الآخرة . وأيضا فضلال الدنيا أصل ضلال فى الآخرة وشقاء الآخرة مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الأخرى فنبه بنفى ضلال الدنيا على نفى ضلال الآخرة فان العبد يموت على ماعاش عليه ويبعث على مامات عليه قال الله تعالى فى الآية الأخرى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال فى الآية الأخرى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) فأخبر أن من كان فى هذه الدار ضالا فهو فى الآخرة أضل وأما نفى شقاء الدنيا فقد يقال أنه لما انتفى عنه الضلال فيها وحصل له الهدى والهدى فيه من برد اليقين وطمأنينة القلب وذاق طعم الايمان فوجد حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتنعم به ومصير القلب حيا بالايمان مستنيراً به قويا به قد نال به غذاءه ورواءه وشفاءه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ماهو من أجل أنواع النعيم وأطيب الطيبات وأعظم اللذات . قال الله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فهــذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحا أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ولكن يغلط الجفاة الأجلاف فى مسمى الحيــاة حيث يظنونها التنعم فى أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولاريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التى تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والاخوان والمساكن ورضى بتركها كلها والخروج منها رأسا وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه لاتأخذه فى ذلك لومة لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يلقى قوته من يده ويقول انها لحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحا

مسرورا ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف ويقول الآخر انه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين انه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا انهم لفي عيش طيب ومن تأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لما نهاهم عن الوصال فقالوا انك تواصل فقال انى لست كهيئتكم إنى أظل عند ربي يطعمني ويسقيني علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها ومايفيض عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة العليا منه وغيره إذا تعلق بغباره رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباء منثورا بل باطلا وغرورا . وغلط من قال أنه كان يأكل ويشرب طعاما وشرابا يغتذى به بدنه لوجوه . أحدها أنه قال أظل عند ربي يطعمني ويسقيني ولو كان أكلا وشربا لم يكن وصالا ولاصوما . الثانى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم ليسوا كهيئته فى الوصال فانهم إذا واصلوا تضرروا بذلك وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه إذا واصل لايتضرر بالوصال فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب وأنا أيضاً لا أواصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون فلما قررهم على قولهم انك تواصل ولم ينكره عليهم دل على أنه كان مواصلا وانه لم يكن يأكل أكلا وشربا يفطر الصائم . الثالث أنه لو كان أكلا وشربا يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون فى عدم الوصال فكيف يصح الجواب بقوله لست كهيئتكم وهذا أمر يعلمه غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيبه أو مايغمه ويسوؤه ويحزنه شغل عن الطعام والشراب حتى أن كثيرا من العشاق تمر به الأيام لايأكل شيئا ولاتطلب نفسه أكلا . وقد أفصح القائل فى هذا المعنى :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لها بوجهك نور تستضىء به ومن حديثك فى أعقابها حادى

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو أمر يشهد به الحس والوجد وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضى الله عنهما لكونها أهم وهى الغاية المطلوبة وضلال الدنيا أظهر وبالنجاة منه ينجو من كل شر وهو أضل ضلال الآخرة وشقائها فلذلك ذكره وحده والله أعلم .

فصــــل

وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً فى كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه ويذكر ضدهما وهما الهدى والفلاح كثيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه . أما الأول فكقوله تعالى (ان المجرمين فى ضلال وسعر) فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) . وأما الثانى فكقوله تعالى فى أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وكذلك فى أول لقمان . وقال فى الأنعام (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة فى القرآن وأفرضها قراءة على الأمة وأجمعها لكل مايحتاج إليه العبد وأعمها نفعاً ذكر فيها الأمرين فأمرنا أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح ثم قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء والضالين وهم أهل الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معاً لتكون الدلالة على كلٍّ منهما بصريح لفظه . وأيضا فانه ذكر ماهو أظهر الوصفين فى كل طائفة فان الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته والضلال فى النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم . وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

فصــــل

وقوله تعالى (فاما يأتينكم منى هدى) هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ثم قال (فاما يأتينكم منى هدى) وكلا الخطابين لأبوى الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا مما لاخلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث اليهم كما بعث إلى الانس كما لاخلاف بينها أن مسيئهم مستحق للعقاب . وإنما اختلف علماء الإسلام فى المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم فى الجنة كما أن مسيئهم فى النار وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم ، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس وإنما هى لبنى آدم وصالحى ذريته خاصة . وحكى هذا القول عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى . واحتج الأولون بوجوه . أحدها هذه الآية فانه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم

لكمال النعيم . ولا يقال أن الآية إنما تدل على نفى العذاب فقط ولا خلاف أن مؤمنيهم لايعاقبون لأنا نقول لولم تدل الآية إلا على أمر عدمى فقط لم يكن مدحاً لمؤمنى الانس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدمى وهو عدم الخوف والحزن . ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعيم واندفع عنه غاية الشقاء وعبر عن هـــذا المعنى المطلوب بنفى الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فانه لما أهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ماحصل فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء . ومعلوم أنه لاينتفى ذلك كله إلا بدخول دار النعيم ولكن المقام بذكر التصريح بنفى غاية المكروهات أولى . الثانى قوله تعالى (وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخباراً بقوله أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلا بقوله (ويجركم من عذاب أليم) بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة . الثالث قوله تعالى فى الحور العين (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) فهذا يدل على أن مؤمنى الجن والانس يدخلون الجنة وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور فدل على أن مؤمنيهم يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول كما يتأتى من الانس ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك . الرابع قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحوهم (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) فكما دخل كافرهم فى الآية الثانية وجب أن يدخل مؤمنهم فى الأولى . الخامس قوله عن صالحيهم (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) والرشد هو الهدى والفلاح وهو الذى يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العلم . السادس قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل فى المبشرين ويستحق البشارة . السابع قوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) عمم

سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية اليها فمن هداه اليها فهو ممن دعاه اليها فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين اليها . الثامن قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا) وهذا عام فى الجن والانس فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كالمحسن الانس . التاسع قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وقوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة . أحدها عموم الاسم الموصول فيها . الثانى ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها وهو قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فاذا كان دخول الجنة مرتباً على الاقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فمن أتى ذلك استحق الجزاء الثالث انه قال (فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) فدل على أن كل من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة وقد تقدم فى أول الآيات قوله تعالى (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) وأنه متناول للفريقين ودلت هذه الآية على أن من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة . العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله فدخول محسنهم الجنة بفضله ورحمته أولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل ولهذا لايدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار . وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيرا قط بل ينشىء لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعى منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التى يهدونها اليه بخلاف أهل النار فانه لايعذب فيها بغير عمل أصلا . وقد ثبت بنص القرآن واجماع الأمة ان مسىء الجن فى النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فمحسنهم فى الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون . لكن قيل أنهم يكونون فى ربض الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا فى الدنيا يرون بنى آدم من حيث لايرونهم ومثل هذا لايعلم إلا بتوقيف تنقطع الحجة عنده فان ثبتت حجة يجب اتباعها وإلا فهو مما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم .

فصـــل

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدح في تصديقه، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الأصلين مدار الايمان وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر ويتبعهما أمران آخران وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لايخمش بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال فهنا أربعة أمور . أحدها تصديق الخبر . الثاني بذل الاجتهاد في رد الشبهات التي توحيها شياطين الجن والانس في معارضته . الثالث طاعة الأمر والرابع مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة وهذان الأمران أعني الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده كما أن الأصلين الأولين وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده وذلك أن العبد له قوتان قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام وقوة الارادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية مالم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر فسادا في القوة الارادية العملية مالم يداوها باخراجها قال الله تعالى في حق نبيه يذكر ما منّ به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى) فما ضل دليل على كمال علمه ومعرفته وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتباعهم على سنتهم فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي رواه الترمذي وغيره فالراشد ضد الغاوي والمهدي ضد الضال وقد قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) فذكر تعالى الأصلين وهما داء الأولين والآخرين أحدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لايستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا بل ينال منها ماينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده والثاني الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله (وخضتم كالذي خاضوا) وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة لاتزال ساعية في نيل شهواتها فاذا نالتها فانما هي في خوض بالباطل الذي لايجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل . ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية

لكانت أئمة تدعوا إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذى خاضوا أو كالفريق الذى خاضوا فان الذى يكون للواحد والجمع ونظيره قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) لكن لايجرى على جمع تصحيح فلا يجىء المسلمون الذى جاؤا وإنما يجىء غالبا فى اسم الجمع كالحزب والفريق أو حيث لايذكر الموصوف وان كان جمعاً كقول الشاعر :

وان الذى جاءت تقبيح دماؤهم ٥ هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به) ثم قال (أولئك هم المتقون) ونظيره الآية التى نحن فيها وهى قوله (وخضتم كالذى خاضوا) أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضا كالخوض الذى خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك اضرب كالذى ضرب وأحسن كالذى أحسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا محذوفا وحذفه فى مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات واخبر أن من كانت هذه حاله فقد حبط عمله فى الدنيا والآخرة وهو من الخاسرين ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوهم كيف دخلوها (قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين) فذكروا الأصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين . وايثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوى الحاجات فهذان الأصلان هما ماهما والله ولى التوفيق .

فصل

والقلب السليم الذى ينجو من عذاب الله هو القلب الذى قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذى قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبره فهو سليم مما سوى الله وأمره لايريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فالله وحده غايته وأمره وشرعه وسيلته وطريقته لاتعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لاتمر عليه إلا وهى مجتازة تعلم أنه لاقرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك وسليم من البدع وسليم من الغى وسليم من الباطل وكل الأقوال التى قيلت فى تفسيره فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفا وطمعاً ورجاء ففنى بحبه عن حب ماسواه وبخوفه عن خوف ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وسلم لامره

ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فاسلم لربه انقيادا وخضوعا وذلا وعبودية وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرا وباطنا من مشكاة رسوله وعرض ماجاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده ومالم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له ووالى أولياءه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما .

فصـــل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) وفي قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه وقال تعالى (أتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة) وقال (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن) فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ إنما هي الإتباع يقال اتل أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه ومنه قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) أي تبعها في الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضا أي يتبع وسمى تالي الكلام تاليا لأنه يتبع بعض الحروف بعضا لايخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضا مرتبة كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريقة . والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقا بخبره وائتمارا بأمره وانتهاء بنهيه وائتماما به حيث ماقادك انقدت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فانهم أهل تلاوة ومتابعة حقا .

فصـــل

ثم قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذي أنزلتـــه فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل كقيامي وقراءتي لا إلى المفعول وليس المعنى ومن أعرض

عن أن يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره . وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه فان القرآن يسمى ذكراً قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين) وقال تعالى (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن) وعلى هذا فاضافته كاضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله ونظيره فى إضافة إسم الفاعل (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) فان هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم وكذلك جرت أوصافاً على اعرف المعارف وهو اسم الله تعالى فى قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

فصـــل

وقوله تعالى (فان له معيشة ضنكا) فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تترك فى العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشياً) فهذا فى البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فهذا فى القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الإذاقة هى فى البرزخ وأولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كنظائره وكلاهما واقع وقت الوفاة . وفى الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال نزلت فى عذاب القبر والأحاديث فى عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى فان له معيشة ضنكا وتكفل لمن حفظ

عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بعهده علماً وعملا فى العاجلة بالحياة الطيبة وفى الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ ونسيانه فى العذاب بالآخرة وقال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب اعراضه وعشوه عن ذكره الذى أنزله على رسوله فكان عقوبة هـــذا الاعراض أن قيض له شيطانا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعاين هلاكه وافلاسه قال (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحى الذى هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة فان قيل فهل لهذا عذر فى ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (ويحسبون أنهم مهتدون) . قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الاعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعى الهدى فاذا ضل فانما أتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذاك له حكم آخر والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول وأما الثانى فان الله لا يعذب أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وقال تعالى فى أهل النار (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . وقال تعالى (أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا كثير فى القرآن .

فصـــل

وقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) . وقوله (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وقوله (لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية

فى الآخرة كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) وقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا السياق لا يدل إلا عليه لقوله (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) وهو لم يكن بصيرا فى كفره قط بل قد تبين له حينئذ أنه كان فى الدنيا فى عمى عن الحق فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يجاب بقوله (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله فانه لما أعرض عن الذكر الذى بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة وتركه فى العذاب كما ترك الذكر فى الدنيا لجازاه على عمى بصيرته عمى بصره فى الآخرة وعلى تركه ذكره تركه فى العذاب وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما) . وقد قيل فى هذه الآية أيضا أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى كما قيل فى قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قالوا لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصرانه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه ولهذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لا يرون شيئا يسرهم . وقال آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فاذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك ثم انهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروى عن الحسن . وقال آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى (اخسئوا فيها ولا تكلمون) فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها بل هم عمى عن الهدى كما كانوا فى الدنيا فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر فان الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان يجحده فى الدنيا فليس هو أعمى عن الحق يومئذ ﴿ وفصل الخطاب ﴾ ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبى صلى الله عليه وسلم انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا وكقوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت) وكقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر لحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة

وحشر الكافرين جميعهم وضمهم إلى النار . قال تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) . وقال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار لأنه قد أخبر عنهم أنهم (قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثانى وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثانى من الموقف إلى النار فمند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثانى يحشرون على وجوههم عمياً وبكما وصماً فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضا (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) .

فصـــل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذى جعله سببا موصلا لهم إليه وطريقا واضحا بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن أعرض عنه شقى وغوى . ولما كان هذا العهد الكريم والصراط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة فالإرادة باب الوصول اليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكمال كل انسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما اما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك فى طلبها أو يكون عالما بها ولا تنهض همته إليها فلا يزال فى حضيض طبعه محبوسا وقلبه عن كماله الذى خلق له مصدودا منكوسا قد أسام نفسه مع الأنعام راعيا مع الهمل واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فشمر اليه وبورك له فى تفرده فى طريق طلبه فلزمه واستقام عليه قد ابت غلبات شوقه الا الهجرة إلى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه فى سبيله . ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذى لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذى لا يبلى ولا يفوت وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحى الذى لا يموت ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى والحظ الأوفى إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذى بعثه لذلك داعيا وأقامه على هذا الطريق هاديا وجعله واسطة بينه وبين الأنام وداعيا لهم بإذنه إلى دار السلام وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعيا إلا أن يكون مبتدأ منه ومنتهيا اليه .

فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة والقلوب باسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة اليه عن الله محبوسة مصدودة لحق على من كان في سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن الله واعيا أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرهما أخبيته التي اليها مفزعه في حياته وطاء له فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين ﴿ وسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ﴾ إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها على حين انقطاعي إليه عند بيته وإلقائي نفسي ببابه مسكينا ذليلا وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا فما خاب من أنزل به حوائجه وعلق به آماله وأصبح ببابه مقيما وبحماه نزيلا ولما كان العلم أمام الإرادة ومقدما عليها ومفصلا لها ومرشدا لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة. ثم نتبعه ان شاء الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها والاستدلال بسائر طرق الأدلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالإله الحق الذي لا إله غيره بل لا ينبغي أن تكون إلا له ومن أجله والرد على من انكر ذلك وتبيين فساد قوله عقلا ونقلا وفطرة وقياسا وذوقا ووجدا فهذا مضمون هذه التحفة وهذه عرائس معانيها الآن تجلى عليك وخود أبكارها البديعة الجمال ترفل في حللها وهي تزف اليك فاما شمس منازلها بسعد الاسعد وأما خود تزف إلى ضرير مقعد فاختر لنفسك احدى الخطتين وأنزلها فيما شئت من المنزلتين ولا بد لكل نعمة من حاسد ولكل حق من جاحد ومعاند هذا وانما أودع من المعاني والنفائس رهن عند متأمله ومطالعه له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعته ولصاحبه كله ومشقته مع تعرضه لطعن الطاعنين ولاعتراض المناقشين وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض على عقول العالمين وإلقائه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين وأنياب البغاة المعتدين فلك أيها القارىء صفوه ولمؤلفه كدره وهو الذي تجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وها هو قد استهدف لسهام الراشقين واستعذر إلى الله من الزلل والخطأ ثم إلى عباده المؤمنين. اللهم فعياذا بك ممن قصر في العلم والدين باعه وطالت في الجهل وآذى عبادك ذراعه فهو لجهله يرى الإحسان اساءة والسنة بدعة والعرف نكرا ولظلمه يجزي بالحسنة سيئة كاملة وبالسيئة الواحدة عشرا قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلما إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه يستطيل على أولياء الرسول وحزبه باصغريه ويجالس أهل الغي والجهالة ويزاحمهم بركبتيه قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف إلى مراتب

ورثة الأنبياء وتطلع يركض فى ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم فى الجهالة فيظن أنه من السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزل وإذا أنزل الورثة منازلهم منها فمنزلته منها أقصى وأبعد منزل .

نزلوا بمكة فى قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذا بك ممن جعل الملامة بضاعته والعذل نصيحته فهو دائما يبدى فى الملامة ويعيد ، ويكرر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد . بل عياذا بك من عدو فى صورة ناصح وولى فى مسلاخ بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذرا وإشفاقا وتنفيره وتخذيله إسعافا وإرفاقا وإذا كانت العين لا تكاد إلا على هؤلاء تفتح والميزان بهم يخف ولا يرجح فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزءا من الالتفات ويسافر فى طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات وما أحسن ما قال القائل :

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

اللهم فلك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل . فلنشرع الآن فى المقصود بحول الله وقوته فنقول .

الأصل الأول فى العلم وفضله وشرفه

وبيان عموم الحاجة اليه وتوقف كمال العبد ونجاته فى معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه . أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر . والثانى اقتران شهادتهم بشهادته . والثالث اقترانها بشهادة ملائكته . والرابع أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فان الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة رأيت رجلا قدم رجلا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضى

فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعى ألك بينة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فمن شهودى وأما فلان فليس من شهودى قال فيعرفه القاضى قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه فى كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيراً . قال فان النبى صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى ممن عدلته أنت فقال قم فهاته فقد قبلت شهادته . وسيأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث فى موضعه . الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم . السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا . السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم . الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده . التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافا وتصديقاً وإيمانا . العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فاذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الاقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية . الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) كما قال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم . الوجه الثانى عشر أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال (أفمن يعلم انما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) فما ثم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه . الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقا وجعل هذا ثناء عليهم واستشهادا بهم . فقال تعالى (ويرى الذين أوتو العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق) الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم . فقال (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر إن

كنتم لاتعلمون) وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء . الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة فى ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى (أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) . الوجه السادس عشر أنه سبحانه سلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لايعبأ بالجاهلين شيئا . فقال تعالى(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به اولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحته ان أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أولا . الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات فى صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم . فقال تعالى (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر فى صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو فى نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بخبرين . أحدهما أنه آيات بينات . الثانى أنه محفوظ مستقر ثابت فى صدور الذين أوتوا العلم . أوكان المعنى أنه آيات بينات فى صدورهم أى كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت فى صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم فى ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله : الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما) وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه . الوجه التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة . فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) وقد أخبر سبحانه فى كتابه برفع الدرجات فى أربعة مواضع . أحدها هذا . والثانى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) والثالث قوله تعالى (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) والرابع قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) فهذه أربعة مواضع فى ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذى هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوام الدين. الوجه العشرون . أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار . فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) الوجه الحادى والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشيته بل خصهم من بين الناس بذلك . فقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) وهذا حصر لخشيته فى أولى العلم . وقال تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء . فدل على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهــلا . الوجه الثانى والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التى يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وفى القرآن بضعة وأربعون مثلا وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكى ويقول لست من العالمين . الوجه الثالث والعشرون أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه فى سورة الأنعام (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة . الوجه الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير فقال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قــدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر . الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى (قل بفضـل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وفسر فضـل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم وأفضل عمل . الوجه السادس والعشرون . أنه سبحانه شهد لمن آتاه العـلم بأنه قد آتاه خيراً كثيرا . فقال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) . قال

ابن قتيبة والجمهور الحكمة إصابة الحق والعمل به وهى العلم النافع والعمل الصالح . الوجه السابع والعشرون . أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلمه مالم يكن يعلم . فقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) . الوجه الثامن والعشرون . أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكروه على إسدائها إليهم فقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) الوجه التاسع والعشرون . أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل فى الأرض خليفة قالوا له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى ابليس فلعنه وأخرجه من السماء ﴿ وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه ﴾ أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل فى الأرض من هم أطوع له منه فقال (انى أعلم مالا تعلمون) فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها مالا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والايمان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما فى خلق آدم واسكانه الأرض من الحكم الباهرة . الثانى انه سبحانه لما أراد اظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . جاء فى التفسير أنهم قالوا ان يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل مالم يعلموه . فقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال (يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) أقروا له بالفضل. الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم (ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم . الرابع أنه سبحانه جعل فى آدم

من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما فى الانسان وان فضله وشرفه انما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد اظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ماعجز عنه علماء التعبير فحينئذ قدمه ومكنه وسلم إليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على مارآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكنه فى الأرض فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة . وهذا وجه مستقل فى تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم فتم به ثلاثون وجها . الوجه الحادى والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل فى مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) وقال (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . وقال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال بل أعداؤهم على الحقيقة . وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه (فلا تكونن من الجاهلين) وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقال لأول رسله نوح عليه السلام (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فهذه حال الجاهلين عنده والأول حال أهل العلم عنده . وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه . فقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) وأمر نبيه بالاعراض عنهم فقال (وأعرض عن الجاهلين) وأثنى على عباده بالاعراض عنهم ومتاركتهم كما فى قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) وقال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فان كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه . الوجه الثانى والثلاثون ان العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فان النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها والحياة هى المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه وضده الوقاحة

والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء . قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) كان ميتاً بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الايمان نوراً يمشى به فى الناس . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ونور يحصل به الإضاءة والإشراق فجمع بين الأصلين الحياة والنور . وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير) وقال تعالى (ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبينا) وقال تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) فضرب سبحانه مثلا لنوره الذى قذفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضى الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية (نور على نور) يعنى نور الإيمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه كقوله (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ففضل الله الإيمان ورحمته القرآن . وقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقد تقدمت هذه الآيات . وقال فى آية النور (نور على نور)

وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله ضرب مثلا صراطاً مستقيما وعلى كتفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوقه (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) والأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر والذى يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان . وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من الإيمان ثم علموا من القرآن . وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فجعل الناس أربعة أقسام أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء والأشقياء قسمان . أحدهما من أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثانى من لا أوتى قرآناً ولا إيماناً . والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضلها بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) الوجه الثالث والثلاثون أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضاً من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فدل على شرف العلم وفضله . قال الله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب) ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء . الوجه الرابع والثلاثون ان الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذى كتب له التوراة بيده وكلمه منه اليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علما إلى علمه فقال (وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) حرصا منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا) فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا باذنه وقال (على أن تعلمن مما علمت

رشدا) فلم يجيء ممتحنا ولا متعنتا وإنما جاء متعلما مستزيدا علما إلى علمه. وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم فإن نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له قرار حتى لقيه وطلب منه متابعته وتعليمه وفي قصتهما عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع ذكرها. الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وانذار قومهم اذا رجعوا اليهم وهو التعليم وقد اختلف في الآية فقيل المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون النفير على هذا نفير تعلم والطائفة تقال على الواحد فما زاد قالوا فهو دليل على قبول خبر الواحد وعلى هذا حملها الشافعي وجماعة. وقالت طائفة أخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام. وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله فانه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد. قال الله تعالى (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة. وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه فان ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه كما سيأتي تقريره في الوجه الثامن والمائة ان شاء الله تعالى. الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) قال الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم ﴿وبيان ذلك﴾ ان المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. احداها معرفة الحق. الثانية عمله به الثالثة تعليمه من لا يحسنه. الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر ان كل أحد في خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة. وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى. وتواصوا بالحق وصى به بعضهم بعضاً تعليما وارشاداً فهذه مرتبة ثالثة. وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فان الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره وكماله باصلاح قوتيه العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان

وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذى جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير . الوجه السابع والثلاثون أنه سبحانه ذكر فضله ومنته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقد تقدمت هذه الآية . وقال فى يوسف (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) وقال فى كليمه موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمراً عظيما خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى يعنى تم وكملت قوته . وقال فى حق المسيح (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال فى حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوارة والإنجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به . وقال فى حق داود (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) وقال فى حق الخضر صاحب موسى وفتاه (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته . وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلماً) فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد ذكرت الحكمين الداوودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع فى كتاب الاجتهاد والتقليد . وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله) يعنى الذى أنزله جعل سبحانه تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شىء وهـــذا من فضل العلم وشرفه وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يعنى و بعث فى آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف فى هذا اللحاق المنفى فقيل هو اللحاق فى الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق فى الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بان علمهم بعد الجهل وهداهم بعد الضلالة ويالها من منة عظيمة فاتت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن . الوجه الثامن والثلاثون أن أول سورة أنزلها الله فى كتابه سورة القلم فذكر فيها ما من به على الانسان من تعليمه مالم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الانسان بما علمه اياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموماً . فقال (الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم) وخص الانسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت اليها النطفة فهى مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فان الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو موليها والكمال كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً ثم ذكر تعليمه عموما وخصوصاً . فقال الذى علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الانسان خصوصاً . فقال (علم الانسان مالم يعلم) فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة احداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق . المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الانسان مالم يعلم) . المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والخطية فالخطية مصرح بها فى قوله الذى علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فان الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه فهو الخالق المعلم وكل شىء فى الخارج فبخلقه وجد وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان فباقداره وخلقه وتعليمه وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم اياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم أحد الادلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفا وفضلا له . الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سمى الحجة العلمية سلطاناً ، قال ابن عباس رضى الله عنه كل سلطان فى القرآن فهو حجة وهذا كقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله

مالا تعلمون) يعنى ماعندكم من حجة بما قلتم ان هو الا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى (ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال تعالى (أم لكم سلطان مبين فائتوا بكتابكم ان كنتم صادقين) يعنى حجة واضحة فائتوا بها ان كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعاً واحدا اختلف فيه وهو قوله (ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) فقيل المراد به القدرة والملك أى ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان وقيل هو على بابه أى انقطعت حجتى وبطلت فلا حجة لى . والمقصود ان الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانا لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد فان الحجة تنقاد لها القلوب وأما اليد فانما ينقاد لها البدن فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقهر سلطان اليد والسيف له والا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له . الوجه الأربعون ان الله تعالى وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) فاخبروا انهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فاخبر سبحانه أنهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهى العقل والسمع والبصر كما قال فى موضع آخر (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالأنعام تارة وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار وتارة جعلهم أضل من الأنعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء وتارة أخبر انهم فى ظلمات الجهل والضلال وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم كما أنه يحب

أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم كما تقدم والله المستعان، الوجه الحادى والأربعون ما فى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وهذا يدل على ان من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل وأما ان اريد به مجرد العلم فلا يدل على ان من فقه فى الدين فقد اريد به خيرا فان الفقه حينئذ يكون شرطا لارادة الخير وعلى الأول يكون موجبا والله اعلم . الوجه الثانى والأربعون مافى الصحيحين ايضا من حديث ابى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به شبه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده . أحدها أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلأ والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية . القسم الثانى أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفقها فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعرابه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكمين ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع فهؤلاء القسمان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لاحفظاً ولا فهما ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة

الأرض التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء والقسمان الأولان اشتركا فى العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل اليه فهذا يعلم ألفاظ القرآن ويحفظها وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم وتقسيم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على ان حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم وانهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التى فقدت الغيث . قال الإمام أحمد الناس يحتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج اليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) شبه سبحانه العلم الذى أنزله على رسوله بالماء الذى أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد فى معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علماً كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع علماً قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا . فقال (فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فانه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادى زبدا يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر فى أرض الوادى كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترمى فيستقر فى القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق كما يستقر فى الوادى الماء الصافى ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر . فقال (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) يعنى أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذى تلقيه النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فانه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والاشراق والاحراق فآيات القرآن تحيى القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما فى هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى (وتلك

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) الوجه الثالث والأربعون مافى الصحيحين أيضاً من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى رضى الله عنه لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خيرلك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرا له من حمر النعم وهى خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس . الوجه الرابع والأربعون ماروى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً . أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به . والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته فى هداية الناس وهذا بذل قدرته فى ضلالتهم فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور فى غير هذا الموضع . قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وهذا يدل على ان من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً لأنه قطع وصول أجرمن اهتدى بسنته اليه وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان الوجه الخامس والأربعون ماخرجا فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . فاخبر صلى الله عليه وسلم أنه لاينبغى لأحد أن يحسد أحدا يعنى حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا فى واحدة من هاتين الخصلتين وهى الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله . وما عدا هذين فلا ينبغى غبطته ولا تمنى مثل حاله لقلة منفعة الناس به . الوجه السادس والأربعون قال الترمذى حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن حميد حدثنا القاسم عن أبى أمامة الباهلى قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلمى الناس الخير . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب سمعت أباعمار الحسين ابن حريث الخزاعى . قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيرا فى ملكوت السموات وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الأمة رجلان فرجل أعطاه الله علما

فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ولم يشتر به ثمنا أولئك يصلى عليهم طير السماء وحيتان البحر ودواب الأرض والكرام الكاتبون ورجل آتاه الله علما فضن به عن عباده وأخذ به صفداً واشترى به ثمنا فذلك يأتى يوم القيامة يلجم بلجام من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفى رفعه نظر. وقوله ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير لما كان تعليمه للناس الخير سبباً لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض مايكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه . وأيضا فان معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه مايكون تنويها به وتشريفا له واظهارا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض . الوجه السابع والاربعون مارواه أبو داود والترمذى من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من سلك طريقا يبتغى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الأنبياء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم فمن أخذه أخـــذ بحظ وافر . وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان ابن أيمن عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة وفرشت له الملائكة اكنافها وصلت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر وموت العالم مصيبة لاتجبر وثلمة لاتسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق التى يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه فى الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته ففيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم تناسب فان الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبنى آدم وعلى أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى . ومن نفعهم لبنى آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم ويثنون على مؤمنيهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريده العبد ولا يخطر بباله . كما قال بعض التابعين وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد . وقال تعالى (الذين يحملون

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) فاى نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء فاذا طلب العبد العلم فقد سعى فى أعظم ماينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيما . وقال أبو حاتم الرازى سمعت ابن أبى أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع أجنحتها يعنى تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدى وقال أحمد بن مروان المالكى فى كتاب المجالسة له حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصرى . قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبى صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وفى المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزىء بالحديث فقال والله لأطرقن غدا نعلى بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومشى فى النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الاكلة . وقال الطبرانى سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجى . قال كنا نمشى فى بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فاسرعنا المشى وكان معنا رجل ماجن منهم فى دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزىء فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط . وفى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال . قال قلت يا رسول الله انى جئت أطلب العلم قال مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب . وذكر حديث المسح على الخفين . قال أبو عبد الله الحاكم اسناده صحيح . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأى ففى هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء وفى الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبها اياه وحياطته وحفظه فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفاً وفضلا . وقوله صلى الله عليه وسلم إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء فانه لما كان العالم سبباً فى حصول العلم الذى به نجاة النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصوراً على هذا وكانت نجاة العباد على يديه جوزى من جنس عمله وجعل من فى السموات والأرض ساعياً فى نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل ان من فى السموات ومن فى الأرض المستغفرين

للعالم عام فى الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان فى الماء وحتى النملة فى جحرها . فقيل سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وارفقها بالحيوان والعالم أشفق النــاس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له وبالجملة فالرحمة والإحسان التى خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لها حظهما منه إنما يعرف بالعلم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم .

وقوله وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب فان القمر يضىء الآفاق ويمتد نوره فى أقطار العالم وهذه حال العالم . وأما الكوكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذى يضىء نور عبادته عليه دون غيره وان جاوز نور عبادته غيره فانما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكوكب له مجاوزة يسيرة ومن هـــذا الأثر المروى إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد أدخل الجنة فإنما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فإنمـــا كانت منفعتك للناس . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقيه فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقيه اشفع تشفع وفى التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل فى ظلمته وحندسه والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة فى تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته واضاءته بعلمائه وعباده فاذا ذهب علماؤه وعباده ذهب الدين كما أن السماء اضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها فاذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ماتوعد وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب . فان قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهى أعظم نوراً . قيل فيه فائدتان . إحداهما أن نور القمر لما كان مستفاداً من غيره كان تشبيه العالم الذى نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس الثانية أن الشمس لا يختلف حالها فى نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت فى الإضاءة . وأما القمر فانه يقل نوره ويكثر ويمتلىء وينقص كما أن العلماء فى العلم على مراتبهم من كثرته وقلته فيفضل كل منهم فى علمه بحسب كثرته وقلته وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالبدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه وهم درجات عند الله فان قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم ولهذا هى فى تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر . قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فان النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء . والنجوم زينة للسماء .

فكذلك العلماء زينة للأرض . وهى رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحى الوارد إلى الرسل من الله على أيدى ملائكته وكذلك العلماء رجوم لشياطين الانس والجن الذى يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين . ولكن الله سبحانه أقامهم حراساً وحفظة لدينه ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله فهذا وجه تشبيههم بالنجوم وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان فى مقام تفضيلهم على اهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضل القمر سائر الكواكب فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله . وقوله أن العلماء ورثة الأنبياء هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فان الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم : ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته اذهم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم فى تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم . وفى هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فان الميراث انما يكون لأقرب الناس إلى الموروث وهذا كما أنه ثابت فى ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو فى ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء وفيه أيضاً ارشاد وأمر للامة بطاعتهم واحترامهم وتعزيزهم وتوقيرهم واجلالهم فانهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة وخلفاؤهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو فى موروثهم . قال على كرم الله وجهه ورضى عنه محبة العلماء دين يدان به . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وورثه الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم فى التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس إليهم بالاحسان والرفق بهم واستجلابهم إلى الله باحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فانه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره . وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربى الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقى من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل فى ايصال الغذاء إليه فان أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم تربها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحة كما قيل .

ومن لا يربيه الرسول ويسقه   لباناً له قد در من ثدى قدسه
فذاك لقيط ماله نسبة الولا   ولا يتعدى طور ابناء جنسه

وقوله أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم هذا من كمال الأنبياء وعظم

نصحهم للامم وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم أن أزاح جميع العلل وحسم جميع المواد التى توهم بعض النفوس أن الأنبياء من وجنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها فحماهم الله سبحانه وتعالى من ذلك أتم الحماية . ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذى عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التى تقول فلعله ان لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده فقال ﷺ : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة فلم تورث الأنبياء دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم . وأما قوله تعالى «وورث سليمان داود» فهو ميراث العلم والنبوة لاغير . وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصا به . وأيضاً فان كلام الله يصان عن الأخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة أن يقال مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم ان كل أحد يرثه ابنه وليس فى الأخبار بمثل هذا فائدة . وأيضاً فإن ماقبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال . قال تعالى (ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داوود) وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة (ان هذا لهو الفضل المبين) . وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً) فهذا ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله وإلا فلا يظن بنبى كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله فيسأل الله العظيم ولداً يمنعهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ماهم برآء منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهـــدايته . ويذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه مر بالسوق فوجدهم فى تجاراتهم وبيوعاتهم فقال أنتم ههنا فيما أنتم فيه وميراث رسول الله ﷺ يقسم فى مسجده فقاموا سراعاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالس العلم فقالوا أين ماقلت ياأبا هريرة . فقال هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريثكم ودنياكم أو كما قال . وقوله فمن أخذه أخذ بحظ وافر أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له وليس هذا إلا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذى إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين وذلك لأنه موصول بالحى الذى لايموت فلذلك لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها كما قال تعالى (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت

عنهم أحوج مايكون العامل إلى عمله وهذه هي المصيبة التي لاتجبر عياذاً بالله واستعانة به وافتقاراً وتوكلا عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله موت العالم مصيبة لاتجبر وثلمة لاتسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم لما كان صلاح الوجـــود بالعلماء ولولاهم كان الناس كالبهائم بل أسوأ حالا كان موت العالم مصيبة لايجبرها إلا خلف غيره له . وأيضاً فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فموتهم فساد لنظام العالم ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده وتأمل إذا كان في الوجود رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ماعنده شديدة وهو محسن إليهم بكل ممكن ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ومثل هذا يموت بموته أمم وخلائق كما قيل :

تعـــلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقـــد حر يموت بموته بشر كثير

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهـــدما

والوجه الثامن والأربعون ماروى الترمذي من حديث الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد . قال الترمذي غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم قلت قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن على اليقطيني حدثنا عمر بن سعيد بن سنان حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الخطيب والأول هو المحفوظ عن روح مجاهد عن ابن عباس وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث إلا من أبي جعفر لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن عمار عن الوليد عن روح عن الزهرى عن سعيد حديث في السماء بيت يقال له البيت المعمور حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا في كتاب ابن سنان عن هشام يتلو أحدهما الآخر فكتب أبو جعفر أسناد حديث أبي هريرة رضى الله عنه ثم عارضه لسهو أوزاغ نظره فنزل إلى متن حديث ابن عباس فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من تعمد الغلط وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران حدثنا شيبان أبو الربيع السمان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل شىء دعامة ودعامة الإسلام الفقه في الدين والفقيه أشد على الشيطان من ألف

عابد ولهذا الحـــديث علة وهو أنه روى من كلام أبى هريرة وهو أشبه رواه همام بن يحيى حدثنا يزيد بن عياض حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان عن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين قال وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصليها حتى أصبح والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شىء دعامة ودعامة الدين الفقه . وقد روى باسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبى النجود عن زر بن حبيش عن عمر بن الخطاب يرفعه ان الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد . وقال المزنى روى عن ابن عباس أنه قال ان الشياطين قالوا لإبليس ياسيدنا مالنا نراك تفرح بموت العالم مالا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب منه والعابد نصيب منه قال انطلقوا فانطلقوا إلى عابد فأتوه فى عبادته فقالوا إنا نريد أن نسألك فانصرف فقال إبليس هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة فقال لا أدرى فقال أترونه كفر فى ساعة ثم جاؤا إلى عالم فى حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم فقالوا إنا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا فى جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالماً كثيراً . وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وإنهم سألوا العابد فقالوا هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدرى فقال أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا عن ذلك فقال هذه المسئلة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقاً فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل فإذا كان مخلوقا لم يكن مثله بل كان عبداً من عبيده وخلقاً من خلقه فقال أترون هذا يهدم فى ساعة ما أبنيه فى سنين أوكما قال . وروى عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها وهذا معناه صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك فلا شىء أشد عليه من بقاء العـــالم بين ظهرانى الأمة ولا شىء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة . وأما العابد فغايته أن يجاهده ليسلم منه فى خاصة نفسه وهيهات له ذلك . الوجه التاسع والأربعون ما روى الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم . قال الترمذى هذا حديث حسن . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوى لديه جناح بعوضة كانت وما فيها فى غاية البعد منه وهذا هو حقيقة اللعنة وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنا

لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابه وهو العلم الذى به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجد ولهذا خلقها وخلق أهلها . كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقال (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقاً إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة واللعنة واقعة على ما عداه إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب فى الآخرة فانه كما كان متعلق اللعنة التى تتضمن الذم والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته ولوازم ذلك وما أفضى إليه . وما عداه فهو مبغوض له مذموم عنده . الوجه الخمسون ما رواه الترمذى من حديث أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وانما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير والثانى الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه . قال تعالى فى سورة الفرقان وهى مكية (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضاً فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم فى الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا . فقد قال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن . والمقصود أن سبيل الله هى الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به الى الله . ولهذا قال معاذ رضى الله عنه عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر . كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النـــاس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) فذكر الكتاب والحديد اذ بهما قوام الدين كما قيل :

فما هو إلا الوحى أوحد مرهف تميل ظباه أخدعاً كل مايل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة رضى الله عنهم

قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بالأمراء والعلماء فإنهم المجاهدون فى سبيل الله هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل الله عز وجل . قال كعب الأحبار طالب العلم كالغادى الرائح فى سبيل الله عزوجل . وجاء عن بعض الصحابة رضى الله عنهم إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد وقال سفيان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عزوجل . وقال أبو الدرداء من رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى عقله ورأيه ، الوجه الحادى والخمسون ما رواه الترمذى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، قال الترمذى هـذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل فى هذا الحديث صحيح لأنه يقال دلس الأعمش فى هذا الحديث لأنه رواه بعضهم فقال حدثت عن أبى صالح والحديث رواه مسلم فى صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبى صالح قال الحاكم فى المستدرك هو صحيح على شرط البخارى ومسلم رواه عن الأعمش جماعة منهم زايدة وأبو معاوية وابن نمير وقد تقدم حديث أبى الدرداء فى ذلك والحديث محفوظ وله أصل وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك . وقد روى من حديث عائشة رواه ابن عدى من حديث محمد بن عبد الملك الانصارى عن الزهرى عن عروة عنها مرفوعاً ولفظه أوحى الله إلى أنه من سلك مسلكا يطلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة الوجه الثانى الخمسون أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهى البهجة ونضارة الوجه وتحسينه ففى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نضر الله أمرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وروى هذا الاصل عن النبى صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير قال الترمذى حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن وأخرج الحاكم فى صحيحه حديث جبير بن مطعم والنعمان بن بشير وقال فى حديث جبير على شرط البخارى ومسلم ولو لم يكن فى فضل العلم الاهذا وحده لكفى به شرفاً فإن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هى مراتب العلم . أولها وثانيها سماعه وعقله فاذا سمعه وعاه بقلبه أى عقله واستقر فى قلبه كما يستقر الشىء الذى يوعى فى وعائه ولا يخرج منه

وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ولهذا كان الوعى والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم . المرتبة الثالثة تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب . المرتبة الرابعة تبليغه وبثه فى الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو بثه فى الأمة فهو بمنزلة الكنز المدفون فى الأرض الذى لا ينفق منه وهو معرض لذهابه فإن العلم ما لم ينفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هى البهجة والحسن الذى يكساه الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة . كما فى قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً فالنضرة فى وجوههم والسرور فى قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه . كما قال تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) ، والمقصود أن هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها فهى أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه . وقوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه تنبيه على فائدة التبليغ وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وعلم المراد منها . وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إلى آخره أى لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فإنها تنفى الغل والغش وهو فساد القلب وسخايمه فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيله جملة لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء . ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) فالإخلاص هو سبيل الخلاص والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان ، وقوله ومناصحة أئمة المسلمين هذا أيضاً مناف للغل والغش فان النصيحة لا تجامع الغل إذ هى ضده فمن نصح الأئمة والأمة فقد برىء من الغل وقوله ولزوم جماعتهم هذا أيضا مما يطهر القلب من الغل والغش فان صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويسوؤه ما يسوؤهم ويسره ما يسرهم وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالطعن

عليهم والعيب والذم لهم كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان قلوبهم ممتلئة غلا وغشاً ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للائمة والأمة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين فهؤلاء أشد الناس غلا وغشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك فانهم لا يكونون قط إلا أعوانا وظهراً على أهل الإسلام فأي عدو قام المسلمين كانو أعوان ذلك العدو وبطانته وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ومن لم يشاهدفقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجي القلوب . وقوله فان دعوتهم تحيط من ورائهم هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنىشبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام وهم داخلوها لما كانت سوراً وسياجاً عليهم أخبر أن من ازم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته . الوجه الثالث والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ العلم عنه ففي الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . وقال ليبلغ الشاهد منكم الغائب روى ذلك أبو بكرة ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وأبو قريع وسرى بنت نبهان ومعاوية بن حيدة القشيري وعم أبي حرة وغيرهم فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبلغ عنه لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله من الأجر بعدد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره لأنه هو الداعي إليه ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكفى به فضلا . وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه ويبذل جهده وطاقته فيها . ومعلوم أنه لاشيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه وهو نائبه وخليفته في أمته وكفى بهذا فضلا وشرفا للعلم وأهله . الوجه الرابع والخمسون أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالفضائل العلمية في أعلا الولايات الدينية وأشرفها وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدري عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاما أو سناً وذكر الحديث فقدم في الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان

العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وإن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية . الوجه الخامس والخمسون ما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها وهو أشرف قسمى علمه وتعليمه فان المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه فتعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها وبينهما كما بين الغايات والوسائل . الوجه السادس والخمسون ما رواه الترمذى وغيره فى نسخة عمرو ابن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد فى المسند أكثرها أو كثيرا منها ولهذا الحديث شواهد لجعل النبى صلى الله عليه وسلم النهمة فى العلم وعدم الشبع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ولهـــذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطلب العلم فيقول إلى الممات . قال نعيم ابن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول وقد عابه قوم فى كثرة طلبه للحديث فقالوا له إلى متى تسمع قال إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص قلت لأحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى متى يكتب الرجل الحديث قال إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن اسماعيل الصائغ كنت أصوغ مع أبى ببغداد فمر بنا أحمـــد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه فى يديه فأخذ ابى بمجامع ثوبه فقال يا أبا عبد الله ألا تستحى إلى متى تعدو مع هؤلاء قال إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى أرجو أن يأتينى أمر ربى والمحبرة بين يدى ولم يفارقنى العلم والمحبرة ، وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له ما أشـــد حرصك على الحديث فقال أو ما أحب أن أكون فى قطار آل رســـول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لبعض العلماء متى يحسن بالمرء أن يتعلم قال ما حسنت به الحياة وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة أيحسن أن يطلب العلم قال ان كان يحسن به أن يعيش . الوجه السابع والخمسون ما رواه الترمذى أيضاً من حديث ابراهيم بن الفضل عن المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها . قال الترمذى هذا

حديث غريب لانعرفه الا من هذا الوجه وابراهيم ابن الفضل المدينى المخزومى يضعف فى الحديث من قبل حفظه . وهذا أيضاً شاهد لما تقدم وله شواهد والحكمة هى العلم فاذا فقده المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه فاذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجدانها كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه التى هو دائماً فى طلبها ونشدانها والتفتيش عليها وهذا من أحسن الأمثلة فان قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجده أعظم من طلب صاحب الضالة لها . الوجه الثامن والخمسون . قال الترمذى حدثنا أبو كريب حـــدثنا خلف بن أيوب عن عوف عن ابن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان فى منافق حسن سمت وفقه فى الدين . قال الترمذى هذا حديث غريب ولا يعرف هذا الحديث من حـــديث عوف الا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامرى ولم أر أحداً يروى عنه غير أبى كريب محمد بن العلاء ولا أدرى كيف هو وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السمت والفقه فى الدين فهو مؤمن وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقاً وان كان اسناده فيه جهالة فان حسن السمت والفقه فى الدين من أخص علامات الايمان وان يجمعهما الله فى منافق فان النفاق ينافيهما وينافيانه الوجه التاسع والخمسون قال الترمذى حدثنا مسلم ابن حاتم الأنصارى حدثنا أبو حاتم البصرى حدثنا محمد بن عبدالله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب . قال قال أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ يا بنى ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يا بنى وذلك من سنتى ومن أحيا سنتى فقد أحبنى ومن أحبنى كان معى فى الجنة وفى الحديث قصة طويلة . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ومحمد بن عبد الله الأنصارى صدوق وأبوه ثقة وعلى بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشىء الذى يوقفه غيره سمعت محمد بن بشارة يقول قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا على بن زيد وكان رفاعا . قال الترمذى ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هـذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنقرى هـذا الحديث عن على بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب وذاكرت به محمد بن اسمعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين . قلت ولهذا الحديث شواهد .

منها ما رواه الدارمى عبد الله حدثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزارى عن كثير ابن عبدالله عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يارسول الله قال اعلم يا بلال قال ما أعلم يارسول الله قال انه من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن ابتدع

بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً رواه الترمذى عنه وقال حديث حسن . قال ومحمد بن عيينة مصيصي شامى وكثير ابن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى وفى حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث منهم من يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذى . ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالامام أحمد وغيره ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه وهو صحيح من وجوه . وحديث من دل على خير فله مثل أجر فاعله وهو حديث حسن رواه الترمذى وغيره فهذا الأصل محفوظ عن النبى ﷺ فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره . الوجه الستون أن النبى صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبة العلم خيراً وماذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبو داود الحفرى عن سفيان عن أبى هرون قال كنا نأتى أبا سعيد فيقول مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبى ﷺ قال ان الناس لكم تبع وان رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا حدثنا قتيبة حدثنا روح بن قيس عن أبى هرون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون فاذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا فكان أبو سعيد إذا رآنا قال مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الترمذى هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبى هرون العبدى عن أبى سعيد . قال أبو بكر العطار قال على ابن المدينى قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هرون العبدى قال يحيى وما زال ابن عوف يروى عن أبى هرون حتى مات وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين . الوجه الحادى والستون ما رواه الترمذى من حديث أبى داود عن عبد الله بن سنحبرة عن سنحبرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث وليس بشىء فان أبا داود هو نفيع الاعمى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة فى هذا المعنى . منها مارواه الثورى عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكا موكلا بطالب العلم حتى يرده من حيث أبداه مغفوراً له . ومنها مارواه قطر بن خليفة عن أبى الطفيل عن على ما انتعل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوبا ليغدو فى طلب العلم إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته وقد رواه ابن عدى مرفوعا . وقال ليس يرويه عن قطر غير اسمعيل ابن يحيى التيمى . قلت وقد رواه اسمعيل بن يحيى هذا عن الثورى حدثنا محمد ابن أيوب الجوزجانى عن مجالد عن الشعبى عن الأسود عن عائشة مرفوعا من انتعل ليتعلم خيراً غفر له قبل أن

يخطو وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن قطر عن أبي الطفيل عن علي وهذه الأسانيد وان لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهبن السيئآت فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر ماضي من السيئآت فقد دلت النصوص أن اتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالعمدة على ذلك لاعلى حديث أبي داود والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلاتفارقوا مجالس العلماء . الوجه الثاني والستون مارواه ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهون ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين إلى خير أما هؤلاء فيدعون الله وأما هؤلاء فيتعلمون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم . الوجه الثالث والستون أن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على مامن عليهم به منه قال الترمذي حدثنا محمد بن بشار حدثنا مرحوم بن عبدالعزيز العطار حدثنا أبو نعامة عن أبي عثمان عن أبي سعيد قال خرج معاوية إلى المسجد فقال مايجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثاً عنه مني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه قال مايجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للاسلام ومن علينا بك قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ماأجلسنا إلا ذاك قال أما انى لم استحلفكم تهمة لكم أنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه وأبو نعامة السعدي اسمه عمرو بن عيسى وأبو عثمان النهدي اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الإسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومن عليهم برسوله . وهذا أشرف علم على الاطلاق ولايعنى به إلا الراسخون في العلم فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهي الله بهم الملائكة وقد بشر النبي ﷺ الرجل الذي كان يحب سورة الإخلاص وقال أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال حبك اياها أدخلك الجنة . وفي لفظ آخر أخبروه أن الله يحبه فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة . والجهمية أشـــد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كماله يعاقبون ويذمون من

يذكرها ويقرؤها ويجمعها ويعتنى بها ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام والله تعالى أشد بغضاً ومقتاً لهم جزاء وفاقا . الوجه الرابع والستون . أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فالله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده فى تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه وخصهم بوحيه واختصهم بتفضيله وارتضاهم لرسالاته إلى عباده وجعلهم أزكى العالمين نفوساً وأشرفهم أخلاقاً وأكملهم علوما وأعمالا وأحسنهم خلقة وأعظمهم محبة وقبولا فى قلوب الناس وبرأهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنىء وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم فى أممهم فانهم يخلفونهم على مناهجهم وطريقهم من نصيحتهم الأمة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم وأخذهم على يد الظالم وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيهم عن المنكر وتركه والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين والجدال بالتى هى أحسن للمعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين . قال تعالى (قل هذه سبيلى ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعنى على بصيرة وأنا ادعو إلى الله . أو المعنى أدعو إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان فانه لا يكون من أتباعه حقا إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل ﷺ فهؤلاء خلفاء الرسل حقا وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملا وهداية وارشاداً وصبراً وجهادا وهؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه . قال الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) فذكر مراتب السعداء وهى أربعة وبدأ بأعلاهم مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه . الوجه الخامس والستون ان الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلا منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعا وأولاداً وأطول أعمارا وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهى الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شرا منهم كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فهؤلاء هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) أى ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلا للخير (لأسمعهم) أى

لأفهمهم والسمع ههنا سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم . قال تعالى (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . وقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وسواء كان المعنى ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا مجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى اللفظ وأبلغ فى المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والإجابة والثلاثة فى القرآن فمن الأول قوله (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، ذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضى الله عنها الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا فى جانب البيت وانه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) . والثانى سمع الفهم كقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أى لأفهمهم (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) لما فى قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق ففيهم آفتان إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهــذا غاية النقص والعيب والثالث سمع القبول والإجابة كقوله تعالى (لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولا وضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون مستجيبون . ومنه قوله (سماعون للكذب) أى قابلون له مستجيبون لأهله . ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده أى أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه . وقول النبى ﷺ إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم أى يجيبكم . والمقصود أن الإنسان اذا لم يكن له علم بما يصلحه فى معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرا منه لسلامته فى المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

الوجه السادس والستون إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شىء فكل شىء اختلف فى وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكماله ونقصه ومدحه وذمه ومرتبته فى الخير وجودته ورداءته وقربه وبعده وإفضائه إلى مطلوب كذا وعــدم إفضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات فان العلم حاكم على ذلك كله فإذا حكم العلم انقطع النزاع ووجب الإتباع وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال

والأقلام فلك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من التراجيح والأدلة ونفس هذا النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فإن الحاكم في هذه المسئلة هو العلم فبه واليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم والمفضل منهما من حكم له بالفضل. فإن قيل فكيف يقبل حكمه لنفسه. قيل وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه فإنه إذا حكم حكم بما تشهد العقول والنظر بصحته وتتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه لتهمة فانه إذا حكم بها انعزل عن مرتبته وانحط عن درجته فهو الشاهد المزكى العدل والحاكم الذي لا يجور ولا يعزل. فان قيل فماذا حكمه في هذه المسئلة التي ذكرتموها. قيل هذه المسئلة كثر فيها الجدال واتسع المجال وأدلى كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته والذي يفصل النزاع ويعيد المسألة إلى مواقع الإجماع الكلام في أنواع مراتب الكمال وذكر الأفضل منهما والنظر في أي هذين الأمرين أولى به وأقرب اليه. فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب. فأما مراتب الكمال فاربع النبوة والصديقية والشهادة والولاية وقد ذكرها الله سبحانه في قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم. فقال (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم). وذكر المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم. والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الأربعة الرسالة والصديقية والشهادة والولاية فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ويليها الصديقية فالصديقون هم أئمة أتباع الرسل ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة فان جرى قلم العالم بالصديقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصديقية وان سال دم الشهيد بالصديقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها فافضلهما صديقهما فان استويا في الصديقية استويا في المرتبة والله أعلم. والصديقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول علماً وتصديقا وقياما به فهي راجعة إلى نفس العلم فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقا له كان أتم صديقية فالصديقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل فهذه كلمات

جامعة فى مسئلة العالم والشهيد وأيهما أفضل . الوجه السابع والستون أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الأمر والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها والإيمان له ركنان . أحدهما معرفة ماجاء به الرسول والعلم به والثانى تصديقه بالقول والعمل والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشىء المصدق به فاذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب . الوجه الثامن والستون أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة والإرادة فرع العلم فانها تستلزم الشعور بالمراد فهى مفتقرة إلى العلم فى ذاتها وحقيقتها والقدرة لاتؤثر إلا بواسطة الإرادة والعلم لايفتقر فى تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر فى تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته . الوجه التاسع والستون ان العلم أعم الصفات تعلقاً بمتعلقه وأوسعها فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه وصفاته وأسماؤه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ماعلمهم العليم الخبير وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب فهى أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة فإن الإرادة لاتتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ماأريد وجوده فالعلم أوسع وأعم وأشمل فى ذاته ومتعلقه . الوجه السبعون ان الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بانه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتم بهم من بعدهم . فقال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال فى موضع آخر (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين وهى أرفع مراتب الصديقين واليقين هو كمال العلم وغايته فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين وهى ولاية آلها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده . الوجه الحادى والسبعون ان حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء فى اليوم مرة أو مرتين وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبا لأيمان أو حكمة فان فارقه الأيمان أو حكمة فى نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة اليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت . الوجه الثانى والسبعون ان صاحب العلم أقل تعباً وعملا وأكثر أجراً واعتبر هذا بالشاهد فان الصناع والاجراء يعانون

الأعمال الشاقة بأنفسهم والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل ويأخذ أضعاف ما يأخذونه . وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال أفضل الأعمال إيمان بالله ثم الجهاد فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة فى كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولا ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه واعتبر هذا بحال الصديق فانه أفضل الأمة . ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملا وحجاً وصوماً وصلاة وقراءة منه . قال أبو بكر بن عياش ماسبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولاصلاة ولكن بشيء وقر فى قلبه وهذا موضوع المثل المشهور .

من لى بمثل سيرك المدلل ٭ تمشى رويداً وتجى فى الأول

الوجه الثالث والسبعون أن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه . كما قال بعض السلف من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح والأعمال إنما تتفاوت فى القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك . قال تعالى (هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) قال الفضيل بن عياض هو أخلص العمل وأصوبه قالوا يا أبا على ما أخلصه وأصوبه قال ان العمل إذا كان خالصا ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صوابا فالخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فهذا هو العمل المقبول الذى لا يقبل الله من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقا لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فانه ان لم يعلم ماجاء به الرسول لم يمكنه قصده وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلولا العلم لما كان عمله مقبولا فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة . وقد قال الله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) وأحسن ما قيل فى تفسير الآية انه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه فى ذلك العمل وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم . الوجه الرابع والسبعون أن العامل بلا علم كالسائر بلادليل . ومعلوم ان عطب مثل هذا أقرب من سلامته

وان قدر سلامته اتفاقا نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول من فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح فاطلبوا العلم طلباً لا تضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا تضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على مافعلوا والفرق بين هذا وبين ماقبله ان العلم مرتبته فى الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ومرتبته فى هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية . الوجه الخامس والسبعون أن النبى ﷺ ثبت فى الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم . وفى بعض السنن أنه كان يكبر تكبيرة الاحرام فى صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء . والهداية هى العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره فالمهتدى هو العامل بالحق المريد له وهى أعظم نعمة لله على العبد ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة فى صلواتنا الخمس فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذى يرضى الله فى كل حركة ظاهرة وباطنة فاذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته فى قلبه ثم إلى من يقدره على فعله ومعلوم ان ما يجهله العبد أضعاف أضعاف مايعلمه وان كل مايعلم أنه حق لا تطاوعه نفسه على إرادته ولو أراده لعجز عن كثير منه فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضى وبالحال والمستقبل أما الماضى فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود . وأما الهداية فى الحال فهى مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ماهو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ . وأما المستقبل فحاجته فى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق . وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شىء اضطراراً اليها وأن مايورده بعض الناس من السؤال الفاسد وهى انا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا وهل هذا الا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدمها لنا ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد اليها علم أن الذى لم يحصل له منها أضعاف ماحصل له وانه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة لاسيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية

خاصة ثم ان لم يصرف عنه الموانع والصوارف التى تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفى فيه وجود مقتضيه بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه . ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الغى فى قلبه كل منها مانع وصول أثر الهداية اليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هـــدى تاما لحاجاته إلى هداية الله مقرونة بأنفاسه وهى أعظم حاجة للعبد . وذكر النبي ﷺ فى الدعاء المعظم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فان فطر السموات والأرض توسل إلى الله بهذا الوصف فى الهداية للفطرة التى ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والأرض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء عليم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوسل إلى الغنى بغناه وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله والتوسل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبعفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرحمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحى الذى يوحيه الله إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة . وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شيء . وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحيى الله الموتى بنفخته فاذا هم قيام لرب العالمين . والهداية لها أربع مراتب وهى مذكورة فى القرآن . المرتبة الأولى الهداية العامة وهى هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمى لمصالحه التى بها قام أمره قال الله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) فذكر أمورا أربعة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه ثم قدر له أسباب مصالحه فى معاشه وتقلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك . وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى (فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى) وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها . المرتبة الثانية هداية البيان والدلالة التى أقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهتداء التام . قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) . وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية . وهى هدى التوفيق والالهام . قال الله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فعم بالدعوة خلقه وخص بالهـــداية من شاء منهم . قال تعالى

(إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) مع قوله (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية التوفيق والالهام . وقال النبي ﷺ فى تشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وقال تعالى (إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل) أى من يضله الله لا يهتدى أبداً وهذه الهداية الثالثة هى الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية فشرط لا موجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثه فان تخلف الهدى عنها مستحيل . المرتبة الرابعة الهداية فى الآخرة إلى طريق الجنة والنار . قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) . وأما قول أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية فى الدنيا التى أوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وانهم حمدوا الله على هدايته لهم فى الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلا مطابقاً لحاله : فقال تعالى (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . الوجه السادس والسبعون ان فضيلة الشىء وشرفه يظهر تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة اليه وعدم الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشر بفقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوباً ملائماً فادراكه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وافضاله إلى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فاذا كان فى نفسه كمالا وشرفا بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل فى نفسه ومتعلقاته . ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فانه أعم شىء نفعاً وأكثره وأدومه والحاجة اليه فوق الحاجة إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى التنفس إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم . وأما فقد العلم ففيه فقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طرفة عين . ولهذا إذا فقد من الشخص كان شراً من الحمير بل كان شراً من الدواب عند الله ولا شىء أنقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلأنه كمال فى نفسه وهو ملائم غاية الملاءمة للنفوس فان الجهل مرض ونقص وهو فى غاية الإيذاء والايلام للنفس ومن لم يشعر بهذه الملاءمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه ٭ وما لجرح ميت إيلام ٭ فحصوله للنفس إدراك منها لغاية محبوبها واتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهـــذا بحسب المعلوم فى نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات

متفاوتة فى ذلك أعظم التفاوت وأبينه فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبته والتقرب اليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها وهذا يتبين . بالوجه السابع والسبعين وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه لوثوق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه فى كماله . ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند فى وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه فى تحقق ذاته وأينيته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر فى تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شىء ومليكه وموجده . ولاريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعلة التامة ومعرفة كونها علة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند فى وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول إلى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو فى ذاته رب كل شىء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ماسواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيما وهو أن من نسى ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسى ما به صلاحه وفلاحه فى معاشه ومعاده فصار معطلا مهملا بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذى أعطاها إياه خالقها وأما هذا فخرج عن فطرته التى خلق عليها فنسى ربه فأنساه نفسه وصفاتها وماتكمل به وتزكو به وتسعد به فى معاشها ومعادها قال الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضيعه مفرط الأمر حيران لايهتدى سبيلا . والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته يزيده إيضاحا . الوجه الثامن والسبعون أنه لاشىء أطيب للعبد ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه ودوام ذكره والسعى فى مرضاته وهذا هو الكمال الذى لا كمال للعبد بدونه وله خلق الخلق ولأجله نزل الوحى وأرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووجدت الجنة والنار ولأجله شرعت الشرائع ،

ورضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذى هو من توابع محبته والرضا به وعنه ولأجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه وآثر غيره عليه وجعل له فى الآخرة دار الهوان خالداً مخلداً وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة وهو قطب رحى الخلق والأمر الذى مدارهما عليه ولا سبيل إلى الدخول الى ذلك إلا من باب العلم فان محبة الشىء فرع عن الشعور به وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم فالعلم يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. الوجه التاسع والسبعون ان اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم ولهذا تعظم لذة الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه الماء وكذلك الجائع وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه والحب تابع للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات وسيأتى تقرير هذا فيما بعد ان شاء الله تعالى . الوجه الثمانون ان كل ماسوى الله يفتقر إلى العلم لاقوام له بدونه فان الوجود وجودان وجود الخلق ووجود الأمر والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل ماضمه الوجود من خلقه وأمره صادر عن علمه وحكمته فما قامت السموات والأرض ومابينهما إلا بالعلم ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ولا عبد الله وحده وحمد وأثنى عليه ومجد إلا بالعلم ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم ولا عرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم . واختلف هنا فى مسئلة وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية فقالت طائفة هو صفة فعلية لأنه شرط أو جزء وسبب فى وجود المفعول فان الفعل الاختيارى يستدعى حياة الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات . وقالت طائفة هو انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ماهو عليه فان العالم يدرك المعلوم على ماهو به فادراكه تابع له فكيف يكون متقدما عليه . والصواب ان العلم قسمان علم فعلى وهو علم الفاعل المختار بما يريد أن يفعله فانه موقوف على ارادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به فهذا علم قبل الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالى وهو العلم التابع للمعلوم الذى لاتأثير له فيه كعلمنا بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لايؤثر فى المعلوم ولا هو شرط فيه فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كليا وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس وكلا القسمين من العلم صفة كمال وعدمه من أعظم النقص يوضحه . الوجه الحادى والثمانون أن فضيلة الشىء تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتبين الأشياء ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة

الجهل وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلا مسموم من أكله قطع أمعاءه فى وقت معين لايقدم على أكله وان قدر أنه قدم عليـــه لغلبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده الذى هو أحب اليـــه من العذاب بالجوع أو بغيره . وهنا اختلف فى مسئلة عظيمة وهى أن العلم هل يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه الهدى الا لعدم العلم أو نقصه والافمع المعرفة الجازمة لايتصور الضلال وأنه لايستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالماً وهو ضال على عمد هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم فقالت فرقة من عرف الحق معرفة لايشك فيها استحال أن لا يهتدى وحيث ضل فلنقصان علمه واحتجوا من النصوص بقوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فشهد تعالى لكل راسخ فى العلم بالإيمان . وبقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وبقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) . وبقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله الاهو والملائكة وأولو العلم) . وبقوله تعالى (أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قسم الناس قسمين . أحدهما العلماء بان ما أنزل اليه من ربه هو الحق . والثانى العمى فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى فى وصف الكفار (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وبقوله (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . وبقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم . وكذلك قوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . وقوله (وأضله الله على علم) قال سعيد بن جبير على علمه تعالى فيه . قال الزجاج أى على ما سبق فى علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلقه (وختم على سمعه) أى طبع عليه فلم يسمع الهدى (وعلى قلبه) فلم يعقل الهدى (وعلى بصره غشاوة) فلا يبصر أسباب الهدى وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتو العلم ماذا قال آنفاً اولئك الذين طبع الله على قلوبهم) فلو كانوا علموا ماقال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال ولما كان مطبوعا على قلوبهم . وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) . وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتو العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه . وقال تعالى عن اهل النار (وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا فى اصحاب السعير) فدل على ان اهل الضلال لاسمع لهم ولا عقل وقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) اخبر تعالى انه لا

يعقل امثاله الا العالمون والكفار لا يدخلون فى مسمى العالمين فهم لا يعقلونها. وقال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله) . وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) . وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولو كان الضلال يجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون والنص بخلافه والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بانهم لا يعقلون وتارة بأنهم لا يشعرون وتارة بانهم لا يفقهون وتارة بانهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفى سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت وتارة بانهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بانهم جاهلون . كقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .
وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين) . وقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون .
وفى الصحيحين عنه من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين فدل على أن الفقه مستلزم لارادة الله الخير فى العبد ولا يقال الحديث دل على أن من أراد الله به خيراً فقهه فى الدين ولا يدل على أن كل من فقهه فى الدين فقد أراد به خيراً وبينهما فرق . ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثانى والحديث لا يقتضيه . لأنا نقول النبى صلى الله عليه وسلم جعل الفقه فى الدين دليلا وعلامة على ارادة الله بصاحبه خيراً والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال . وفى الترمذى وغيره عنه صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان فى منافق حسن سمت وفقه فى الدين فجعل الفقه فى الدين منافياً للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الا على العلم الذى يصحبه العمل كما سئل سعد بن إبرهيم عن أفقه أهل المدينة قال أتقاهم وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شىء . فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت بعينيك فقيها إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا الراغب فى الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذى لا يهمز من فوقه ولا يسخر بمن دونه ولا يبتغى على علم علمه الله تعالى أجراً . وقال بعض السلف إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى ماسواه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وبالاغترار بالله جهلا . قالوا فهذا القرآن والسنة واطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك

نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) . قال سفيان الثورى كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل كان جاهلا أو عالماً ان كان عالماً فمن أجهل منه وان كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله (ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) . قال قبل الموت . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ان كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدى كل من عصى الله فهو جاهل . قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فانه لو رأى صبياً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله اليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبته فلابد من غفلة القلب على هــــذا العلم وغيبته عنه فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم والذنب محفوف بجهلين جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فما عصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة . وقالت الطائفة الأخرى العلم لا يستلزم الهداية وكثيرا ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته . قالوا وهـذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه فخالفه وعاند الأمر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم مع علمه بذلك ومعرفته به وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين فكان غير شاك فى الله وفى وحدانيته وفى البعث الآخر وفى الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود فى النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا (قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون) وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به وقد علم قسم ربه ليملأن جهنم منه ومن اتباعه فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل . وقال تعالى إخبارا عن قوم ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكيــاً عن موسى إنه قال لفرعون (لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يافرعون مثبورا) أى هالكا على قراءة من فتح التاء وهى قراءة الجمهور وضمها الكسائى وحده وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقق كفر فرعون وعناده ويشهد

لها قوله تعالى إخبارا عنه وعن قومه (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا وقال تعالى لرسوله (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يعنى أنهم قد عرفوا صدقك وأنك غير كاذب فيما تقول ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون . قال قتادة يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) . وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء . وقال تعالى عن السحرة من اليهود (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أى علموا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة وفى التوحيد كقوله فى الأنعام (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)وفى الكتاب أنه منزل من عند الله لقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى(كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين) . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبى ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغياً وحسدا . قال الزجاج أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم لأنهم كفروا بعد البينات ومعنى كيف يهديهم أى أنه لا يهديهم لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا فمن أين تأتيهم الهداية فان الذى ترجى هدايته من كان ضالا ولا يدرى أنه ضال بل يظن أنه على هدى فاذا عرف الهدى اهتدى وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدى الله مثل هذا . وقال تعالى عن اليهود (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) . ثم قال (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) . قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن كفرهم شكا ولا اشتباهاً ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة فى ولد اسماعيل . ثم قال بعد ذلك (ولما جاءهم رسول

من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهى إياك ومنه على أحد القولين . قوله تعالى (فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) . قال السدى يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج . فقال يعرفون أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرون ذلك وأول الآية يشهد لهذا القول . وقال تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب) . قالوا فهل بعد هذه الآية بيان فان هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والغى » وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أوتى الاسم الاعظم ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وهذا يدل على ان قولهم (ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إما بهت منهم وجحود وإما نفى لآيات الاقتراح والعنت ولا يجب الاتيان بها وقد وصف سبحانه ثمود بانها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال . (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) يعنى بينة مضيئة . وهذا كقوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى مضيئة وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصراً فهى توجب له البصر فتبصره أى تجعله ذا بصر فهى موضحة مبينة يقال بصر به إذا رآه كقوله تعالى (فبصرت به عن جنب) . وقوله (بصرت بما لم يبصروا به) وأما أبصره فله معنيان . أحدهما جعله باصراً بالشىء أى ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود والثانى بمعنى رآه كقولك أبصرت زيداً وفى حديث أبى شريح العدوى أحدثك قولا قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فسمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به . ومنه قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) قيل المعنى أبصرهم وما يقضى عليهم من الاسر والقتل والعذاب فى الاخرة فسوف يبصرونك ومايقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظريه ، والمقصود ان الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة والشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية والى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين القدر والشرع ، فقال (فألهمها فجورها

وتقواها) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فهذا أمره ودينه وثمود هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد ، قالوا ويكفي في هذا اخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فاى علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لوورد الى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه . وقال تعالى (ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) فهل بعد نزول الملائكة عيانا وتكليم الموتى لهم وشهادتهم الرسول بالصدق وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا ينقادون للحق ولا يصدقون الرسول ومن نظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ لا يشكون أنه صادق في قوله أنه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان . قال المسور بن مخرمة رضي الله عنه لأبي جهل وكان خاله أي خال هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها قال أبو جهل لعنه الله تعالى يا ابن أخي والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين ماجربنا عليه كذباً قط فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله قال ياخال فلم لاتتبعونه قال يا ابن أخي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فاطعموا وأطعمنا وسقوا وسقينا وأجاروا وأجرنا فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي فمتى تدرك هذه وهذا أمية بن أبي الصلت كان ينتظره يوماً بيوم وعلمه عنده قبل مبعثه . وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معا معروفة واخباره برسول الله ﷺ ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال لا أومن بنبي من غير ثقيف أبداً وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ وسلم ولم يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه . ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فاخبرهم بها قبلوا يده وقالوا نشهد أنك نبي قال فما يمنعكم أن تتبعوني قالوا إن داود عليه السلام دعا أن لايزال في ذريته نبي وإنا نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة فقيل لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلماً وقيل إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود صار مسلماً بذلك وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصر مسلماً إلا بالشهادة بالتوحيد

كالنصارى والمشركين . وهذه الأقوال الثلاثة فى مذهب الإمام أحمد وغيره وعلى هذافاما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لايوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته والا فلو قال انا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولاأدين بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفى فيه قول اللسان بمجرده ولامعرفة القلب مع ذلك بل لابد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب واقراره وفيما تقدم كفاية فى إبطال هذه المقالة ومن قال أن الإيمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لامحيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء فى الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحى العاقل من قوله كقول بعضهم إن إبليس كان مستهزئاً ولم يكن يقر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالقه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع فى أمثالها ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان . قالوا وقد بين القرآن أن الكفر أقسام : أحدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الاسلاف وهو كفر أكثر الاتباع والعوام . الثانى كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب مايقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية فى قومه من الكفار أو رياسة سلطانية أو من له مأكل وأموال فى قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله ومأكله فيؤثر الكفر على الإيمان عمداً . الثالث كفر إعراض محض لاينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولايواليه ولايعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ويجعلون الثانى والثالث كفراً لدلالته على الاول لالأنه فى ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل . ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء فى أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه وعلم أن عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الأرض ومافيها له وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر وأنزل المطر وأخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم إليه رسله

فكيف يقال إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم رباً وخالقاً وهذا بهتان عظيم فالكفر أمر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر. قالوا والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمناً إلا بهما جميعاً واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمنا إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلا فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع وأما المعاند فلا دواء فيه. قال تعالى (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين)، قالوا لحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلماً إلا به ولاريب أن الحب أمر وراء العلم فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم قالوا وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته والسعى فى أذاه بكل ممكن مع علمه بفضله وعلمه وأنه لاشىء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله. ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والمكارم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكماله وإنما حمله على ذلك إفساد قصده وإرادته كما هى حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل وورثوهم رئاستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها وسنة الله فى هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ويصغرهم فى عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم (وماربك بظلام للعبيد) فهذا موارد احتجاج الفريقين وموقف أقدام الطائفتين فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة فقد ادلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمانع وجاء ببينات لا ترد ولا تدافع فهل عندك شىء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين وإلا فخل المطى وحاديها واعط النفوس باريها:

دع الهوى لأناس يعرفون به   قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتاح العليم فنقول وبالله التوفيق.

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن اطلاق ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها. وبيان هذا أن المقتضى قسمان

مقتض لا يتخلف عنه موجبه ومقتضاه لقصوره فى نفسه بل يستلزمه استلزام العلة التامة لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره فى نفسه عن التمـــام أو لفوات شرط اقتضائه أو قيام مانع منع تأثيره فان أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء والاقتضاء التام الذى لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل . فالصواب قول الطائفة الثانية وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجباً أنه صالح للاهتداء مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو فوات شرط أو قيام مانع . فالصواب قول الطائفة الأولى وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشىء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة . السبب الأول ضعف معرفته بذلك . السبب الثانى عدم الأهلية وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية فاذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية كان كالأرض الصلدة التى لا تخالطها الماء فانه يمتنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها فاذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وقال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وهذا فى القرآن كثير فاذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً لا يعمل فيه العلم شيئاً وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم . السبب الثالث قيام مانع وهو إما حسد أو كبر وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم وهو الذى منع عبد الله بن أبى من الإيمان وبه تخلف الإيمان عن أبى جهل وسائر المشركين فانهم لم يكونوا يرتابون فى صدقه وأن الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف الإيمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ . السبب الرابع مانع الرياسة والملك وان لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علموا نبوته وصدقه وأقروا بها باطناً وأحبوا الدخول فى دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه إلا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا

موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بينا أنت إله تعبد تصير عبداً تعبد غيرك فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال . السبب الخامس مانع الشهوة والمال وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان خوفاً من بطلان مأكلهم وأموالهم التى تصير إليهم من قومهم وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها فكانوا يقولون لمن يحب الزنا إن محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الأعشى الشاعر عن الإسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته فكان آخر ما كلمنى به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها آمناً فاذا أسلمت حلتم بينى وبينها وجلدتمونى على شربها . وقال آخر منهم بعد أن عرف ماقلت له لى أقارب أرباب أموال وإنى إن أسلمت لم يصل إلى منها شيء وأنا أؤمل أن أرثهم أو كما قال . ولاريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعى الشهوة والمال وضعف داعى الإيمان فيجيب داعى الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى . السبب السادس محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم. وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم . السبب السابع محبة الدار والوطن وان لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه. السبب الثامن تخيل ان فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراء وطعناً منه على آبائه وأجداده وذماً لهم وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الاسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك . ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت أترغب عن ملة عبد المطلب فكان آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف يأتى أمرا يلزم منه غاية تنقيصه وذمه . ولهذا قال لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لاقررت بها عينك أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

(وفى قصيدته اللامية)

فو الله لولا أن تكون مسبة   تجر على أشياخنا فى المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالة   من الدهر جداً غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مكذب   لدينا ولا يعنى بقول الأباطل

والمسبة التى زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول فهذا هو الذى منعه من الإسلام بعد تيقنه . السبب التاسع متابعة من يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول فى دينه وتخصصه وقربه منه وهذا القدر منع كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ولا يحب أرضاً يمشى عليها ويقصد مخالفته ومناقضته فيراه قد اتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله وإن كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار فانهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى صلى الله عليه وسلم وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه فلما بدرهم إليه الإنصار وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم . السبب العاشر مانع الألف والعادة والمنشأ فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل هى طبيعة ثانية فيربى الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيرا فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يعقل نفسه إلا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال وهذا السبب وإن كان أضعف الأسباب معنى فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل ليس مع أكثرهم بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذ الاعادة ومربى تربى عليه طفلا لا يعرف غيرها ولا يحسن به فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ونقلوهم إلى الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق فجزى الله المرسلين أفضل ماجزى به أحداً من العالمين إذا عرف أن المقتضى نوعان فالهدى المقتضى وحده لايوجب الاهتداء والهدى التام يوجب الاهتداء . فالاول هدى البيان والدلالة والتعليم ولهذا يقال هدى فما اهتدى . والثانى هدى البيان والدلالة مع إعطاء التوفيق وخلق الارادة فهذا الهدى الذى يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجبه فمتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم وجود حكمه . وههنا دقيقة بها ينفصل النزاع وهى أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط

على المقتضى أمر يضعفه فى نفسه ويسلبه اقتضاءه وقوته أو الاقتضاء بحاله وانما غلب المانع فكان التأثير له . ومثال ذلك فى مسئلتنا أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم حتى لايصير مؤثراً البتة أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها فأما الأول فلا شك فيه ولكن الشأن فى القسم الثانى وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب والقرآن قد دل على هذا . قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين) فعاقبهم سبحانه بازاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء . ونظيره قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه . ومن هنا قيل لارأى لصاحب هوى فانهواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله . قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف) أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم (بل طبع الله عليها بكفرهم) حتى صارت غلفاً والغلف جمع أغلف وهو القلب الذى قد غشيه غلاف كالسيف الذى فى غلافه وكل شىء فى غلافه فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف وقوس غلفاء ورجل أغلف واقلف إذا لم يختتن ، والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا نفقه ماتقول يا محمد صلى الله عليه وسلم ولم نع شيئاً من قال أن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أى أوعية لها فلايحتاج إلى قولك ولا نقبله استغناء بما عندهم لوجوه: أحدها أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف وحمر وأحمر وجرد وأجرد وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل فى الغلاف هذا هو المعروف من اللغة الثانى أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال قلب فلان غلاف لكذا وهذا لايكاد يوجد فى شىء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظير له فى القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه. الثالث أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار. قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه والأكنة هنا هى الغلف التى قلوب هؤلاء فيها والأكنة كالأوعية والأغطية التى تغطى المتاع ومنه الكنانة لغلاف السهام الرابع أن سياق الآية لايحسن مع المعنى الذى ذكروه ولا يحسن مقابلته بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التى ادعوها كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) . وأماهنا فلما ادعوا أن قلوبهم فى أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الانبياء كان سبباً

لأن طبع على قلوبهم . ولاريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذى يهتدى به المهتدون سببا لضلال هذا كما قال تعالى . (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) فاخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس وهو هداه الذى هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله . قال تعالى (وهذا ما أنزلت سورة فنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من صيرورته بحيث يضل بما يهتدى به فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفهم الذى قد استحكمت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون إن من خاف فى نقده نسي النقد وسلبه فاشتبه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف يهتف العلم بالعمل فان أجابه حل وإلا ارتحل . وقال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب فى ذهابه ونسيانه . وأيضا فان العلم يراد للعمل فانه بمنزلة الدليل للسائر فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئا لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذى لا يعلم كما أن من ملك ذهباً وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه   مخافة فقر فالذى فعل الفقر (١)

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلا اما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجبه واما لأن الجهل يقال فى جانب العلم والعمل قال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا (اتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلا . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين) . ومن هذا قوله تعالى (خذ العفو وأمر

---

(١) هكذا فى الأصل والصواب :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله   مخافة فقر فالذى فعل الفقر

بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه . قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم صن نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير فى كلامهم ومنه الحديث إذا كان صوم أحدكم فلا يصخب ولا يجهل ومن هذا تسمية المعصية جهلا . قال قتادة أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل وليس المراد أنه جاهل بالتحريم إذ لو كان جاهلا لم يكن عاصيا فلا يترتب الحد فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة على جاهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلا وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يصدر إلا عن ضعف العلم ونقصانه وذلك جهل فسمى باسم سببه وإما تنزيلا لفاعله منزلة الجاهل به . الثانى أنهم لما ردوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . الثالث أن العلم الذى ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلا لهم فسلب عنهم حقيقته والشيء قد ينتفى لنفى ثمرته والمراد منه . قال تعالى فى ساكن النار (فان له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) نفى الحياة لانتفاء فائدتها والمراد منها ويقولون لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع . ولهذا نفى عنه سبحانه عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها . وقال تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها . قال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبكم بل هذه له أصلا وللعين والاذن واللسان تبعاً فاذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين أصم ولا آفة باذنه أبكم وإن كان فصيح اللسان . قال تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فلا تنافى بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها . قال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) . فاخبر سبحانه أنه منعهم فقه كلامه وهو الادراك الذى ينتفع به من فقهه ولم يكن ذلك مانعاً لهم من الادراك الذى تقوم به الحجة عليهم فانهم لو لم يفهموه جملة ماولوا على أدبارهم نفوراً عند ذكر توحيد الله فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذى غشى قلوبهم كالذى غشى آذانهم . ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم . ولذلك

ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى قال الله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول باسماعهم إياه وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) فهذا السمع المنفى عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم سمعا ينتفعون به وهو فقهه المعنى وعقله والا فقد سمعوه سمعاً تقوم به عليهم الحجة ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه. قال تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) نفى عنهم استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة يقولون لا أطيق أنظر إلى فلان ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذى تقوم به الحجة قطعاً وانما المراد سلب السمع الذى يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له . ومن هذا (قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) يعنون أنهم فى ترك القبول منه ومحبة الاسماع لما جاء به وإيثار الأعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به فهذا هو الذى يقولون لا خلود فى النار (ولو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) ولهذا جعل ذلك مقدورا لهم وذنباً اكتسبوه . فقال تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) والله تعالى ينفى تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفى عنهم السمع والعقل وتارة ينفى عنهم السمع والبصر وتارة ينفى عنهم العقل والبصر وتارة ينفى عنهم وحده فنفى الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة ونفى بعضها نفى له بالمطابقة والآخر باللزوم فان القلب إذا فسد فسد السمع والبصر بل أصل فسادهما من فساده وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب فاذا أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده . فلهذا يجىء فى القرآن نفى ذلك صريحا ولزوما . وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين وفى استدلال الطائفة الثانيـــة بقوله (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ونظائرها نظر فان الله تعالى حيث قال (الذين آتيناهم الكتاب) لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين وإذا أراد ذمهم والاخبار عنهم بالعناد وايثار الضلال أتى بلفظ

الذين أوتوا الكتاب مبنياً للمفعول . فالأول كقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآيات . وكقوله تعالى (أفغير الله أبتغي حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) فهذا فى سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس فى سياق ذمهم والاخبار بعنادهم وجحودهم كما استشهدهم فى قوله تعالى (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب). وفى قوله (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون). واختلف فى الضمير فى يتلونه حق تلاوته فقيل هو ضمير الكتاب الذى أوتوه قال ابن مسعود يحلون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤنه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه قالوا وأنزلت فى مؤمنى اهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين والضمير فى يتلونه للكتاب الذى هو القرآن وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه ولا يرد على ماذكرنا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) بل هذا حجة لنا أيضاً لما ذكرنا فانه أخبر فى الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثناء عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وخص فى آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا فى جملة الأولين بلفظ المضمر لايوجب أن يقال آتيناهم الكتاب عند الاطلاق فانهم دخلوا فى هذا اللفظ ضمناً وتبعاً فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً . وقال تعالى فى سورة الأنعام (قل أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى بريء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور هو التوحيد والقولان متلازمان إذ ذلك فى معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لافى معرض ذم الذين آتاهم الكتاب فان السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لاذم المذكورين من أهل الكتاب . وأما الثانى فكقوله (وأن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون . وقال تعالى (ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على ادبارها) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم) وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر ﷺ

أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لايذكر سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إلا بالذم أيضاً كقوله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وقال تعالى (ألم تر الى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) . وقال (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالأقسام أربعة الذين آتيناهم الكتاب وهذا لايذكره سبحانه إلا فى معرض المدح والذين أوتوا نصيباً من الكتاب لايكون قط إلا فى معرض الذم والذين أوتوا الكتاب أعم منه فانه قد يتناولهما ولكن لايفرد به الممدوحون قط وبأهل الكتاب يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية . وقال فى الذم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) وهذا الفصل ينتفع به جدا فى أكبر مسائل أصول الإسلام وهى مسئلة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه وقد ذكرنا فيه نكتاً حساناً يتضح بها الحق فى المسألة والله أعلم . الوجه الثانى والثمانون أن الله سبحانه فاوت بين النوع الإنسانى أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم والله سبحانه خلق الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول وخلق الإنسان مركباً من عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته كان خيراً من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات وفاوت سبحانه بينهم فى العلم فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وتلك مرتبة لامرتبة فوقها وجعل جاهلهم بحيث لايرضى الشيطان به ولا يصلح له كما قال الشيطان لجاهلهم الذى أطاعه فى الكفر إنى برىء منك وقال لجهلتهم الذين عصوا رسوله إنى برىء منكم فلله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها مما الله علمه والآخر لايرضى الشيطان به وليا وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ولو لم يكن فى العلم إلا القرب من رب العالمين والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلى لكفى به فضلا وشرفاً فكيف وعز الدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله . الوجه الثالث والثمانون أن أشرف مافى الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذى يأتيه به والعين طليعته كان ملكا على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لامره ويصرفها فتنقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العالم فى الناس كالقلب فى الأعضاء . ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفساده كانت هذه حال الناس مع علمائهم

وملوكهم كما قال بعض السلف صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس وإذا فسدا فسد سائر الناس العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأحبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الادراك ماليس لغيرهما من الأعضاء كانا فى أشرف جزء من الانسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما فى الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع . واختلف فى الأفضل منهما فقالت طائفة منهم أبو المعالى وغيره السمع أفضل قالوا لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة فانها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فان من لا سمع له لا يعلم ماجاؤا به . وأيضاً فان السمع يدرك به أجل شىء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذى فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضاً فان العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضاً فان مدركه أعم من مدرك البصر فانه يدرك الكليات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه هل كانا سواء . وأيضاً ففاقد البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً وأما فاقد السمع فالذى فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريباً . وأيضاً فان ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع فى القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع . وأيضاً فان الذى يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب مع كثرته وعظمه والذى يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع . وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فان أعلا النعيم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله فى الدار الآخرة وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية فى تفضيله . . قالوا وهو مقدمة القلب وطليعته ورائده فنزلته منه أقرب من منزلة السمع ولهذا كثيراً ما يقرن بينهما فى الذكر بقوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين . وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) ولم يقل وأسماعهم . وقال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقال فى حق رسوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال (مازاغ البصر وما طغى) وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ولهذا يقرأ الإنسان مافى قلب

الآخر من عينه وهذا كثير فى كلام الناس نظمه ونثره وهو أكثر من أن نذكره هنا . ولما كان القلب أشرف الأعضاء كان أشدها ارتباطاً به وأشرف من غيره . قالوا ولهذا يأتمنه القلب مالا يأتمن السمع عليه بل إذا ارتاب من جهة عرض ماياتيه به على البصر ليزكيه أم يرده فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا ومن هذا الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده مرفوعا ليس المخبر كالمعاين . قالوا ولهذا أخبر الله سبحانه موسى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم يلحقه فى ذلك مالحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها لفوت المعاينة على الخبر . قالوا وهذا إبراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى وقد علم ذلك بخبر الله له ولكن طلب أفضل المنازل وهى طمأنينة القلب . قالوا ولليقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانيها للعين (١) وهى المسماة بعين اليقين وهى أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا وأيضاً فالبصر يؤدى إلى القلب ويؤدى عنه فان العين مرآة القلب يظهر فيها مافيه من المحبة والبغض والموالاة والمعاداة والسرور والحزن وغيرها . وأما الأذن فلا تؤدى عن القلب شيئا البتة وإنما مرتبتها الايصال اليه حسب فالعين أشد تعلقا به . والصواب ان كلامنهما له خاصية فضل بها الاخر فالمدرك بالسمع أعم وأشمل والمدرك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الادراك وأما نعيم أهل الجنة فشيئآن . أحدهما النظر إلى الله . والثانى سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن أحمد فى المسند وغيره كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل ومعلوم ان سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرته إياهم كما فى الترمذى وغيره لايشبهها شىء قط ولا يكون أطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه فى وعيد أعدائه انه لايكلمهم كما يذكر احتجابه عنهم ولا يرونه فكلامه أعلا نعيم أهل الجنة والله أعلم . الوجه الرابع والثمانون ان الله سبحانه فى القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار ومرة يذكر اللسان الذى يترجم به عن القلب . فقال تعالى فى سورة النعم وهى سورة النحل التى ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها فى أصول النعم وآخرها فى مكملاتها . قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لاعلم لهم ثم اعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التى نالوا بها من العلم ما نالوه وانه فعل بهم ذلك

(١) هكذا فى الأصل بدون أن يذكر المرتبة الثالثة .

ليشكروه . وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) وقال تعالى (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين) فذكر هنا العينين التي يبصر بهما فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عباده ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها . فقال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا) فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمقصود باعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه . الوجه الخامس والثمانون إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة فبينا المرء بها سعيداً ملحوظاً بالعناية مرموقاً بالأبصار إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهر واجي فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فاذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية . ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فأصبحوا بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم إلى البلد فأكرم وقصد بأنواع التحف والكرامات فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة فقال نعم تقولون لهم إذا اتخذتم مالا لا يغرق إذا انكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواء برجل عالم فجس المخاضة فلم ير شيئاً فقالوا كيف رأيته فقال رأيت داراً حسنة مزخرفة ولكن ليس بها ساكن . السعادة الثانية سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فان الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه . كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان(١)

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه فان البدن أيضا عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها فسعادتها بصحته وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها . السعادة الثالثة هى السعادة الحقيقية وهى سعادة نفسانية روحية قلبية وهى سعادة العلم النافع ثمرته فانها هى الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة أعنى دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال . أما الأولى فانها تصحبه فى البقعة التى فيها ماله وجاهه . والثانية تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثالثة التى كلما طال الأمد ازدادت قوة وعلواً وإذا عدم المال والجاه فهى مال العبد وجاهه وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليان وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . وانما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها وانها لا تنال إلا على جدمن التعب فانها لا تحصل إلا بالجد المحض بخلاف الأوليين فانهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية . وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمور   بغير اجتهاد رجوت المحالا

وقال الآخر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

ومن طمحت همته الى الأمور العالية فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية وهى السعادة وان كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى وانها متى أكرهت النفس عليها وسيقت طائعة وكارهة اليها وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها الى رياض مونقة ومقاعد صدق ومقام كريم تجد كل لذة دونها لعب الصبى بالعصفور بالنسبة الى لذات الملوك فحينئذ حال صاحبها كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى   الى غاية ما بعدها لى مذهب

---

(١) هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين وهما :

ياخادم الجسم كى يشقى بخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران

انهض إلى الروح واستكمل فضائلها   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب

فالمكارم منوطة بالمكارة والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مسافتها إلا فى سفينة الجد والاجتهاد . قال مسلم فى صحيحه قال يحي بن أبى كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة .

فياوصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولكن حفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من عباده والله ذو الفضل العظيم ، الوجه السادس والثمانون إن الله تعالى خلق الموجودات وجعل لكل شيء منها كمالا يختص به هو غاية شرفه فاذا عدم كماله انتقل إلى الرتبة التى دونه واستعمل فيها فكان استعماله فيها كمال أمثاله فاذا عدم تلك أيضا نقل إلى مادونها ولا تعطل وهكذا أبداً حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذى لا يصلح إلا للوقود فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك وأكرم إكرام مثله فاذا نزل عنها قليلا أعد لمن دون الملك فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الأجناد فان تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار إما حول المدار وإما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والاعدام . كما يقال فى المثل أن فرسين التقيا أحدهما تحت ملك والآخر تحت الروايا فقال فرس الملك أما أنت صاحبى وكنت أنا وأنت فى مكان واحد فما الذى نزل بك إلى هذه المرتبة فقال ما ذاك إلا أنك هملجت قليلا وتكسست أنا . وهكذا السيف إذا نبا عما هيء له ولم يصلح له ضرب منه فاس أو منشار ونحوه وهكذا الدور العظام الحسان إذا خربت وتهدمت اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها . وهكذا الآدمى إذا كان صالحاً لاصطفاء الله له برسالته ونبوته اتخذه رسولا ونبياً . كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فاذا كان جوهره قاصراً عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها رشحه لذلك وبلغه إياه فإذا كان قاصرا عن ذلك قابلا لدرجة الولاية رشح لها وإن كان ممن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهى إلى درجة عموم المؤمنين فان نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلا استعمل حطباً ووقوداً للنار . وفى أثر اسرائيلى أن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال يا موسى ازرع زرعا فزرعه فأوحى إليه أن احصده ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ففعل وخلص الحب وحده والعيدان والعصف وحده فأوحى إليه إنى لأجعل فى النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة العيدان والشوك التى لا يصلح إلا للنار . وهكذا الإنسان يترقى فى درجات الكمال درجة بعد

درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها فكم بين حاله فى أول كونه نطفة وبين حاله والرب يسلم عليه فى داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشيا والنبى صلى الله عليه وسلم فى أول أمره لما جاءه الملك فقال له اقرا فقال ما أنا بقارىء وفى آخره أمره بقول الله له (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وبقوله له خاصة (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) : وحكى أن جماعة من النصارى تحدثوا فيما بينهم فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة . فقال له آخر من بينهم أما هم فوالله أعقل منا فان الله بحكمته يسترعى النبى الحيوان البهيم فاذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق حكمة من الله وتدريجاً لعبده ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يأكل ويشرب ويبول ويبكى فقلنا هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه . فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون حيوانا وقد أمكنه أن يصير إنسانا وبأن يكون إنسانا وقد أمكنه أن يكون ملكا وبأن يكون ملكا وقد أمكنه أن يكون ملكا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة فى خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الأمر إلى العلم وثمرته والله تعالى الموفق . وأعظم النقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته . كما قال بعض السلف اذا كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة . وصدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فثبت أنه لا شيء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلا عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويغلون الأسعار إن عاش عاش غير حميد وإن مات مات غير فقيد فقدهم راحة للبلاد والعباد ولا تبكى عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء . الوجه السابع والثمانون أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله . وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين فى كتابه . أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب ففى قوله فى حق المنافقين (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقوله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) . وقال تعالى (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة وأما مرض

الشهوة فى قوله (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى لا تلن فى الكلام فيطمع الذى فى قلبه فجور وزناء . قالوا والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الاجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تلينه وتكسره فان ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو فى الأرض وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة فانه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما . وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث صاحب الشجة الذى افتوه بالغسل فمات قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العى السؤال فجعل العى وهو عى القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضاً وشفاؤه سؤال العلماء فامراض القلوب أصعب من أمراض الابدان لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور . وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الابدان وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم فان كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا فى اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب . وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ولا يستغنى عنهم طرفة عين فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس فى الهواء بل أعظم وبالجملة فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقده مات فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن وكنسبة كلام اللسان إليه فاذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصممها وبكمها . قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) والمراد عمى القلب فى الدنيا . وقال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم) لأنهم هكذا كانو فى الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه . واختلف فى هذا العمى فى الآخرة فقيل هو عمى البصيرة بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما فى القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار وقيل هو عمى البصر ورجح هذا بأن الاطلاق ينصرف إليه وبقوله (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) وهذا عمى العين فان الكافر لم يكن بصيراً بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار

فى القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بهراء ويحشرون من الموقف إلى النار عمياً قاله الفراء وغيره . الوجه الثامن والثمانون ان الله سبحانه بحكمته سلط على العبد عدواً عالماً بطرق هلاكه وأسباب الشر الذى يلقيه فيه متفننا فيها خبيراً بها حريصا عليها لا يفتر يقظة ولا مناما ولا بد له من واحدة من ست ينالها منه . أحدها وهى غاية مراده منه أن يحول بينه وبين العلم والايمان فيلقيه فى الكفر فاذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح فان فاته هـذه وهدى الاسلام حرص على تلو الكفر وهى البدعة وهى أحب اليه من المعصية فان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفى بعض الآثار يقول ابليس أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى بالاستغفار وبلا إله إلا الله فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فاذا ظفر منه بهذه صيره من رعاته وأمرائه فان أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليربح عليه الذى بينهما وهى الخامسة فان أعجزه ذلك صار إلى السادسـة وهى تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ويرمونه بالعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر أعماله فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحصنه منه فانه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التى يأتيه منها وجيشه الذى يستعين به عليه وعرف مداخله ومخارجه وكيفية محاربته وبأى شىء يحاربه وبماذا يداوى جراحته وبأى شىء يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم فالجاهل فى غفلة وعمى عن هذا الامر العظيم والخطب الجسيم . ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده فى القرآن كثيرا جداً لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها وطرق محاربته ومجاهدته فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه فالعلم هو الذى تحصل به النجاة . الوجه التاسع والثمانون ان أعظم الاسباب التى يحرم بها العبد خـير الدنيا والآخرة ولذة النعيم فى الدارين ويدخل عليه عدو منهـا هو الغفلة المضـادة للعـلم والكسل المضاد للارادة والعزيمة هـذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العـلم . أما الغفلة فمضـادة للعلم منافية له وقد ذم سبحـانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم . قال تعالى (ولا تكن من الغافلين) . وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) . وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى وصيته لنساء المؤمنين لا تغفلن فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء عن عشق الصـور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل مأوى

الشيطان فانه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله فهو دائما بين الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم إن المسيح ﷺ سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له فاذا رأسه رأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب فاذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فمناه وحدثه . وقد روى فى هذا المعنى حديث مرفوع فهو دائما يترقب غفلة العبد فيبذر فى قلبه بذر الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطى القلب ويعميه . وأما الكسل فيتولد عنه الاضاعة والتفريط والحرمان وأشد الندامة وهو مناف للارادة والعزيمة التى هى ثمرة العلم فان من علم أن كماله ونعيمه فى شيء طلبه بجهده وعزم عليه بقلبه كله فان كل أحد يسعى فى تكميل نفسه ولذته ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ينبغى أن يطلبه فالارادة مسبوقة بالعلم والتصور فتخلفها فى الغالب انما يكون لتخلف العلم والادراك وإلا فمع العلم التام بأن سعادة العبد فى هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل فى النهوض اليه ولهذا استعاذ النبى ﷺ من الكسل . فى الصحيح عنه انه كان يقول اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان والفرق بينهما ان المكروه الوارد على القلب اما أن يكون على مامضى أو لما يستقبل . فالأول هو الحزن والثانى الهم . وان شئت قلت الحزن على المكروه الذى فات ولا يتوقع دفعه والهم على المكروه المنتظر الذى يتوقع دفعه وتأماه والعجز والكسل قرينان فان تخلف مصلحة العبد وكماله ولذته وسروره عنه أما أن يكون مصدره عدم القدرة فهو العجز أو يكون قادرا عليه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل وصاحبه يلام عليه مالا يلام على العجز وقد يكون العجز ثمرة الكسل فيلام عليه أيضاً فكثيرا ما يكسل المرء عن الشيء الذى هو قادر عليه وتضعف عنه ارادته فيفضى به الى العجز عنه وهذا هو العجز الذى يلوم الله عليه فى قول النبى صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز والا فالعجز الذى لم تخلق له قدرة على دفعه ولا يدخل معجوزه تحت القدرة لايلام عليه . قال بعض الحكماء فى وصيته إياك والكسل والضجر فان الكسل لاينهض لمكرمة والضجر إذا نهض اليها لايصبر عليها والضجر متولد عن الكسل والعجز فلم يفرده فى الحديث بلفظ ثم ذكر الجبن والبخل فإن الاحسان المتوقع من العبد اما بماله وإما ببدنه فالبخيل مانع لنفع ماله والجبان مانع لنفع بدنه المشهور عند الناس ان البخل مستلزم الجبن من غير عكس لأن من بخل بماله فهو بنفسه أبخل والشجاعة تستلزم الكرم من غير عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمح وأجود وهذا الذى

قالوه ليس بلازم أكثره فان الشجاعة والكرم واضدادها أخلاق وغرائز قدتجمع فى الرجل وقديعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الاقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس وهذا كثيراً مايوجدفى أمة الترك يكون أشجع من ليث وأبخل من كلب فالرجل قديسمح بنفسه ويضن بماله ، ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيبدأ بنفسه دونه فمن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه والأقسام الأربعة موجودة فى الناس ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال فان القهر الذى ينال العبد نوعان . أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين . والثانى قهر بباطل وهو غلبة الرجال فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم واقتبست كنوز العلم والحكمة من الفاظه والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة والكمال كله إلى العلم والعزيمة والناس فى هذا على أربعة أضرب الضرب الأول من رزق علماً وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا الضرب خلاصة الخلق وهم الموصوفون فى القرآن بقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (وقوله أولى الأيدى والأبصار) . وبقوله أفمن كان ميتاً فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فبالحياة تنال العزيمة وبالنور ينال العلم وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل الضرب الثانى من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقوله (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وبقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضلوا سبيلا) وبقوله (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) وقوله (وما أنت بمسمع من فى القبور) وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويغلون الأسعار وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ويعلمون ولكن مايضرهم ولا ينفعهم وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويتفكرون ويبيتون ولكن مالا يرضى من القولى يبيتون ويدعون ولكن مع الله إلها آخر يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن ويمنعون الماعون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ويقولون إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب وصدق البحترى فى قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هـــذه الصور

﴿ وقال الآخر ﴾

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

فى شجر السدر منهم مثل لها رواء وما لهـــا ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) عالمهم كما قيل فيه :

زوامل الأسفار لاعلم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك مايدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراح مافى الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى (كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) . الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل فهذا فى رتبة الجاهل أو شر منه . وفى الحديث المرفوع أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ثبته أبو نعيم وغيره فهذا جهله كان خيراً له وأخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالا وعذاباً وهذا لا مطمع فى صلاحه فان التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها فاذا عرفها وحاد عنها عمدا فمتى ترجى هدايته . قال تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعـــد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين . الضرب الرابع من رزق حظا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) رزقنا الله من فضله ولا أحرمنا بسوء أعمالنا انه غفور رحيم . الوجه التسعون ان كل صفة مدح الله بها العبد فى القرآن فهى ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذى هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمسارعة فى الخيرات والحب له والخوف منه والرجاء والإنابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والإيثار على النفس والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرأفة وخفض الجناح والعفو عن مسيئهم والصفح عن جانيهم وبذل الإحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر فى مواطن الصبر والرضا بالقضاء واللين للأولياء والشدة على الأعداء والصدق فى الوعد والوفاء بالعهد والاعراض

عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل والتعاطف والعدل فى الأقوال والأفعال والأخلاق والقوة فى أمره والبصيرة فى دينه والقيام بأداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة إليه وإلى مرضاته وجنته والتحذير عن سبل أهل الضلال وتبيين طرق الغى وحال سالكيها والتواصى بالحق والتواصى بالصبر والحض على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الأرحام وبذل السلام لكافة المؤمنين إلى سائر الأخلاق المحمودة والأفعال المرضية التى أقسم الله سبحانه على عظمها . فقال تعالى (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم) . قالت عائشة رضى الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن فاكتفى بذلك السائل وقال فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شىء بعدها فهذه الأخلاق ونحوها هى ثمرة شجرة العلم . وأما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغى والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاء والشح والبخل ولهذا قيل فى حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرته الغش للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والعجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب واخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنة بالسيئة والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه والغضب لها والانتصار لها فاذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم بأكثر من حقه وإذا انتهكت محارم الله لم ينبض له عرق غضبا لله فلا قوة فى أمره ولا بصيرة فى دينه ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى واتباع الهوى وإيثار الشهوات على الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ووأد البنات وعقوق الامهات وقطيعة الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزى والعار . وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى من شجرة العلم والشر بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل فلو ظهرت صورة العلم للأبصار لزاد حسنها على صورة الشمس والقمر ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر بل كل خير فى العالم فهو من آثار العلم الذى جاءت به الرسل ومسبب عنه . وكذلك كل خير يكون إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة وكل شر وفساد حصل فى العالم ويحصل إلى قيام الساعة وبعدها فى القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل فى العلم والعمل ولو لم يكن للعلم أب ومرب وسائس ووزير إلا العمل الذى به عمارة الدارين وهو الذى أرشد إلى طاعة الرسل وسلم

القلب والجوارح ونفسه إليهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكفى به شرفا وفضلا وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله فى كتابه فى مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذى به يعرف صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه والمرآة التى يعرف بها الحسن من القبيح . وقد قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فاذا ضعف عن القيام عليها وتعهدها وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل . فقال إن الله أحضرك العقل والدين والحياء لتختار واحداً منها فقال أخذت العقل فقال الدين والحياء أمرنا أن لا نفارق العقل حيث كان فانحاز إليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو أبّ العلم ومربيه ومثمره وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فاذا اجتمعا فى العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب وإذا فقد أحدهما فالحيوان البهيم أحسن حالا منه وإذا انفرد انتقص الرجل بنقصان أحدهما ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزى . ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب . والتحقيق أن صاحب العقل الغريزى الذى لا علم ولا تجربة عنده آفته التى يؤتى منها الإحجام وترك انتهاز الفرصة لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل المكتسب يؤتى من الإقدام فان علمه بالفرص وطرقها يلقيه على المبادرة إليها وعقله الغريزى لا يطيق رده عنه فهو غالبا يؤتى من إقدامه والأول من إحجامه فاذا رزق العقل الغريزى عقلا إيمانيا مستفادا من مشكاة النبوة لا عقلا معيشيا نفاقيا يظن أربابه أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون فانهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم ومحبتهم وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إيثار للراحة والدعة ومؤنة الأذى فى الله والموالاة فيه والمعاداة فيه وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك فى الآجلة فانه ماذاق طعم الإيمان من لم يوال فى الله ويعاد فيه فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله والله الموفق المعين . وفى حديث مرفوع ذكره ابن عبدالبر وغيره أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل قل لفلان العابد أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت به العز فما عملت فيما لى عليك قال وما لك على قال هل واليت فى وليا أو عاديت فى عدواً وذكر أيضا أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا قال يارب ان فيهم فلانا العابد قال به فابدأ إنه لم يتمعر وجهه فى يوما قط . الوجه الحادى والتسعون حديث ابن عمر عن النبى ﷺ اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة قال

حلق الذكر فان لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا أتوا عليهم صفوا بهم . قال عطاء مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام كيف يشترى ويبيع ويصوم ويصلى ويتصدق وينكح ويطلق ويحج ذكره الخطيب فى كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه . الوجه الثانى والتسعون ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خـــير من عبادة ستين سنة وفى رفعه نظر . الوجه الثالث والتسعون ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه يسير الفقه خير من كثير من العبادة ولا يثبت رفعه . الوجه الرابع والتسعون ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه فقيه أفضل عند الله من ألف عابد وهو فى الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً وفى ثبوتهما مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فمن دونهم . الوجه الخامس والتسعون ما رواه أيضاً عن ابن عمر يرفعه أفضل العبادة الفقه . الوجه السادس والتسعون . ما رواه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى دين . الوجه السابع والتسعون . ما رواه عن على أنه قال العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازى فى سبيل الله . الوجه الثامن والتسعون . ما رواه المخلص عن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع حدثنا حجاج بن نصير حدثنـــا هلال بن عبد الرحمن الجعفى عن عطاء بن أبى ميمونة عن أبى هريرة وأبى ذر أنهما قالا باب من العلم يتعلمه أحب الينا من ألف ركعة تطوعاً وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب الينا من مائة ركعة تطوعا وقالا سمعنا رسول الله ﷺ يقول إذا جاء الموت طالب العالم وهو على هذه الحال مات شهيداً ورواه ابن أبى داود عن شاذان عن حجاج به . قلت وشاهده مامر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع الوجـــه التاسع والتسعون ماروواه الخطيب أيضاً عن أبى هريرة قال لأن أعلم باباً من العلم فى أمر أو نهى أحب إلى من سبعين غزوة فى سبيل الله وهذا ان صح فمعناه أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم لأن العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه أو يريد علما يتعلمه ويعلمه فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة وهذا لايحصل فى الغزو المجرد . الوجه المائة ماروواه الخطيب أيضا عن أبى الدرداء أنه قال مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة . الوجه الحادى والمائة مارواه عن الحسن قال لأن أتعلم بابا من العلم فاعلمه مسلما أحب إلى من أن يكون لى الدنيا فى سبيل الله . الوجه الثانى والمائة قال مكحول ماعبد الله بأفضل من الفقه . الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولـكن بالفقه فى دينه وهـذا الكلام يراد به أمران . أحدهما أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليين عن العلم ولـكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى أنها ليست الصوم والصلاة

فقط بل الفقه فى دينه من أعظم عباداته . الوجه الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن أبى فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد والعلماء دلوا الناس على ماجاءت به الرسل وقد تقدم الكلام فى تفضيل العالم على الشهيد وعكسه . الوجه الخامس والمائة قال سفيان بن عيينة أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء الوجه السادس والمائه قال محمد بن شهاب الزهرى ماعبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه فى الدين فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فان طلبه لله عبادة وسيأتى ان شاء الله ذكر كلامه بتمامه وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه فى الدين لعلم الفقيه فى دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح . الوجه السابع والمائة قال سهل بن عبد الله التسترى من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل فى أممهم ووارثوهم فى علمهم فمجالسهم مجالس خلافة النبوة . الوجه الثامن والمائة أن كثيراً من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم . فقال الشافعى ليس شىء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وهذا الذى ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه . وكذلك قال سفيان الثورى وحكاه الحنفية عن أبى حنيفة . وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات احداهن أنه العلم فانه قيل له أى شىء أحب اليك أجلس بالليل انسخ أو أصلى تطوعا قال نسخك تعلم بهأمور دينك فهو أحب إلى . وذكر الخلال عنه فى كتاب العلم نصوصا كثيرة فى تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية الثانية أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة وبقوله فى حديث أبى ذر وقد سأله عن الصلاة فقال خير موضوع وبأنه أوصى من سأله موافقته فى الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة . وكذلك قوله فى الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فانك لاتسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وبالأحاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة أنه الجهاد فانه قال لا أعدل بالجهاد شيئا ومن ذا يطيقه . ولا ريب أن أكثر الأحاديث فى الصلاة والجهاد : وأما مالك فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول انأقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيافهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك وكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب إليه عمر أن أفرض لهم من بيت المال فلما كان فى العام

الثانى كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك فكتب إليه عمر أن امحهم من الديوان فانى أخاف من أن يسرع الناس فى القرآن أن يتفقهوا فى الدين فيتأولوه على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدى مالك بن أنس فوضعت ألواحى وقمت إلى الصلاة فقال . ما الذى قمت إليه بأفضل من الذى تركته . قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة التى فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهى الصلاة والعلم والجهاد هى التى قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه لولا ثلاث فى الدنيا لما أحببت البقاء فيها لولا أن أحمل أو أجهز جيشا فى سبيل الله ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر لما أحببت البقاء . فالأول الجهاد . والثانى قيام الليل . والثالث مذاكرة العلم فاجتمعت فى الصحابة بكمالهم وتفرقت فيمن بعدهم . الوجه التاسع والمائة ماذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضل العـــلم خير من نفل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها وفى رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب فى هذه المسئلة فانه إذا كان كل من العلم والعمل فرضا فلابد منهما كالصوم والصلاة فإذا كانا فضلين وهما النفلان المتطوع بهما ففضل العلم ونفله خير من فضل العبادة ونفلها لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة يختص نفعها بصاحبها ولأن العلم تبقى فائدته وعمله بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من الوجوه السابقة . الوجه العاشر بعد المائة مارواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لايحسنه صدقة وبذله لأهله قربة به يعرف الله ويعبد وبه يوحد وبه يعرف الحلال من الحرام وتوصل الأرحام وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على السراء والمعين على الضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير قادة وسادة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتهم تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والعلم حياة القلوب من العمى ونور الأبصار من الظلم وقوة للابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو إمام للعمل والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم فى المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه أن يصل إلى معاذ . الوجه الحادى

عشر بعد المائة ماوراه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبي فديك حدثني عمرو بن كثير عن أبي العلاء عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة النبوة . وقد روي من حديث علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس عن النبي ﷺ وهذا وإن كان لا يثبت اسناده فلا يبعد معناه من الصحة فان أفضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله (ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) فمن طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة . الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن في قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) هي الجنة وهذا من أحسن التفسير فان أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح . الوجه الثالث عشر بعد المائة قال ابن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه هلاك العلماء فوالذي نفسي بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وإن أحداً لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم. الوجه الرابع عشر بعد المائة قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها . الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضي الله عنه أيها الناس عليكم بالعلم فان لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعتبه لئلا يسلبه رداءه ذلك حتى يموت به . قلت ومعنى استعتاب الله عبده أن يطلب منه أن يعتبه أي يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون قد أعتب ربه أي أزال عتبه عليه والرب تعالى قد استعتبه أي طلب منه أن يعتبه . ومن هذا قول ابن مسعود وقد وقعت زلزلة بالكوفة إن ربكم يستعتبكم فاعتبوه وهذا هو الاستعتاب الذي نفاه سبحانه في الآخرة في قوله (فاليوم لا يخرجون منها ولاهم يستعتبون) أي لا نطلب منهم إزالة عتبنا عليهم فان إزالته إنما تكون بالتوبة وهي لا تنفع في الآخرة وهذا غير استعتاب العبد ربه كما في قوله تعالى (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين) فهذا معناه أن يطلبوا إزالة عتبنا عليهم والعفو فماهم من المعتبين أي ماهم ممن يزال العتب عليهم وهذا الاستعتاب ينفع في الدنيا دون الآخرة . الوجه السادس عشر بعد المائة ، قال عمر رضي الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه ووجه قول عمر ان هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه . الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف إذا أتى على يوم

لأزداد فيه علماً يقربنى إلى الله فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه إليه باطل وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفى مثله قال القائل إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذلك من عمرى . الوجه الثامن عشر بعد المائة قال بعض السلف الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد رفع هذا أيضاً ورفعه باطل . الوجه التاسع عشر بعد المائة إنه فى بعض الآثار بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة وقد رفع هذا أيضاً وفى رفعه نظر . الوجه العشرون بعد المائة مارواه حرب فى مسائله مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول يا معشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم إلا لعلمى بكم ولم أضع علمى فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم وهذا وإن كان غريباً فله شواهد حسان ، الوجه الحادى والعشرون بعد المائة . قول ابن المبارك وقد سئل من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذى يأكل بدينه . الوجه الثانى والعشرون بعد المائة ان من أدرك العلم لم يضره مافاته بعد ادراكه اذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ بل يكون وبالا عليه وسببا لهلاكه وفى هذا قال بعض السلف أى شىء أدرك من فاته العلم وأى شىء فاته من أدرك العلم الوجه الثالث والعشرون بعد المائة . قال بعض العارفين أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قالوا فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت وصدق فان العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك فاذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لايشعر بموته كما أن السكران الذى قد زال عقله والخائف الذى قد انتهى خوفه إلى غايته والمحب والمفكر قد يبطل احساسهم بألم الجراحات فى تلك الحال فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها هكذا العبد إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

فحتام لاتصحو وقد قرب المدى وحتام لاينجاب عن قلبك السكر
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا وتذكر قولى حين لاينفع الذكر

فإذا كشف الغطاء وبرح الخفاء وبليت السرائر وبدت الضمائر وبعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور فحينئذ يكون الجهل ظلمة على الجاهلين والعلم حسرة على البطالين . الوجه الرابع والعشرون بعد المائة قال أبو الدرداء من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص فى رأيه وعقله وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم . الوجه الخامس والعشرون بعد المائة قول أبى الدرداء أيضا لأن أتعلم مسئلة أحب إلى من قيام ليلة . الوجه السادس والعشرون

بعد المائة قوله أيضا العالم والمتعلم شريكان فى الأجر وسائر الناس همج لاخير فيهم . الوجه السابع والعشرون بعد المائة مارواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو ليعلمه كان كالمجاهد فى سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ماليس له . الوجه الثامن والعشرون بعد المائة ما رواه أيضا فى صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول ﷺ وهو جالس فى حلقة فأعرض أحدهم واستحى الآخر لجلس خلفهم وجلس الثالث فى فرجة فى الحلقة فقال النبى صلى الله عليه وسلم أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فاعرض فاعرض الله عنه فلولم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفى به فضلا ، الوجه التاسع والعشرون بعد المائة ماروواه كميل بن زياد النخعى قال أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بيدى فاخرجنى ناحية الجبانة فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال ياكميل بن زياد القلوب أوعية لخيرها أوعاها احفظ عنى ما أقول لك الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو على الانفاق وفى رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته وصنيعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا علماً وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حملة بل أصبته لقناً غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له فى أحبائه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لاذا ولا ذاك أو منهوماً للذات سلس القياد للشهوات أو مغرى بجمع الأموال والإدخار ليسا من دعاة الدين أقرب شبها بهم الأنعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامليه اللهم بك لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قيلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم وأستغفر الله لى ولك إذا شئت فقم ذكره أبو نعيم فى الحلية وغيره . قال أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير

المؤمنين للناس فى أوله تقسيم فى غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التى ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل إما أن يكون عالما أو متعلما أو مغفلا للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الربانى هو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل فى الوصف له بأنه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها . ومعنى الربانى فى اللغة الرفيع الدرجة فى العلم العالى المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون) وقوله (كونوا ربانيين) قال ابن عباس حكماء فقهاء . وقال أبو رزين فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الربانى فقال سألت ابن الأعرابى فقال إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا ربانى فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له ربانى .

قال ابن الأنبارى عن النحويين أن الربانيين منسوبون إلى الرب وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة فى النسب كما تقول لحيانى وجبهانى إذا كان عظيم اللحية والجبهة . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلمه والقاصد به نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها واطراحها والأنفة من مجانسة البهائم . ثم قال وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التى هى فى الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التى لا منزلة بعدها فى الجهل ولا دونها فى السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهمج الرعاع وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم والرعاع المتبدد المتفرق والناعق الصائح وهو فى هذا الموضع الراعى يقال نعق الراعى بالغنم ينعق إذا صاح بها . ومنه قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) . ونحن نشير إلى بعض مافى هذا الحديث من الفوائد . فقوله رضى الله عنه القلوب أوعية يشبه القلب بالوعاء والإناء والوادى لأنه وعاء للخير والشر . وفى بعض الآثار إن لله فى أرضه آنية وهى القلوب فخيرها أرقها وأصلبها وأصفاها فهى أوانى مملوءة من الخير وأوانى مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الأبرار تغلى بالبر وقلوب الفجار تغلى بالفجور . وفى مثل هذا قيل فى المثل . وكل إناء بالذى فيه ينضح وقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب فى سعتها وضيقها بالأودية فقلب كبير واسع يسع علما كثيرا كواد كبير واسع يسع ماءا كثيرا وقلب صغير ضيق يسع علما قليلا كواد صغير ضيق يسع ماءا قليلا . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تسموا العنب الكرم فإن الكرم قلب المؤمن فإنهم كانوا يسمون شجر العنب الكرم لكثرة منافعه وخيره والكرم كثيرة الخير والمنافع فأخبرهم أن قلب

المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والمنافع وقوله فخيرها أوعاها يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ويراد به أيضا أحسنها وعيا فيكون حسن الوعى الذى هو إيعاء لما يقال له فى قلبه هو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من مادة الوعى فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراش والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . قال قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ماسمعت . وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتى بعد فالوعى توصف به الأذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط فالعلم يدخل من الاذن إلى القلب فهى بابه والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الاذن أحقها أن توصف بالوعى وأنها إذا وعت وعى القلب . وفى حديث جابر فى المثل الذى ضربته الملائكة للنبى صلى الله عليه وسلم ولأمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنك وعقل قلبك فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمساكه حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به وعقل الإنسان يسمى عقلا لأنه يعقله عن اتباع الغى والهلاك ولهذا يسمى حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ماحواه فعقل الشىء أخص من علمه ومعرفته لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا يدعه يذهب كما تعقل الدابة التى يخاف شرودها . وللادراك مراتب بعضها أقوى من بعض فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التى ركبها الله فى الإنسان فخير القلوب ما كان واعيا للخير ضابطا له وليس كالقلب القاسى الذى لا يقبله . فهذا قلب حجرى ولا كالمائع الأخرق الذى يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط فتفهيم الأول كالرسم فى الحجر وتفهيم الثانى كالرسم على الماء بل خير القلوب ما كان لينا صلبا يقبل بلينه ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته فهذا تفهيمه كالرسم فى الشمع وشبهه . وقوله الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولا فالأول العالم الربانى والثانى إما أن تكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى إدراكه أولا والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة الثالث وهو الهمج الرعاع فالأول هو الواصل والثانى هو الطالب والثالث هو المحروم . والعالم الربانى . قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المعلم أخذه من التربية أى يربى الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم قال سيبويه زادوا ألفا ونونا فى الربانى إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شعرانى ولحيانى ومعنى قول سيبويه رحمه الله إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله

وتخصص به نسب اليه دون سائر من علم علما . قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى . وقال المبرد الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به أى يعلمهم ويصلحهم . وعلى قوله فالربانى من رب يرب ربا أى يربيه فهو منسوب إلى التربية يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل إنه من الربة بكسر الراء وهى الجماعة . قال الجوهرى الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس . قال تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم) ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملا بعلمه معلماً له فهذا قسم . والقسم الثانى متعلم على سبيل نجاة أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاة إلا بهذه الأمور الثلاثة فانه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاة وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيه وليس حرف على وما عمل فيه متعلقا بمتعلم إلا على وجه التضمين أى مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس من تعلمه ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس اليه فان هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبته أبو نعيم أيضا . قوله ﷺ من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة . قال وثبت أيضا قوله ﷺ أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان . القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فشبه همج الناس به والهمج أيضا مصدر قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن تجع تأكل عتوداً أو ثلج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم همج هامج مثل ليل لايل والرعاع من الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم . وقوله اتباع كل ناعق أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فانهم لاعلم لهم بالذى يدعون اليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فإنهم الأكثرون عدداً الأقلون

عند الله قدراً وهم حطب كل فتنة بهم توقد ويشب ضرامها فإنها يعتزلها أولو الدين ويتولاها الهمج الرعاع وسمى داعيهم ناعقا تشبيها لهم بالأنعام التى ينعق بها الراعى فتذهب معه أين ذهب . قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وهذا الذى وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء . وقوله رضى الله عنه يميلون مع كل ريح وفى رواية مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف وشبه الأهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع كل هوى وكل داع ولو كانت عقولا كاملة كانت كالشجرة الكبيرة التى لا تتلاعب بها الرياح . وهـــذا بخلاف المثل الذى ضربه النبى ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تفيئه الريح مرة وتقيمه أخرى والمنافق كشجرة الأرز التى لا تقطع حتى تستحصد فإن هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها فلا يزال بين عافية وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل تارة ويعتدل أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره والكافر كله خبث ولا يصلح إلا للوقود فليس فى إصابته فى الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة مافى إصابة المؤمن فهـــذه حال المؤمن فى الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل :

تزول الجبال الراسيات وقلبه ... على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رضى الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق بين السبب الذى جعلهم بتلك المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل . كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) . وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) . وقوله تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية . وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل فان الحق متى استقر فى القلب قوى به وامتنع مما يضره ويهلكه . ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فاذا

استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذان الأصلان هما قطب السعادة أعنى العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه الملك الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال (إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى) . وقال تعالى فى سورة التكوير (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد على رضى الله عنه وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاؤا بنور العلم ولا لجئوا إلى عالم مستبصر فقلدوه ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكا ببصير يقوده أو أعمى يسير بلا قائد . وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال . يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاما مسموما فالعالم بالسم وضرره يحرسه علمه ويمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطبيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير مايجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيحرسه علمه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعدوه ومكائده ومداخله على العبد يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يحرسه من الشيطان فكلما جاء ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان فيرجع خاسئا خائباً . وأعظم مايحرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته فتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه . قال بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك . وقوله العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما تكون المسئلة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم أخر . وأيضا فإن الجزاء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهالتهم جزاه الله بأن علمه من جهالته كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبى ﷺ أنه قال فى حديث طويل وإن الله قال لى أنفق أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم إما بلفظه وإما بتنبيهه وإشارته وفحواه ولزكاء العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثانى العمل به فان العمل به أيضا ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافى قول النبى صلى الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر

وخلفه غيره . وأما العلم فكالقبس من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاقتباس منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوي ينبوعها وجاش معينها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه أحدها أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء والثاني أن العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله . والثالث أن المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة . الرابع أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره . الخامس أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم . السادس أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن . السابع أن العالم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة . الثامن أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها التاسع أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التوضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد . العاشر أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها . الحادي عشر أن غنى العلم أجل من غنى المال فإن غنى المال غنى بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان لو ذهب في ليلة أصبح فقيرا معدما وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زيادة أبداً فهو الغنى العالي حقيقة كما قيل .

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

الثاني عشر أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعله عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبده لربه وخالقه فهو لا يدعوه إلا إلى عبودية الله وحده . الثالث عشر أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة . الرابع عشر أن قيمة الغني ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائما . الخامس عشر أن جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن . السادس عشر أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه والغني العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع . السابع عشر أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال . الثامن عشر أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله . التاسع عشر أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثيراً فانه معشوق النفوس فاذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى

العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه العشرون إن اللذة الحاصلة من غنى إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية فان صاحبه التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية وإن التذ بانفاقه فى شهواته فهى لذة بهيمية وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية وهى تشبه لذة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين ، الحادى والعشرون إن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره فى جمع المال الحريص عليه وتنقصه والإزراء به ومطبقون على تعظيم الشره فى جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبته ورؤيته بعين الكمال الثانى والعشرون أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد فى المال المعرض عن جمعه الذى لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد فى العلم الذى لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه الثالث والعشرون أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به الرابع والعشرون أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور . الخامس والعشرون أن الغنى بماله لابد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم ولذة الغنى بالعلم لذة باقية مستمرة لا يلحقها ألم . السادس والعشرون إن استلذاذ النفس وكمالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فتجملها بالمال تجمل بثوب مستعار لابد أن يرجع إلى مالكه يوما ما وأما تجملها بالعلم وكمالها به فتجمل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها . السابع والعشرون أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقى فغناها بعلمها هو الغنى وغناها بمالها هو الفقر . الثامن والعشرون أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد إلا تقديما وإكراما . التاسع والعشرون ان تقديم الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه لولا ماله لكان مستحقاً للتأخر والإهانة وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كماله اذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج عن ذاته . الوجه الثلاثون أن طالب الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل له اليه (وبيان ذلك) ان القدرة صفة كمال وصفة الكمال محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير أيضا صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للعقلاء محبوب للنفوس واذا التفت الى أن ذلك يقتضى خروج المال من من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال قدرته نفرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف وظن أن كماله فى إمساك المال وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها فلأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم يحب الجود والسخاء

والمكارم ولأجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجه والحاجة المنافية لكمال الغنى يحب ابقاء ماله ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعيين يتجاذبانه ويعتوران عليه فيبقى القلب فى مقام المعارضة بينهما فمن الناس من يترجح عنده جانب البذل والجود والكرم فيؤثره على الجانب الآخر . ومنهم من يترجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره فهذان نظاران للعقلاء . ومنهم من يبلغ به الجهل والحماقة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمكارم طمعاً منه فى فوزه بالمدح والثناء على ذلك وعند حضور الوقت لا يفى بما قال فيستحق الذم ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع فى أنواع القبائح والفضائح . وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية وهم غالباً يبكون ويشكون . وأما غنى العلم فلا يعرض له شىء من ذلك بل كلما بذله ازداد ببذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً وإن فاته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ماهو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغنى وتعبه فى تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال لجمعه وألمه دون ألمه كما قال تعالى للمؤمنين تسلية لهم بما ينالهم من الألم والتعب فى طاعته ومرضاته (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما) . الحادى والثلاثون أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هى حال تجدده فقط . وأما حال دوامه فإما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً فهو فى فقر مستمر غير منقض ولو ملك خزائن الأرض ففقره وطلبه وحرصه باق عليه فانه أحد المنهومين اللذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب . وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فان لذته فى حال بقائه مثلها فى حال تجدده بل أزيد وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو المطلوب ولذة الطلب وابتهاجه وفرحه به . الثانى والثلاثون أن غنى المال يستدعى الإنعام على الناس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه فان سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والنفع فأبغضوه وذموه واحتقروه وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار فى الحطب اليابس ومن السيل فى منحدره وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم وأحضر الهموم والغموم والأحزان . وإن فتح باب الإحسان والعطاء فانه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كل أحد فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض وهـــذا

يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم . أما المحروم فيقول كيف جاد على غيرى وبخل على وأما المرحوم فانه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضى ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة . ولهذا قيل اتق شر من أحسنت إليه وهذه الآفات لا تعرض فى غنى العلم فان صاحبه يمكنه بذله للعالم كلهم واشتراكهم فيه والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول بل يتجربه فهو كالغنى إذا أعطى الفقير رأس مال يتجربه حتى يصير غنياً مثله . الوجه الثالث والثلاثون إن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقته . فأما النوع الأول فهو المشاق والانكاد والآلام التى لا يحصل إلا بها . وأما النوع الثانى فشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يمسى إلا مغموما فهو بمنزلة عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترمقه والألسن والقلوب ترشقه فأى عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم فى التفريق بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم فان فازوا به وإلا استووا فى الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفوس ولو قدروا على مثل ذلك مع العالم لفعلوه ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جحده وانكاره ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فان بهر علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والانكار رموه بالعظائم ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهؤلاء سحرة بألسنتهم فان عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة رموه بالتلبيس والتدليس والدوكرة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغى لمن له مسكة عقل أن يتأذى به إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحر الصيف . والنوع الثالث من آفات الغنى ما يحصل للعبد بعد مفارقته من تعلق قلبه به وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما ذا أنفقه وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيل بكل لذة وفرحة وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من التعب والصبر والمشقة . الرابع والثلاثون ان لذة الغنى بالمال مقرونة بخلطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله ولا التذاذه به وإذا كان كمال لذته بغناه موقوفا على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام ولو لم يكن الا اختلاف الناس وطباعهم وارادتهم فقبيح هذا حسن ذاك ومصلحة ذاك مفسدة

هذا ومنفعة هذا مضرة ذاك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلابد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه فان إرضاءهم كلهم محال وهو جمـــع بين الضدين وارضاء بعضهم واسخاط غيره سبب الشر والمعاداة وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغنى بالمـال أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة وهذه الآفات معدودة فى الغنى بالعلم . الخامس والثلاثون إن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلا فانه لا يشبع ولا يروى ولا يدفىء ولا يمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقا إليها أريد ارادة الوسائل. ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل فهذه الغايات إذا أشرف منه وهى مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيئة وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وانما هى دفع الألم فقط فان لبس الثياب مثلا انما فائدته دفع التألم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لو لم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب . ومعلوم أن فى مزاولة ذلك وتحصيله ألما وضرراً ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما . وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت فى دار بليات أدافع آفات بآفات . وفى الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنكح من هذا الجنس واللذة التى يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهى الغاية المطلوبة له من لذة المنكح والمأكل شهوتى البطن والفرج ليس لهما ثالث البته إلا ما كان وسيلة اليهما وطريقا إلى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة منها أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها . ومنها أنها ممزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محتاطة بالمخاوف وفى الغالب لا تفى آلامها بطيبها كما قيل :

قايست بين جمالها وفعالها فاذا الملاحة بالقباحة لا تفى

ومنها أن الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأخسها فنسبتهم فيها إلى الافاضل كنسبة الحيوانات البهيمية اليهم فمشاركة الاراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد فى المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير فى أشعار الناس ونثرهم كما قيل

سأترك حبها من غير بغض ولكن لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الاسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغن فيه

وقيل لزاهد ماالذى زهدك فى الدنيا فقال خسة شركائها وقلة وفائها وكثرة جفائها
وقيل لآخر فى ذلك فقال مامددت يدى إلى شىء منها إلا وجدت غيرى قد سبقنى اليه فاتركه له . ومنها أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة اليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها وكلما كانت شهوة الظفر بالشىء أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكمل فلما لم تحصل تلك الشهوة لم تحصل تلك اللذة فقدار اللذة الحاصلة فى الحال مساو لمقدار الحاجة والالم والمضرة فى الماضى وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والالم المتقدم فيتساقطان فتصير اللذة كانها لم توجد ويصير بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمراهم أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه عشرة دراهم ولاتخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كمالا بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط فان الإنسان يتضرر بثقله فاذا قضى حاجته استراح منه فاما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا . ومنها أن هاتين اللذتين اللتين هما أثر اللذات عند الناس ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات والتألم الحاصل عقيبهما مثال لذة الأكل فان العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته ريقه وعجنه به لنفرت نفسه منه ولو سقطت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من اعادتها اليه ثم إن لذته به إنما تحصل فى مجرى نحو الأربع الأصابع فاذا فصل عن ذلك المجرى زال التذذه به فاذا استقر فى معدته وخالطه الشراب وما فى المعدة من الأجزاء الفضلية فانه حينئذ يصير فى غاية الخسة فان زاد على مقدار الحاجة أورث الادواء المختلفة على تنوعها ولولا أن بقاءه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم :

لولا قضاء جرى نزهت أنملتى عن أن تلم بمأكول ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن نذكر آفاته ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هى عورة الإنسان التى يستحيا من رؤيتها وذكرها وسترها أمر فطر الله عليه عباده ولا تتم لذة المواقعة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها والتلطخ بالرطوبات المستقذرة المتولدة منها ثم إن تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهى اللذة المقصودة من الوقاع وزمنها يشبه الآن الذى لاينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراوضة والتعب لأجل لذة لحظة كمد الطرف فأين مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب فى طريق تحصيلها . وهذا يدل على أن هذه

اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذى خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيء له العبد وهو لا يفطن له لغفلته عنه وإعراضه عن التفتيش على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السائمة :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فاربأ نفسك أن ترعى مع الهمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس فى موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطراً اليه فانه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيما فاذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذى وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك إلا راحته من حمل مايؤذيه حمله . فعلم أن هذه اللذات إما أن تكون دفع آلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيسة مقترنة بآفات ترى مضرتها عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الارواح واستيلاء العفونة على كل البدن واسرع الضعف والخور اليه واستيلاء الاخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها . . ومما يدل على أن هذه اللذات ليست خيرات وسعادات وكمالا أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هى نهمته وشغله ومصرف همته وإرادته والازراء به وتحقير شأنه والحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزنا ولو كانت خيرات وكمالا لكان من صرف اليها همته أكمل الناس . ومما يدل على ذلك أن القلب الذى قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقا فى الهموم والغموم والاحزان وما يناله من اللذات فى جنب هذه الآلام كقطرة فى بحر كما قيل سروره وزن حبة وحزنه قنطار فإن القلب يجرى مجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار بمر لأنواع المشتهيات والملذوذات والمكروهات وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره فإن كان محبوبا مشتهيا مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم فى طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم حال حصوله خوفا من فراقه وبعد فراقه خوفا على ذهابه وإن كان مكروها له ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاتته مصلحة راجحة الحصول فيتألم لفواتها فعلم أن هذا القلب أبداً مستغرق فى بحار الهموم والغموم والأحزان وإن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغيب بها عن شهوده القناطير من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إليها سبيل تجرد ذلك الألم وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ماشئت فى حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغمومه وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ويرفع الستر وينجلى الغبار ويحصل

ما فى الصدور فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التى هى غاية جمع الأموال وطلبها فما الظن بفقد الوسيلة . وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة متصل الفرحة مقتض لأنواع المسرة والبهجة لا يزول فيحزن ولا يفارق فيؤلم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . السادس والثلاثون إن غنى المال يبغض الموت ولقاء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقته ويحب بقاءه ليتمتع به كما شهد به الواقع . وأما العلم فانه يحبب للعبد لقاء ربه ويزهده فى هذه الحياة النكدة الفانية . السابع والثلاثون إن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين فى هذا الحديث مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر فخزان الأموال أحياء كاموات والعلماء بعد موتهم أموات كاحياء . الثامن والثلاثون إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فالروح ميتة حياتها بالعلم كما أن الجسد ميت حياته بالروح فالغنى بالمال غايته أن يزيد فى حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره . التاسع والثلاثون إن القلب ملك البدن والعلم زينته وعدته وماله وبه قوام ملكه والملك لابد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وجماله . وأما المال فغايته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه فى ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالا . ومن المعلوم أن زينة الملك به وما به قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجمالهم فقوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء . الوجه الاربعون أن القدر المقصود من المال هو ما يكفى العبد ويقيمه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناء به ازداد تثبطا وتخلفا عن التجهز لما أمامه . وأما العلم النافع فكلما ازداد منه ازداد فى تعبية الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال والادخار ومن أراد شيئا هيأ له عدته . قال تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) . قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم فحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله إنما هو فى علم الرسل الذى جاؤا به وورثوه للامة لا فى كل ما يسمى علماً . وأيضاً فان محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه

وذلك هو الشقاء والضلال وأيضاً فإن الله سبحانه عليم يحب كل عليم وإنما يضع علمه عند من يحبه فمن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك مما يدان به . قوله العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته يكسبه ذلك أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ويقال كسبه ذلك عزا وطاعة وأكسبه لغتان ومنه حديث خديجة رضى الله عنها إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب المال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزاً ومن رواه بفتحها فمعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدراً من تكلمها بهذا فى هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله إنك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لئلا يغتربها فى تفسير كلام الله ورسوله . والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته أى يجعله مطاعا لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للملوك فمن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وفسر أولى الأمر بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعلمون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك واحدى الروايتين عن الإمام أحمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد وإحدى الروايتين عن ابن عباس وأحمد والآية تتناولهما جميعاً فطاعة ولاة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع فى أهل الأرض من كل أحد فإذا مات أحيا الله ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس والجاهل فى حياته حى وهو ميت بين الناس . كما قيل

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

﴿ وقال الآخر ﴾

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم ... وعاش قوم وهم فى الناس أموات

﴿ وقال آخر ﴾

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً ... فذلك حى وهو فى الترب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هى الحياة حقاً حتى عد ذلك حياة ثانية . كما قال المتنبى .

ذكر الفتى عيشه الثانى وحاجته   مافاته وفضول العيش أشغال

قوله وصنيعة المال تزول بزواله يعنى أن كل صنيعة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديم واحترام وتولية وغير ذلك فإنها إنما هى مراعاة لماله فاذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ويسعى فى مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى فى أشعارهم وكلامهم وفى مثل قولهم . من ودك لأمر ملك عند انقضائه . قال بعض العرب .

ومن هذا ماقيل إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يعجبنك ذلك فان زوال الكرامة بزوالهما ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين وهذا أمر لا ينكر فى الناس حتى انهم ليكرمون الرجل لثيابه فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة وهو هو قال مالك بلغنى أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام أدخل كمه فى الطعام فعوتب فى ذلك فقال إن هذه الثياب هى التى أدخلت فهى تأكل حكاه ابن مزين الطليطلى فى كتابه وهذا بخلاف صنيعة العلم فانها لاتزول أبداً بل كل مآلها فى زيادة مالم يسلب ذلك العالم علمه وصنيعة العلم والدين أعظم من صنيعة المال لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهى صادرة عن حب وإكرام لأجل ما اودعه الله تعالى اياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضاً فصنيعة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنيعة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضاً فصنيعة المال صنيعة معاوضة وصنيعه العلم والدين صنيعة حب وتقرب وديانة وأيضاً فصنيعة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صنيعة العلم والدين فلا تكون إلامع أهل ذلك وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنــده صنيعة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدمت صنيعتك عنده وأما من اصطنعت إليه صنيعة علم وهدى فان تلك الصنيعة لاتفارقه أبداً بل ترى فى كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ ، قوله مات خزان الأموال وهم أحياء قد تقدم بيانه ، وكذا قوله والعلماء باقون مابقى الدهر . وقوله أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة المراد بأمثالهم صورهم العلمية ووجودهم المثالى أى وان فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم فى القلوب لاتفارقها وهذا هو الوجــــود الذهنى العلمى لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم

يوجب أن لايزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وإن غابت عنهم أعيانهم كما قيل .

ومن عجب أنى أحن إليهم ... واسأل عنهم من لقيت وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

﴿ وقال آخر ﴾

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق ... وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثواك فى قلبى فأين تغيب

قوله آه إن هاهنا علماً وأشار إلى صدره يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقتبس منه ولينتفع به . ومنه قول يوسف الصديق عليــــه السلام اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك ليتكثر به عند الناس ويتعظم وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره فى عيونهم والأول يكثره فى قلوبهم وعيونهم وإنما الأعمال بالنيـات وكذلك إذا أثنى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلمة وشر أو ليستوفى بذلك حقاً له يحتـاج فيه إلى التعريف بحاله أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لايعرف حاله والأحسن فى هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله فان لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو فى الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعاظم . ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة أحـــدهم من ليس هو بمأمون عليه وهو الذى أوتى ذكاء وحفظاً ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء فهو يتخذ العلم الذى هو آلة الدين آلة الدنيا يستجلبها به ويتوسل بالعلم إليها ويجعل البضاعة التى هى متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ما حمله من العـلم ولا يجعله الله إماما فيه قط فان الأمين هو الذى لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذى قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عبـاده وخان دينه . فلهذا قال غير مأمون عليه وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه وهذه حال كثير ممن يحصل له علم فانه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أى ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فإن العالم

حقا يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه فيقدمه ويحكمه ويجعله عياراً على غيره مهيمنا عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقى فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منه وقدم غيره وأخره . والصنف الثانى من حملة العلم المنقاد الذى لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه لكنه منقاد لأهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثرى سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاثى وأصله منقيد كمكتسب ثم أعلت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة فصار منقاد تقول قدته فانقاد أى لم يمتنع والإحناء جميع حنو بوزن علم وهى الجوانب والنواحى والعرب تقول أزجر احناء طيرك أى أمسك نواحى خفتك وطيشك يمينا وشمالا وأماما وخلفا . قال لبيد

فقلت ازدجر احناء طيرك واعلمن ❊ بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخفة والطيش . وقوله ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة هذا لضعف علمه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ فى العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكا لأنه قد رسخ فى العلم فلا تستفزه الشبهات بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة والشبهة وارد يرد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فمتى باشر القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكا مرتابا والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغى وجيش شبهات الباطل فأيما قلب صغا إليها وركن اليها تشربها وامتلأ بها فينضح لسانه وجوارحه بموجبها فان أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والايرادات فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه وإنما ذاك من عدم علمه ويقينه . وقال لى شيخ الإسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد لا تجعل قلبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته وإلا فاذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات أو كما قال فما أعلم أنى انتفعت بوصية فى دفع الشبهات كانتفاعى بذلك . وإنما سميت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها . وأما صاحب العلم واليقين

فانه لا يغتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فينكشف له حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فانه يغتر به الجاهل بالنقد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالنحاس الذى تحته وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله . وإذا تأمل العاقل الفطن هذا القدر وتدبره رأى أكثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا فى كتب الناس ما شاء الله وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفى مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنعت فهؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيها وتجسيما ومن أثبت ذلك مشبها فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نحلة ومقالة يكسون نحلتهم ومقالتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقبح ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ . كما قيل فى هذا المعنى .

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن تشأ قلت ذا قىء الزنابير
مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

فاذا أردت الاطلاع على كنه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الانصاف ولا تكن ممن ينظر فى مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاما بكل قلبه ثم ينظر فى مقالة خصومه وممن يسىء ظنه به كنظر الشزر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوىء والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

﴿وقال آخر﴾

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

فاذا كان هذا فى نظر العين الذى يدرك المحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذى يدرك المعانى التى هى عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به . وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفته إذ

تؤثر فيه البداآت ويستفز بأوائل الأمور بخلاف الثابت التام العاقل فانه لا تستفزه البداآت ولا تزعجه وتقلقله فان الباطل له دهشة وروعة فى أوله فاذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالعجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الأول حمد أمره ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها وهى الفوت فانه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت فاذا اقترن به العزم والحزم تم أمره . ولهذا فى الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد مواتاتها فاذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح والله ولى التوفيق . الصنف الثالث رجل همته فى نيل لذته فهو منقاد لداعى الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك ولا ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة قال مسلم فى صحيحه قال يحيى بن أبى كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقال ابراهيم الحربى أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم ومن آثر الراحة فاتته الراحة فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فاذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً فاذا صارت شهوته فى العلم ولذته فى إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله ولذة العلم لذة عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلو فى الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فانها تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقللها ويحجبها فاذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وآثر النعيم والمقيم فهو فى العلم والايمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان وأيضا فان تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هما وغما وألا يحتاج صاحبها أن يداويه بمثلها دفعا لألمه وربما كان معاودته لها مؤلما له كرها إليه لكن يحمله عليه مداواة ذلك الغم والهم فأين هذا من لذة العلم ولذة الايمان بالله ومحبته والاقبال عليه والتنعم بذكره فهذه هى اللذة الحقيقية

الصنف الرابع من حرصه وهمته فى جمع الأموال وتثميرها وادخارها فقد صارت لذته فى ذلك وفنى بها عما سواه فلا يرى شيئا أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين فى طلبه ومن تعلق منهم بشىء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فان الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيرا منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون . وقوله أقرب شبها بهم الأنعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى (إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلا) فما اقصر سبحانه على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم والسائمة الراعية وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم فى سعى الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه أهل الجهل والغى تارة بالأنعام وتارة بالحمر وهذا تشبيه لمن تعلم علما ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالحمار الذى يحمل أسفاراً وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخلد إلى الشهوات والهوى . وقوله كذلك يموت العلم بموت حامليه هذا من قول النبى ﷺ فى حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضى الله عنهم وغيرهما أن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فاذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخارى فى صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضى الله عنه إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب وقد تقدم قول عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقوله اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبى ﷺ لاتزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك . ويدل عليه أيضاً مارواه الترمذى عن قتيبة حدثنا حماد بن يحيى الابح عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله ﷺ مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره قال هذا حديث حسن غريب . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان يثبت حماد بن يحيى الابح وكان يقول هو من شيوخنا وفى الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن فى أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضاً فان هذه الأمه أكمل الامم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لا نبى بعده فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلفه عالم لئلا تطمس معالم الدين وتخفى أعلامه . وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبى خلفه نبى فكانت تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء فى بنى إسرائيل . وأيضا فى الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لايزال محمولا فى القرون قرنا بعد قرن. وفى صحيح أبى حاتم من حديث الخولانى قال قال رسول الله ﷺ لايزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم فى طاعته وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله . ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون فى حديث على إما ظاهراً مشهوراً وإما خفيا مستوراً وظنوا أن ذلك دليل لهم على القول بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابيهم والحديث مشهور عن على لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب وحجج الله لا تقوم بخفى مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به فى شىء أصلا فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأى حجة لله قامت بمن لا يرى لهشخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولاسيما على أصول القائلين به فان الذى دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا لابد منه فى اللطف بالمكلفين وانقطاع حجتهم عن الله فيالله العجب أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم وأى حجة أثبتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل فان هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل فى تكليف مالا يطاق أبلغ من هذا وهل فى العذر والحجة أبلغ من هذا فالذى فررتم منه وقعتم فى شر منه وكنتم فى ذلك كما قيل :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبى الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل :

ما آن للسرداب أن يلد الذى حملتموه بزعمكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فانكم ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فانتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضى الله عنه بان حامل حجج الله فى الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله رضى الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة . وقوله لكيلا تبطل حجج الله وبيناته أى لكيلا تذهب من بين يدى الناس وتبطل من صدورهم وإلا فالبطلان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان . فان قيل فما الفرق بين الحجج والبينات . قيل الفرق بينهما أن الحجج هى الأدلة العلمية التى يعقلها القلب وتسمع بالأذن قال تعالى فى مناظرة إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ماهم عليه بالدليل العلمى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال ابن زيد بعلم الحجة وقال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى) وقال

تعالى (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم) والحجة هى اسم لما يحتج به من حق وباطل قال تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) فانهم يحتجون عليكم بحجة باطلة (فلا تخشوهم واخشونى) وقال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) والحجة المضافة إلى الله هى الحق وقد تكون الحجة بمعنى المخاصمة ومنه قوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم) أى قد وضح الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فان الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فاذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة فى الخصومة والجدال على بصيرة مخاصمة المنكر ومجادلته عناء لاغنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع فى وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فان القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين فى مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلا صحيحا على ذلك إلا وهو فى القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال أبو حامد فى أول الأحياء فان قلت فلم تورد فى أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التى ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهى من البدع كما سيأتى بيانه واما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شىء منه مألوفا فى العصر الأول ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبها ورتبت لها كلاما مؤلفاً فصار ذلك المحظور بحكم الضرورة مأذوناً فيه . وقال الرازى فى كتابه أقسام اللذات لقد تأملت الكتب الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تروى غليلا ولا تشفى عليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ فى الإثبات (إليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) واقرأ فى النفى (ليس كمثله شىء) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى وهذا الذى أشار اليه بحسب ما فتح له من

دلالة القرآن بطريق الخبر وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها فتكون دليلا سمعيا عقليا أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين فى العلم وهو العلم الذى يطمئن اليه القلب وتسكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستنير به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاصم به فلجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الاعصار تسمح منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً وقال بعض المتكلمين أفنيت عمرى فى الكلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقا معى وأنا لا أشعر به فقلت والله ما مثلى إلا كما قال القائل :

ومن العجائب والعجائب جمة قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيش فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبيناته ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون فى كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وافية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع الشبه والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما قيل بل فوق ما قيل :

كفى وشفى ما فى الفؤاد فلم يدع لذى أرب فى القول جداً ولا هزلا

وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إلى كما كانت وتتزاحم فى صدرى ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا تلقى منه إقبالا ولا قبولا فترجع على ادبارها . والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الأدلة والأقيسة الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه بإقامة الحجة والمجادلة . فقال تعالى (وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط فى الجهل . والمقصود الفرق بين الحجج والبينات . فنقول الحجج الأدلة العلمية والبينات جمع بينة وهى صفة فى الأصل يقال آية بينة وحجة بينة والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمى . قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) فالبينات الآيات التى أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار

وهو من آيات الله الموجودة فى العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه (قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه) وكان القاء العصا وانقلابها حية هو البينة . وقال قوم هود ياهود ما جئتنا ببينة يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر فى عدم الإجابة إليه وهذه هى الآيات التى قال الله تعالى فيها (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه وإحسان فانه جرت سنته التى لا تبديل لها انهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلى ما طلبوا فلم يعممهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عبادة المؤمنين وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التى اقترحوها فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته واحسانه بخلاف الحجج فانها لم تزل متتابعة يتلو بعضها بعضا وهى كل يوم فى مزيد وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أكثر ما كانت وهى باقية إلى يوم القيامة ، وقوله أولئك الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدرا يعنى هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا وهذا سبب غربتهم فانهم قليلون فى الناس والناس على خلاف طريقهم فلهم نبأ وللناس نبأ . قال النبى صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدا فطوبى للغرباء . فالمؤمنون قليل فى الناس والعلماء قليل فى المؤمنين وهؤلاء قليل فى العلماء وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فانهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فمشبهون بالناس وليسوا بناس فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عددا . قال ابن مسعود لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم سبحانه الأكثرين فى غير موضع كقوله (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال : (وقليل من عبادى الشكور) وقال : (وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال بعض العارفين انفرادك فى طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى والا فخاطر   واطرق الحى والعيون نواظر
لا تخف وحشة الطريق اذا سر   ت وكن فى خفارة الحق سائر

وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها الى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم وهذا لأن الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيناته وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم فى دينه يغرسون العلم فى قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفى الأثر المشهور لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته . وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلنى من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك ولهذا ما أقام الله لهذ الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة أما فى قلوب أمثاله وأما فى كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فان العالم إذا زرع علمه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقى له ذكره وهو عمر ثان وحياة أخرى وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون ورغب فيه الراغبون . وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا مما استوحش منه الجاهلون . الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لمخالفتها لشهواتهم ومباينتها لإرادتهم ومألوفاتهم قل سالكوها وزاهدهم فيها قلة علمهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم وماهيئوا له وهيء لهم فقل علمهم بذلك واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الاخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها فأخلدوا الى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعودنا نسيئة فنظروا الى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجلها ووقفوا مع ظاهرها . ولم يتأملوا باطنها وذاقوا حلاوة مباديها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفكر فى الفطام ومرارة الانقطاع وقال مغترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا فى ذلك :

* خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به *

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه فى أمته فانهم لكمال علمهم وقوته نفذ بهم الى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعاينوا ببصائرهم ما عشيت عنه بصائر الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول اليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا اليه وأسمعهم منادى الايمان النداء فاستبقوا اليه واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا أن الدنيا دار ممر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وإن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتيقنوا أنها أحلام نوم أو كظل زائل :

* إن اللبيب بمثلها لا يخدع *

وأن وصفها صدق فى وصفها إذ يقول

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها   على أنهم فيها عراة وجوع

أراها وإن كانت تحب فإنها   سحابة صيف عن قليل تقشع

فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها موليه وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما أسرعت إلى الخلق مقبلة فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل المحب بنائم علموا طول الطريق وقلة المقام فى منزل التزود فسارعوا فى الجهاز وجد بهم السير إلى منازل الأحباب فقطعوا المراحل وطووا المفاوز . وهذا كله من ثمرات اليقين فان القلب إذا استيقن ما أمامه من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه إذا زال الحجاب رأى ذلك عيانا زالت عنه الوحشة التى يجدها المتخلفون ولأن له ما استوعره المترفون وهذه المرتبة هى أول مراتب اليقين وهى علمه وتيقنه وهى انكشاف المعلوم للقلب بحيث يشاهده ولا يشك فيه كانكشاف المرئى للبصر . ثم يليها المرتبة الثانية وهى مرتبة عين اليقين ونسبتها إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهى حق اليقين وهى مباشرة المعلوم وإدراكه الإدراك التام فالأولى كعلمك بأن فى هذا الوادى ماء والثانية كرؤيته والثالثة كالشرب منه . ومن هذا ما يروى فى حديث حارثة . وقول النبى ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت مؤمنا حقا قال إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك قال عزفت نفسى عن الدنيا وشهواتها فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتعاوون فيها . فقال عبد نور الله قلبه فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على حقيقة الأمر ومن وصل إلى هذا استلان ما يستوعره المترفون وأنس مما يستوحش منه الجاهلون ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمان ضعيف وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل الايمان وانفساحه وطمأنينة القلب لأمر الله والإنابة إلى ذكر الله ومحبته والفرح بلقائه والتجافى عن دار الغرور كما فى الأثر المشهور إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما علامة ذلك قال التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وهذه هى الحال التى كانت تحصل للصحابة عند النبى ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار كما فى الترمذى وغيره من حديث الجريرى عن أبى عثمان النهدى عن حنظلة الأسدى . وكان من كتاب النبى ﷺ أنه مر بأبى بكر رضى الله عنه وهو يبكى فقال مالك يا حنظلة فقال نافق حنظلة يا أبا بكر نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأنا رأى عين فاذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة نسينا كثيرا قال فوالله إنا لكذلك انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا فلما رآه رسول الله ﷺ قال مالك يا حنظلة قال نافق حنظلة يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنا

رأى عين فاذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . قال فقال رسول الله ﷺ لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم وعلى فرشكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ساعة وساعة . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفى الترمذى أيضاً نحوه من حديث أبى هريرة . والمقصود أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة الايمان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخالص والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والمحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوبه ولا يستوحش فيها . وقوله صحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى وفى رواية بالمحل الأعلى الروح فى هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا فى وطنها وهى جوهر علوى مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف فهى دائما تطلب وطنها فى المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها وكل روح ففيها ذلك ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخلدت إلى الأرض ونسيت معلمها ووطنها الذى لا راحة لها فى غيره فانه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقا فلهذا تجد المؤمن بدنه فى الدنيا وروحه فى المحل الأعلى . وفى الحديث المرفوع إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول انظروا إلى عبدى بدنه فى الأرض وروحه عندى رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول بعض السلف القلوب جوالة فقلب حول الحشر وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش فأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيسها فى أعماق البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له وهيئت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب فإذا صحت من سكرها وأفاقت من غمرتها أقبلت عليها جيوش الحسرات من كل جانب فحينئذ تتقطع حسرات على مافاتها من كرامة الله وقربه والأنس به والوصول الى وطنها الذى لا راحة لها الا فيه كما قيل :

صحبتك اذ عينى عليها غشاوة   فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تطمئن الا فى وطنها ومحلها الذى خلقت له كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبدا لأول منزل

واذا كانت الروح تحن أبدا إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى وكثيرا مايكون غير وطنها أحسن وأطيب منه وهى دائما تحن اليه مع أنه لاضرر عليها ولا عذاب فى مفارقته الى مثله فكيف بحنينها الى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى فالعبد

المؤمن فى هذه الدار سبى من الجنة إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه إلى داره التى سبى منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه فى الدنيا . ولى من أبيات فى ذلك :

وحى على جنات عن فانها   منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبى العدو فهل ترى   نعود إلى أوطاننا ونسلم

وكلما أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطنا غيره أبت ذلك روحه وقلبه كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً فى هذه الدار أين حل منها فهو فى دار غربة . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كن فى الدنيا كانك غريب أو عابر سبيل ولكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه ومنزله وإنما الغربة التى لا يرجى انقطاعها فهى غربة فى دار الهوان ومفارقة وطنه الذى كان قد هيء وأعد له وأمر بالتجهيز إليه والقدوم عليه فابى إلا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة لا يرجى ايابها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى انكار كون البدن فى الدنيا والروح فى الملأ الأعلى فللروح شأن والبدن شأن والنبى صلى الله عليه وسلم كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه يطعمه ويسقيه فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش فان كان طاهرا أذن لها بالسجود وإن لم يكن طاهرا لم يؤذن لها بالسجود فهذه والله أعلم هى العلة التى أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود انما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم فاذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه فى موضع آخر عند محبوبه وفى هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف . وقوله أولئك خلفاء الله فى أرضه ودعاته إلى دينه هذا حجة أحد القولين فى أنه يجوز أن يقال فلان خليفة الله فى أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى للملائكة (انى جاعل فى الأرض خليفة) . واحتجوا بقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف فى الأرض) وهذا خطاب لنوع الانسان وبقوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) وبقول موسى لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) . وبقول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ممكن لكم فى الأرض ومستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . واحتجوا بقول الراعى يخاطب أبا بكر رضى الله عنه :

خليفة الرحمن انا معشر   حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله فى أموالنا   حق الزكاة منزلا تنزيلا

ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لأحد أنه خليفة الله فان الخليفة انما يكون عمن يغيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راء وسامع فمحال أن يخلفه غيره بل هو سبحانه الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث الدجال أن يخرج و أنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مؤمن والحديث فى الصحيح . وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سافر اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل والحضر الحديث . وفى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اللهم اغفر لابى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى أهله فالله تعالى هو خليفة العبد لأن العبد يموت فيحتاج الى من يخلفه فى أهله . قالوا ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . قالوا وأما قوله تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) فلا خلاف ان المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله فى الارض . قيل عن الجن الذين كانوا سكانها . وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة فى التفاسير . وأما قوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الارض) فليس المراد به خلائف عن الله وانما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضا فكلما هلك قرن خلفه قرن الى آخر الدهر . ثم قيل ان هذا خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أى جعلكم خلائف من الامم الماضية فهلكوا وورثتم أنتم الارض من بعدهم . ولا ريب ان هذا الخطاب للامة والمراد نوع الانسان الذى جعل الله أباهم خليفة عمن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا الى قيام الساعة ولهذا جعل هذا آية من آياته كقوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض) وأما قول موسى لقومه(ويستخلفكم فى الارض) فليس ذلك استخلافا عنه وانما هو استخلاف عن فرعون وقومه أهلكهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا قول النبى صلى الله عليه وسلم ان الله مستخلفكم فى الارض أى من الامم التى تهلك وتكونون أنتم خلفاء من بعدهم . قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق لا يدرى أبلغت أبا بكر أم لا ولو بلغته فلا يعلم انه أقره على هذه اللفظة أم لا . قلت ان أريد بالاضافة الى الله أنه خليفة عنه فالصواب قول الطائفة المانعة منها وإن أريد بالاضافة أن الله استخلفه عن غيره ممن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الاضافة وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره وبهذا يخرج الجواب عن قول أمير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه . فان قيل هذا لا مدح فيه لان هذا

الاستخلاف عام فى الامة وخلافة الله التى ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق . فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الاضافة فالاضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف اليه عباده . كقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له فخلفاء الأرض كالعباد فى قوله (والله بصير بالعباد . وما الله يريد ظلما للعباد) وخلفاء الله فى قوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) ونظائره وحقيقة اللفظة أن الخليفة هو الذى يخلف الذاهب أى يجىء بعده يقال خلف فلان فلانا وأصلها خليف بغير هاء لأنها فعيل بمعنى فاعل كالعليم والقدير فدخلت التاء للمبالغة فى الوصف كراوية وعلامة . ولهذا جمع جمع فعيل فقيل خلفاء كشريف وشرفاء وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلائف كعقيلة وعقائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة . والصواب أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم فان الكلمة صفة فى الأصل ثم أجريت مجرى الاسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نطيحة بالتاء فاذا أجروها صفة قالوا شاة نطيح كما يقولون كف خضيب وإلا فلا معنى للمبالغة فى خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم . وقوله ودعاته إلى دينه الدعاة جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماة وإضافتهم إلى الله للاختصاص أى الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً ، يدل على ذلك (الوجه الثلاثون بعد المائة) وهو قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) . قال الحسن هو المؤمن أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً فى إجابته فهذا حبيب الله هذا ولى الله فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد . قال تعالى (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) . وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكى الذى لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة . والقابل الذى عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهى الأمر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة . والمعاند الجاحد يجادل بالتى هى أحسن هذا هو الصحيح فى معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهى دعوة الخواص . والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة العوام . والمجادلة بالتى هى أحسن القياس الجدلى وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلى مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبنى على أصول

الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.
وقال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) . قال الفراء وجماعة
ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني ومن اتبعني يدعو الى الله كما أدعو وهذا قول
الكلبي قال حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى مادعا اليه ويذكر بالقرآن والموعظة ويقوى
هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الانباري ويجوز أن يتم الكلام عند قوله إلى الله
ثم يبتدىء بقوله على بصيرة أنا ومن اتبعني فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولاهما
أنه يدعو إلى الله وفي الثانية بانه من اتباعه على بصيرة والقولان متلازمان فلا يكون الرجل
من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى مادعا اليه وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة
وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لاتحصل إلا بالعلم
الذي يدعو به واليه بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا
في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء . (الوجه الحادي
والثلاثون بعد المائة) . أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذي هو أعظم
حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا مدح الله سبحانه أهله في
كتابه وأثنى عليهم بقوله (وبالآخرة هم يوقنون) وقوله تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم
يوقنون) . وقوله في حق خليله إبراهيم (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض
وليكون من الموقنين) وذم من لا يقين عنده فقال (إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) . وفي الحديث
المرفوع من حديث سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن خيثمة عن عبد الله بن مسعود يرفعه
لا ترضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضله ولا تذمن أحداً على مالم يؤتك الله
فان رزق الله لايسوقه حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وأن الله بعدله وقسطه
جعل الروح والراحة والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط فاذا
باشر القلب اليقين امتلأ نورا وانتفى عنه كل ريب وشك وعوفي من أمراضه القاتلة
وامتلأ شكرا لله وذكرا له ومحبة وخوفا فحيي عن بينة واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان
وعليهما ينبني وبهما قوامه وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما
يكون ضعف الأعمال وبقوتهما قوتها وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتتح
بهما وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجنيد اليقين
هو استقرار العلم الذي لاينقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب . وقال سهل حرام على
قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله وقيل من علاماته الالتفات إلى الله في كل
نازلة والرجوع اليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال وارادة وجهه بكل حركة وسكون

وقال السرى اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضيا. قلت هذا إذا لم تكن الحركة مأموراً بها فإذا كانت مأمورا بها فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع . وقيل إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل العلم يستعملك واليقين يحملك فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين . قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال ابن مسعود هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم فلهذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه قال فى الصحاح اليقين العلم ، زوال الشك يقال منه يقنت الأمر يقنا واستيقنت وأيقنت وتيقنت كله بمعنى واحد وأنا على يقين منه وانما صارت الياء واوا فى موقن للضمة قبلها واذا صغرتها رددته الى الأصل فقلت مييقن وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين قال :

تحسب هواس وأيقن أنني بها مفتد من واحد لا أغامره

يقول تشمم الأسد ناقتى يظن أننى أفتدى بها منه واستحمى نفسى فأتركها له ولا اقتحم المهالك لمقاتلته . قلت هذا موضع اختلف فيه أهل اللغة والتفسير هل يستعمل اليقين فى موضع الظن والظن فى موضع اليقين فرأى ذلك طائفة منهم الجوهرى وغيره واحتجوا بسوى ما ذكر بقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) ولو شكوا فى ذلك لم يكونوا موقنين فضلا عن أن يمدحوا بهذا المدح وبقوله (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . وبقوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بألفى مقاتل سراتهم فى الفارسى المسرد

أى استيقنوا بهذا العدد وأبى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين إلا للعلم وأما الظن فمنهم من وافق على أنه يكون الظن فى موضع اليقين وأجابوا عما احتج به من جوز ذلك بأن قالوا هذه المواضع التى زعمتم أن الظن وقع فيها موقع اليقين كلها على بابها فإنا لم نجد ذلك إلا فى علم بمغيب ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشىء أظنه ولمن ذاقه أظنه وانما يقال لغائب قد عرف بالسمع والعلم فاذا صار إلى المشاهدة امتنع إلى اطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أوقع على العلم بالغائب الظن لفقد الحال التى تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا أخرجت سائر الأدلة التى ذكرتموها ولا يرد على هذا قوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) لأن الظن انما وقع على مواقعتها وهى غيب حال الرؤية فاذا واقعوها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا وأما قول الشاعر : وأيقن أنى بها مفتد . فعلى بابه لأنه ظن أن الأسد لتيقنه شجاعته

وجراءته موقن بأن الرجل يدع له ناقته يقتدى بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن أحق بالشك من ابراهيم وفيه أجوبة لكن بين العيان والخبر رتبة طلب ابراهيم زوالها بقوله ولكن ليطمئن قلبى فعبر عن تلك الرتبة بالشك والله أعلم . (الوجه الثانى والثلاثون بعد المائة) ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبى ﷺ قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وإن كان فى سنده حفص بن سليمان وقد ضعف فمعناه صحيح فان الايمان فرض على كل واحد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الايمان إلا بالعلم والعمل . ثم شرائع الاسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل تمكن عبادة الله التى هى حقه على العباد كلهم إلا بالعلم وهل ينال العلم إلا بطلبه ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو أنواع النوع الأول علم أصول الايمان الخمسة الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فان من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل فى باب الايمان ولا يستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وقال (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها . النوع الثانى علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها . النوع الثالث علم المحرمات الخمسة التى اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية وهى المذكورة فى قوله تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) فهذه محرمات على كل واحد فى كل حال على لسان كل رسول لاتباح قط ولهذا أتى فيها بانما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم فى وقت مباح فى غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق . النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التى تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب فى هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأنواع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لايبيع ولا يشترى إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحد لاختلاف الناس فى أسباب العلم الواجب وذلك يرجع

إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب فى الاعتقاد مطابقته للحق فى نفسه والواجب فى العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة والواجب فى الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك فى طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل فى هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحا فان كل أحد يدخل فى ذلك ما يظنه فرضا فيدخل بعض الناس فى ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالفلاحة والحياكة والحدادة والخياطة ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناه على عدم صحة إيمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله فياسبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيبا حجاما حاسبا مهندسا أو حائكا أو فلاحا أو نجارا أو خياطا فإن فرض الكفاية كفرض العين فى تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه فى سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسبا حائكا خياطا نجارا فلاحا طبيبا مهندسا فان قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحا لأن فرض الكفاية يجب على العموم . وأما المنطق فلو كان علما صحيحا كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ فى فكره ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجبا من فساد أصوله وقواعده ومباينتها لصريح المعقول وتضمنها لدعاو محضة غير مدلول عليها وتفريقه بين متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بضد ذلك الحكم أو يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به قال إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيء من ذلك فأفكر فيه ثم قال هذا علم قد صقلته الأذهان ومرت عليه من عهد القرون الأوائل أو كما قال فينبغى أن نتسلمه من أهله وكان هذا من أفضل ما رأيت فى المنطق. قال إلى أن وقفت على رد متكلمى الإسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه فوقفت على مصنف لأبى سعيد السيرافى النحوى فى ذلك وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم كالقاضى أبى بكر بن الطيب والقاضى عبد الجبار والجبائى وابنه وأبى المعالى وأبى القاسم الأنصارى

وخلق لايحصون كثرة ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال ومخالفتها ما كان يتقدح لى كثير منه ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام قدس الله روحه فانه أتى فى كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجاب وكشف أسرارهم وهتك استارهم فقلت فى ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمبانى على شفا هار بناه البانى
أحوج ما كان إليه العانى يخونه فى السر والإعلان
يمشى به اللسان فى الميدان مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتوانى كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظمىء الحيرانى فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمآن فلم يجد ثم سوى الحرمان
فعاد بالخيبة والخسران يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر فى الأمانى وعاين الخفة فى الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلا أولى منه بأن يكون علماً تعلمه فرض كفاية أو فرض عين وهذا الشافعى وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولا من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده . ومن الناس من يقول أن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعانى والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول تعلم أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذى يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد ولا فى كل وقت وإنما يجيب وجوب الوسائل فى بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف الفرض الذى يعم وجوبه كل أحد وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب مالا يتم الواجب إلا به ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه دون المسائل التى هى فضلة لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها فلا

يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها وكذلك أصول الفقه القدر الذى يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التى هى فضلة فكيف يقال أن تعلمها واجب وبالجملة فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شىء منها كان ذلك الشىء واجباً وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان فليس لذلك حد مقدر والله أعلم ﴿ الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة ﴾ ما رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة يرفعه إلى النبى ﷺ قال سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يحبها قال يارب أى عبادك أتقى قال الذى يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذى يتبع الهدى قال فأى عبادك أحكم قال الذى يحكم للناس ما يحكم لنفسه قال أى عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه قال فأى عبادك أعز قال الذى إذا قدر عفا قال فأى عبادك أغنى قال الذى يرضى بما أوتى قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص فأخبر فى هذا الحديث أن أعلم عباده الذى لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهمته فى العلم وحرصه عليه ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله وهذا هو الذى حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله فى زمانه وأعلم الخلق فحمله حرصه ونهمته فى العلم على الرحلة إلى العالم الذى وصف له فلولا أن العلم أشرف ما بذلت فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصدده من أمر الأمة وعن مقاساة النصب والتعب فى رحلته وتلطفه للخضر فى قوله ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ فلم ير اتباعه حتى استأذنه فى ذلك وأخبره أنه جاء متعلما مستفيداً فهذا النبى الكريم كان عالما بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه (الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفته ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه فكمال العبد الذى لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ولهذا جعل اتباع رسوله دليلا على محبته . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية فى غير مرضاته وإذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب

مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده وهو دائمـــا بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائما فى نومه ويقظته . قال بعض العلماء الاكياس عاداتهم عبادات الحمق والحمقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حبذا نوم الاكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم فالمحب الصادق ان نطق نطق لله و بالله وان سكت سكت لله وان تحرك فبأمر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضات الله فهو لله و بالله ومع الله ومعلوم ان صاحب هذا المقام أحوج خلق الله الى العلم فانه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولانه فى نفسه صفة كمال بل حاجته اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة . قال ذو النون وقد سئل من السفلة فقال من لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ولا يتعرفه وقال أبو يزيد لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة . وقال أبو حمزة البزاز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله . وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد ذهاب الإسلام على يدى أربعة أصناف من الناس صنف لا يعملون بما يعلمون وصنف يعملون بما لا يعلمون وصنف لا يعملون ولا يعلمون وصنف يمنعون الناس من التعلم قلت . الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضر شىء على العامة فانه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة . والصنف الثانى العابد الجاهل فان الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحـــه فيقتدون به على جهله وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون فان الناس إنما يقتـــدون بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة . والصنف الرابع نواب إبليس فى الأرض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهلكة وما يلقى العالم الداعى إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته إنه بعباده خبير بصير ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم فعاد الخير بحذافيره إلى العلم وموجبه والشر

بحذافيره إلى الجهل وموجبه (الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة . قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وقد قيل ان هؤلاء القوم هم الأنبياء وقيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار أو قوم من أبناء فارس وقال آخرون هم الملائكة . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم فى الآيات قبل هذه الآية . قال وذلك ان الخبر فى الآيات قبلها عنهم مضى وفى التى بعدها عنهم ذكر فما يليها بان يكون خبراً عنهم أولى وأحق بان يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها . قلت السورة مكية والإشارة بقوله هؤلاء إلى من كفر به من قومه أصلا ومن عداهم تبعاً فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلا والمؤمنون بهم تبعاً فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة اليها ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلا وللمؤمنين بهم تبعاً وأحق من دخل فيها من اتباع الرسول خلفاؤه فى أمته وورثته فهم الموكلون بها وهذا ينظم فى الأقوال التى قيلت فى الآية . وأما قول من قال أنهم الملائكة فضعيف جداً لا يدل عليه السياق وتأباه لفظة قوما إذ الغالب فى القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببنى آدم دون الملائكة . وأما قول إبراهيم لهم قوم منكرون فإنما قاله لما ظنهم من الإنس وأيضاً فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك وقيل فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئا فإن لها أهلا ومستحقا سواهم فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى

قبولها وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإنكم وإن تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير كما قال تعالى . (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وإذا كان الملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره فنظر إليهم وقال إن يكفر هؤلاء نعمى ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى فإن لى عبيدا سواهم وهم أنتم تطيعون أمرى وتحفظون عهدى وتودون حقى فإن عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم وهذا أمر يشهد به الحس والعيان . وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه وبها الأولى متعلقة بوكلنا وبها الثانية متعلقة بكافرين والباء فى بكافرين لتأكيد النفى . فإن قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولى الله . قلت لا يلزم من اطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من اطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة الله لقوله (ويستخلفكم فى الأرض) . وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم أنه خليفة الله لأنه استخلاف مقيد ولما قيل للصديق يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبي ذلك ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى (فقد وكلنا بها قوما) والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهاداً لاعدائها وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه . ولهذا قال بعض السلف (فقد وكلنا بها قوما) يقول رزقناها قوما فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها أنه وكيل لله وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالاة فانها المحبة والقرب فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال وليه والله تعالى يوالى عبده إحسانا إليه وجبراً له ورحمة بخلاف المخلوق فانه يوالى المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته لذل العبد وحاجته وأما العزيز الغنى فلا يوالى أحداً من ذل ولا حاجة . قال تعالى (وقل الحمد لله الذى

لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً) فلم ينف الولى نفيا عاما مطلقا بل نفى أن يكون له ولى من الذل وأثبت فى موضع آخر أن له أولياء بقوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الله ولى الذين آمنوا) فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذل . يوضح هذا (الوجه السادس والثلاثون بعد المائة) وهو ما روى عن النبى ﷺ من وجوه متعددة أنه قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فهذا الحمل المشار إليه فى هذا الحديث هو التوكل المذكور فى الآية فأخبر ﷺ أن العلم الذى جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا يتضمن تعديله صلى الله عليه وسلم لحملة العلم الذى بعث به وهو المشار إليه فى قوله هذا العلم فكل من حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلا ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته وحملته اشتهارا لا يقبل شكا ولا امتراء ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح فالأئمة الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوى وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ ولهذا لا يقبل قدح بعضهم فى بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين فى الدين فانهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ولكن قد يغلط فى مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل من لا ذنب له وليس كذلك بل هو عدل مؤتمن على الدين وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه فان هذا لا ينافى العدالة كما لا ينافى الإيمان والولاية .

فصل

وهذا الحديث له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدى عن موسى بن اسمعيل بن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده جعفر بن محمد عن أبيه عن على عن النبى ﷺ . ومنها ما رواه العوام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبى ﷺ ذكره الخطيب وغيره . ومنها ما رواه ابن عدى من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن سالم عن ابن عمر عن النبى ﷺ . ومنها ما رواه محمد بن جرير الطبرى من حديث ابن أبى كريمة عن معاذ ابن رفاعة السلامى عن أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ . ومنها ما رواه حماد بن يزيد عن بقية بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال قال رسول الله ﷺ . قال الدارقطنى حدثنا أحمد بن الحسن بن زيد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا مثنى ابن بكر ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقولون حدثنا معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن

عن النبي ﷺ يعني أن المحفوظ من هذا الطريق مرسل لأن إبراهيم هذا لا صحبة له . وقال الخلال في كتاب العلل قرأت على زهير بن صالح بن أحمد حدثنا مهنا قال سألت أحمـــد عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذرى قال قال رسول الله ﷺ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين. فقلت لأحمد كأنه موضوع قال لا هو صحيح فقلت ممن سمعته أنت فقال من غير واحد قلت من هم قال حدثني به مسكين إلا أنه يقول عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد ومعاذ بن رفاعة لا بأس به . ومنها ما رواه أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال سمعت النبي ﷺ يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله . ومنها ما رواه أبو أحمد بن عدى من حديث زريق بن عبد الله الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ رواه عنه بقية . ومنها ما رواه بن عدي أيضاً من طريق مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ. ومنها ما رواه تمام في فوائده من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رواه عنه خالد بن عمرو . ومنها ما رواه القاضي اسماعيل من حديث على بن مسلم البلوى عن أبي صالح الأشعرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (الوجه السابع والثلاثون بعد المائة) إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم قال الأوزاعي قال ابن شهاب الزهري الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعا فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله (الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة) أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة مالا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر من استخلفت على أهل الوادي قال استخلفت عليهم ابن ابزى فقال من ابن أبزى؟ فقال رجل من موالينا فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر أما أن نبيكم ﷺ قد قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين قال أبو العالية كنت آتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتغامز بي قريش ففطن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة.

وقال إبراهيم الحربى كان عطاء ابن أبى رباح عبدا أسود لامرأة من مكة وكان أنفه كأنه باقلاة قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلى فلما صلى انفتل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم ثم قال سليمان لابنيه قوما فقاما فقال يا بنى لا تنيا فى طلب العلم فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود قال الحربى وكان محمد بن عبد الرحمن إلا وقص عنقه داخل فى بدنه وكان منكباه خارجين كأنهما زجان فقالت أمه يا بنى لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فانه يرفعك فولى قضاء مكة عشرين سنة قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت به امرأة وهو يقول اللهم اعتق رقبتى من النار فقالت له يا ابن أخى وأى رقبة لك وقال يحيى ابن أكثم قال الرشيدى ما أنبل المراتب قلت ما أنت فيه يا أمير المؤمنين قال فتعرف أجل منى قلت لا قال لكنى أعرفه رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ قال قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ وولى عهد المؤمنين قال نعم ويلك هذا خير منى لان اسمه مقترن باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبدا ونحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقى الدهر وقال خيثمة بن سليمان سمعت أبى الخناجر يقول كنا فى مجلس ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه فمر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف فالتفت إلى أصحابه وقال هذا الملك وفى تاريخ بغداد للخطيب حدثنى أبو النجيب عبد الغفار ابن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن على المقرى يقول سمعت أبا الحسن بن فارس يقول سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألذ من الرياسة والوزارة التى أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان ابن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبى بكر الجعابى بحضرتى فكان الطبرانى يغلب بكثرة حفظه وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وزكا أهل بغداد حتى ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابى عندى حديث ليس فى الدنيا إلا عندى فقال هاته فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال الطبرانى أنبأنا سليمان بن أيوب ومنى سمع أبو خليفة فاسمع منى حتى يعلو اسنادك فإنك تروى عن أبى خليفة عنى فخجل الجعابى وغلبه الطبرانى قال ابن العميد فوددت فى مكانى أن الوزارة والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل الحديث أو كما قال وقال المزنى سمعت الشافعى يقول من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن نظر فى الفقه نبل مقداره ومن تعلم اللغة رق طبعه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه وقد روى هذا الكلام عن الشافعى من وجوه متعددة وقال سفيان الثورى من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم وقال عبد

الله بن داود سمعت سفيان الثوري يقول ان هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها وقال النضر بن شميل من أراد أن يشرف فى الدنيا والآخرة فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به فى دين الله ويكون بين الله وبين عباده وقال حمزة بن سعيد المصرى لما حدث أبو مسلم اللخمى أول يوم حدث قال لابنه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا قال ثلاثمائة دينار قال فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكراً ان أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته وفى كتاب الجليس والأنيس لأبى الفرج المعافى بن زكرياء الجريرى حدثنا محمد بن الحسين بن دريد حدثنا أبو حاتم عن العتبى عن أبيه قال ابتنى معاوية بالابطح مجلسا فجلس عليه ومعه ابنه قرظة فاذا هو بجماعة على رحال لهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلنى يساجل ماجدا   يملأ الدلو الى عقد الكرب

قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم إذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكرننى أبصرننى   عند قيد الميل يسعى بى الأغر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم   قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال من هذا قالوا عمر بن أبى ربيعة قال خلوا له الطريق فليذهب قال ثم اذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يسئل فيقال له رميت قبل أن أحلق وحلقت قبل أن أرمى فى أشياء أشكلت عليهم من مناسك الحج فقال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت إلى ابنه قرظة وقال هذا وأبيك الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة . وقال سفيان بن عيينة أرفع الناس منزلة عند الله من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء وقال سهل التسترى من أراد أن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء يجيء الرجل فيقول يافلان ايش تقول فى رجل حلف على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول ليس يحنث بهذا القول وليس هذا إلا لنبى أو عالم فاعرفوا لهم ذلك (الوجه التاسع والثلاثون بعد المائة) ان النفوس الجاهلة التى لا علم عندها قد ألبست ثوب الذل والازراء عليها والتنقص بها أسرع منه إلى غيرها وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام قال الأعمش انى لأرى الشيخ لا يروى شيئاً من الحديث فاشتهى أن ألطمه وقال معاوية سمعت الأعمش يقول من لم يطلب الحديث أشتهى أن أصفعه بنعلى وقال هشام بن على سمعت الأعمش يقول إذا رأيت الشيخ لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال أبو صالح قلت لأبى جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون فى ليالى القمر يتذاكرون أيام الناس ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة وقال المزنى كان الشافعى إذا رأى شيخاً سأله عن الحديث والفقه فان كان عنده شيء والا قال له لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الإسلام قد

ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بنى العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه عمه فأذن له وغطى الرقعة فلما جلس قال له ياعم هل قرأت القرآن قال لا قال هل كتبت شيئاً من السنة قال لا قال فهل نظرت فى الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت فى العربية وأيام الناس قال لا قال فقال الخليفة اكشف الرقعة ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحياؤه منه وقال له ملاعبه يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه قال اسكت فما معنا أحد . وهذا لأن الانسان انما تميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهى الحيوانية البهيمية ومثل هذا لا يستحى منه الناس ولا يمنعون بحضرته وشهوده مما يستحيا منه من أولى الفضل والعلم (الوجه الأربعون بعد المائة) ان كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم ان غير بضاعته خير منها زهد فى بضاعته ورغب فى الأخرى وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم فانه ليس يحب أن له بحظه منها حظ أصلا وكان سفيان الثورى إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال لا جزاك الله عن الاسلام خيرا قال أبو جعفر الطحاوى كنت عند أحمد بن أبى عمران فمر بنا رجل من بنى الدنيا فنظرت اليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لى كأنى بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش هو عالما فقيراً فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده فالعلم غنى بلا مال وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفى ذلك قيل :

العلم كنز وذخر لا نفاد له ... نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يحرمه ... عما قليل فيلقى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبداً ... ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
ياجامع العلم نعم الذخر تجمعه ... لا تعدلن به دراً ولا ذهباً

(الوجه الحادى والأربعون بعد المائة) أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزى على الاحسان بالعلم وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء أما المقام الأول فى قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) وهذا يتناول الجزاءين الدنيوى والأخروى وأما المقام الثانى فى قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين) قال الحسن من أحسن عبادة الله فى شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله (ولما بلغ أشده آتيناه

حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) ومن هذا قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمسنى فلم يجدنى فليعمل باحسن مايعلم وليترك أقبح ما يعلم فاذا فعل ذلك فانا معه وإن لم يعرفنى (الوجه الثانى والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالمطر للارض فكما أنه لا حياة للارض إلا بالمطر فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فان الله تعالى يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل المطر ولهذا فإن الأرض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات فاذا تتابع عليها احتاجت إلى انقطاعه وأما العلم فيحتاج اليه بعدد الأنفاس ولا تزيده كثرته إلا صلاحا ونفعا (الوجه الثالث والأربعون بعد المائة) ان كثيرا من الاخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة جاء فى الحديث ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لى ولكن أبتغى بذلك طيب نفسه . وقال أبو اسحاق قال على كلمات لو رحلتم المطى فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن لايرجون عبد إلا ربه ولايخافن إلا ذنبه ولايستحى من لا يعلم أن يتعلم ولا يستحى إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان . ومن كلام بعض العلماء لاينال العلم مستحى ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره وإنما حمدت هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله فاقطعوا سرابيل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله تعالى عنه قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان . وقال ابراهيم لمنصور سل مسألة الحمق واحفظ حفظ الأكياس وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم فانه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل إذا جلست إلى عالم فسل تفقها لا تعنتا . وقال رؤبة بن العجاج أتيت النسابة البكرى فقال من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى وإن تكلمت لم يعوا عنى قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرنى قال بنوعم السوء إن رأوا حسنا ستروه وإن رأوا سيئا أذاعوه ثم قال إن للعلم آفة ونكدا وهجنة فآفته

نسيانه ونكده الكذب فيه وهجنته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابي :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها	قدر وما أبعدها إذا لم تقدر
فسل الفقيه تكن فقيها مثله	من يسع فى علم بذل يمهر
فتدبر العلم الذى تعنى به	لا خير فى علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر	ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم	والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت فى خلف يزين بعضهم	بعضا ليدفع معور عن معور

وللعلم ست مراتب . أولها حسن السؤال . الثانية حسن الانصات والاستماع . الثالثة حسن الفهم . الرابعة الحفظ . الخامسة التعليم . السادسة وهى ثمرته وهى العمل به ومراعاة حدوده فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله إما لأنه لا يسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التى لا يضر جهله بها ويدع مالا غنى له عن معرفته وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يحرمه لسوء انصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الانصات وهذه آفة كامنة فى أكثر النفوس الطالبة للعلم وهى تمنعهم علما كثيرا ولو كان حسن الفهم . ذكر ابن عبدالبر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن الفهم ردىء الاستماع لم يقم خيره بشره وذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب العلل له قال كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس فكان يخزن علمه عنه وكان عبيد الله بن عبدالله بن عتبة يلطف له فى السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جريج لم أستخرج العلم الذى استخرجت من عطاء إلا برفق به . وقال بعض السلف إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول وقد قال الله تعالى (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) فتأمل ماتحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من اهمالها وعدم مراعاتها فانه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب فان من عدم القلب الواعى عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له فاذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فانه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه فان كان غائبا عنه مسافراً فى الأمانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به فاذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمعه ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه . وهاهنا ثلاثة

أمور . أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله . الثانى احضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق . الثالث القاء السمع وإصغاؤه والاقبال على الذكر فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة فى هذه الآية . قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به . قال وقال الشبلى قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين وقوله (أو ألقى السمع وهو شهيد) معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته فى سمعه فذلك القاء له عليها ومنه قوله (وألقيت عليك محبة منى) أى أثبتها عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا مفكر فى غير ما يسمع . قال وقال قتادة هى إشارة إلى أهل الكتاب فكأنه قال ان هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتابه التوراة وسائر كتب بنى اسرائيل قال فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثانى من الشهادة وقال الزجاج معنى من كان له قلب من شرف قلبه إلى التفهم ألا ترى أن قوله صم بكم عمى أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر * أصم عما ساءه سميع * ومعنى أو ألقى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع والعرب تقول ألق إلى سمعك أى استمع منى وهو شهيد أى قلبه فيما يسمع وجاء فى التفسير أنه يعنى به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبى ﷺ فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أشاهد أن صفة النبى ﷺ فى كتابه وهذا هو الذى حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أى مخبر . وقال صاحب الكشاف لمن كان له قلب واع لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له وإلقاء السمع الإصغاء وهو شهيد أى حاضر بفطنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله وهو بعض الشهداء فى قوله لتكونوا شهداء على الناس وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده فلم يختلف فى أن المراد بالقلب القلب الواعى وأن المراد بالقاء السمع إصغاؤه وإقباله على المذكر وتفريغ سمعه له . واختلف فى الشهيد على أربعة أقوال أحدها أنه من المشاهدة وهى الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره . الثانى أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال . أحدها أنه شاهد على صحة ما معه من الإيقان . الثانى أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة الثالث أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة والصواب القول الأول فان قوله ﴿ وهو شهيد ﴾ جملة حالية والواو فيها واو الحال أى ألقى السمع فى هذه الحال وهذا يقتضى أن يكون حال القائه السمع شهيدا

وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد به الشهادة فى الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى إذ يصير الكلام إن فى ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهدا بما معه فى التوراة أو حال كونه شاهدا يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضاً فالآية عامة فى كل من له قلب وألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبى ﷺ . وأيضاً فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع فكيف يقال هى فى أهل الكتاب . فان قيل المختص بهم قوله وهو شهيد فهذا أفسد وأفسد لأن قوله وهو شهيد يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولا ولا دلالة فى اللفظ عليه . وأيضاً فان المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور فانه لا يقتضى مفعولا مشهودا به ليتم الكلام بذكره وحده . وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيما وترديدا بين قسمين أحدهما من كان له قلب والثانى من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه وهذا والله أعلم سر الإتيان بأو دون الواو ولأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان . أحدهما ذو القلب الواعى الزكى الذى يكتفى بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته بل قلبه واع زكى قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لكمال استعداده وصحة فطرته فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه فهو قد أدركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هى حال الصديق الأكبر رضى الله عنه . والنوع الثانى من ليس له هذا الاستعداد والقبول فاذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوّع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها والأولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين . وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتى هى أحسن فان استجابوا وإلا فالمجالدة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) فهؤلاء المدعوون بالكلام وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وأما من فسر الآية

بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه أن لا يزيغ فى فكره وفسر قوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أنها القياس البرهانى والموعظة الحسنة القياس الخطابى وجادلهم بالتى هى أحسن القياس الجدلى فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة والقرآن برىء من ذلك كله منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التى نحن فيها والآية الأخرى فى موضع آخر من وجوه متعددة وبينا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق . والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها ترك السؤال . الثانى سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع . الثالث سوء الفهم . الرابع عدم الحفظ . الخامس عدم نشره وتعليمه فان من خزن علمه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله وهذا أمر يشهد به الحس والوجود . السادس عدم العمل به فان العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فاذا أهمل العمل به نسيه . قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضاً العلم يهتف بالعمل فان أجابه حل وإلا ارتحل فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به إضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وأما قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) فليس من هذا الباب بل هما جملتان مستقلتان طلبية وهى الأمر بالتقوى وخبرية وهى قوله تعالى ويعلمكم الله أى والله يعلمكم ما تتقون وليست جوابا للأمر بالتقوى ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله يعلمكم أو إن تتقوه يعلمكم كما قال (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) فتدبره . (الوجه الرابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه نفى التسوية بين العالم وغيره كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب وبين الأعمى والبصير وبين النور والظلمة وبين الظل والحرور وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبين الأبكم العاجز الذى لا يقدر على شىء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المتقين

والفجار فهذه عشرة مواضع فى القرآن نفى فيها التسوية بين هؤلاء الأصناف وهـذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة كل واحد من هذه الأصناف مع مقابله وهذا كاف فى شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الأصناف كلها ووجدت نفى التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه فيه وقع التفضيل وانتفت المساواة . (الوجه الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه فى خطابه له بقوله أحطت بما لم تحط بهخبراً وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها فقال أحد تلامذته أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهم به فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت فى العلم ما بلغت ولست أنا أجهل من الهدهد وقد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به فلم يعتب عليه ولم يعنفه (الوجه السادس والأربعون بعد المائة) إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فانما ناله بالعلم وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التى تلقاها من ربه وما حصل ليوسف من التمكين فى الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ثم علمه بوجوه استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التى توصل إليها بالعلم كما أشار إليها سبحانه فى قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ جاء فى تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته بالعلم وقال فى ابراهيم ﷺ (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه رفعة بعلم الحجة والأولى رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلطفه معه فى السؤال حتى قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته ، ولذلك قال (يأيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين) وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ما رفعه الله

به إليه وفضله وكرمه وكذلك ماحصل لسيد ولد آدم من العلم الذى ذكره الله به نعمة عليه فقال وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (الوجه السابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه أثنى على ابراهيم خليله بقوله تعالى وإن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه) فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذى يؤتم به، قال ابن مسعود والأمة المعلم للخير وهى فعلة من الائتمام كقدوة وهو الذى يقتدى به والفرق بين الأمة والإمام من وجهين أحدهما أن الإمام كل مايؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أولا ومنه سمى الطريق إماما كقوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثانى أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقى فيها فردا وحده فهو الجامع لخصال تفرقت فى غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها فى غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فان الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة ومنه الحديث إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التى هى آحاد الأمم لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو فى عصر واحد. الثانى قوله قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة. الثالث قوله حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة. الرابع قوله شاكرا لانعمه والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان الاقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرفها فى مرضاته والعمل فيها بما يحب فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله باربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. (الوجه الثامن والأربعون بعد المائة) قوله سبحانه عن المسيح أنه قال (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت) قال سفيان بن عيينة جعلنى مباركا أينما كنت قال معلما للخير وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التى جعلها الله فيه فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا فى الحقيقة ليس إلا فى العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ولهذا سمى سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك) ووصف رسوله بأنه مبارك كما فى قول المسيح (وجعلنى مباركا أينما كنت فبركة كتابه ورسوله هى سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله. (الوجه التاسع والأربعون

بعد المائة) ما فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم فى الصحيح وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به فكأنه حى لم ينقطع عمله مع ماله من حياة الذكر والثناء فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية وخص النبى ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى الميت لأنه سبب لحصولها والعبد إذا باشر السبب الذى يتعلق به الأمر والنهى يترتب عليه مسببه وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب فى حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسببه فيه فالعبد انما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه وقد ذكر تعالى هذين الأصلين فى كتابه فى سورة براءة فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم وإنما المقدور لهم أسبابها التى باشروها ثم قال (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فالنفقة وقطع الوادى أفعال مقدورة لهم وقال فى القسم الأول كتب لهم به عمل صالح إلا أن المتولد حاصل عن شيئين أفعالهم وغيرها فليست أفعالهم سببا مستقلا فى حصول المتولد بل هى جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم وأيضاً فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الأفعال المقدورة نفسها كالإنفاق وقطع الوادى فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بإرادتهم وقدرتهم فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق ﴿ الوجه الخمسون بعد المائة ﴾ ماذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم إنى لم أجعل علمى فيكم إلا لخير أردته بكم قال ابن عبد البر وزاد غيره فى هذا الخبر أن الله يحبس العلماء يوم القيامة فى زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يامعشر العلماء إنى لم أضع حكمتى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم قد علمت أنكم تخلطون من المعاصى ما يخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وإنما كنت أعبد بفتياكم وتعليمكم عبادى ادخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى قال وروى نحو هذا

المعنى إسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرمانى فى مسائله نحوه مرفوعا وقال إبراهيم بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة وسيئاته فى الكفة الأخرى فتشيل حسناته فإذا يئس فظن أنها النار جاء شىء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته قال فيقال له أتعرف هذا من عملك فيقول لا فيقال هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك ﴿فان قيل﴾ فقواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم فان حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبى بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فارتعها فى مراتع الهلكات وتجرأ على انتهاك الحرمات واستخف بالتبعات والسيئات أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس فى مرتبته وعلى هذا جاء قوله تعالى (يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينه يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذى أثبته أبو نعيم وغيره عن النبى ﷺ أنه قال أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . قال بعض السلف يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب وقال بعضهم أيضا إن الله يعافى الجهال ما لا يعافى للعلماء (فالجواب إن هذا الذى ذكرتموه) حق لا ريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له فى الإسلام تأثير ظاهر فانه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه لا يحمل أدنى خبث ومن هذا قول النبى ﷺ لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من ترتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة فى جنب ماله من الحسنات ولما حض النبى صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأخرج عثمان رضى الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ما ضر عثمان ما عمل بعدها وقال لطلحة لما تطأطأ للنبى ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة أوجب طلحة وهذا موسى كليم الرحمن عز وجل ألقى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه له ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها وعاتب ربه ليلة الأسرى فى النبى ﷺ وقال شاب بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى وأخذ بلحية

هارون وجره إليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدرة شيئا عند ربه وربه تعالى يكرمه ويحبه فان الأمر الذى قام به موسى والعدو الذى برز له والصبر الذى صبره والأذى الذى أوذيه فى الله أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور ولا تغير فى وجهه ولا تخفض منزلته وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر فى فطرهم إن من له ألوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها حتى أنه ليختلج داعى عقوبته على إساءته وداعى شكره على إحسانه فيغلب داعى الشكر لداعى العقوبة كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر:

فان يكن الفعل الذى ساء واحداً فافعاله اللاتى سررن كثير

(والله سبحانه) يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعى طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة مالا يفعله مع غيرهم * وأيضا فان العالم إذا زل فانه يحسن اسراع الفيئة وتدارك الفارط ومداواة الجرح فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه فان زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل * وأيضاً فان معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه وازرائه على نفسه بارتكابه وايمانه بأن الله حرمه وان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره فانه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب فى هذا الموضع وبه يتبين أن الأمرين حق وانه لا منافاة بينهما وان كل واحد من العالم والجاهل انما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها ويزيل أثرها فعاد القبح فى الموضعين إلى الجهل وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق .

(الوجه الحادى والخمسون بعد المائة) ان العالم مشتغل بالعلم والتعليم لا يزال فى عبادة فنفس تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود لا يزال الفقيه يصلى قالوا وكيف يصلى قال ذكر الله على قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفى حديث معاذ مرفوعا وموقوفا تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وقد تقدم والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعا لأن تغدو فتتعلم بابا من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة وهذا لا يثبت رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس فحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وانظر فى العلم بين يديه فجمعت كتبى وقمت لاركع فقال لى مالك ما هذا فقلت أقوم إلى الصلاة فقال ان هذا لعجب ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيه النية وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة وقال سفيان الثورى

ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية وقال رجل للمعافى بن عمران أيما أحب الليل أقوم أصلي الليل كله أو أكتب الحديث فقال حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره وقال أيضاً كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة وقال ابن عباس تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وفي مسائل اسحاق بن منصور قلت لأحمد بن حنبل قوله تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها أى علم أراد قال هو العلم الذى ينتفع به الناس فى أمر دينهم قلت فى الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم قال اسحاق وقال لى اسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد وقال أبو هريرة لأن أجلس ساعة فاتفقه فى دينى أحب الى من احياء ليلة إلى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث أبى هريرة يرفعه لكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه وما عبد الله بشيء أفضل من فقه فى الدين الحديث وقد تقدم وقال محمد بن على الباقر عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد وقال أيضا رواية الحديث وبثه فى الناس أفضل من عبادة ألف عابد ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الاخلاص والتوكل والمحبة والانابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فان قيل فالعلم انما هو وسيلة إلى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة فكيف تفضل الوسائل على غايتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه ما يكون وسيلة ومنه ما يكون غاية فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها فان العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالعلم بوحدانيته تعالى وانه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وان كان لا يكتفى به وحده بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان لانفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته وأيضا فان العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة (وقولكم) أن العمل غاية أما أن تريدوا به العمل الذى يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط فان أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وأن أريد به الثانى وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان أعمال القلوب مقصودة

ومرادة لذاتها بل فى الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فان الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلا وللجوارح تبعا وكذلك الأعمال المقصودة بها أولا صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وان كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فمن أجلها صلاح القلب وزكاه وطهارته واستقامته فعلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة وان العلم كذلك وأيضا فالعلم الذى هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه . وأما العلم المقصود الذى تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه فى خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التى تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله والمسافات التى بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان ومايقويه وما يضعفه فكيف يقال إن مجرد التعبد الظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم بل من قام بالأمرين فهو أكمل وإذا كان فى أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فاذا كان فى العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة فهذا فصل الخطاب فى هذه المسئلة والله أعلم (الوجه الثانى والخمسون بعد المائة) ماروواه الامام أحمد والترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى قال قال رسول الله ﷺ انما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى فى ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول لوأن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فى ماله ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأسوأ المنازل عندالله ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذى والحاكم وغيرهما * فقسم النبى ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام . . خيرهم من أوتى علماً ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . . ويليه فى المرتبة من أوتى علماً ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية وإلا فالمنفق المتصدق فوقه بدرجة الانفاق والصدقة والعالم الذى لامال له إنما ساواه فى الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث من أوتى مالا ولم يؤت علماً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأن ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له فانه أعطى مايتزود به إلى الجنة فجعله زادا له إلى النار . الرابع من لم يؤت مالا

ولاعلماً ومن نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية الله فهذا يلي الغنى الجاهل فى المرتبة ويساويه فى الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول الذى لم يقدر على غيره فقسم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما وقسم الأشقياء قسمين وجعل الجهل ومايترتب عليه سبب شقاوتهما فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته . (الوجه الثالث والخمسون بعد المائة) ماثبت عن بعض السلف أنه قال تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته عن عبادته فقالت كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر وقال الحسن تفكر ساعة خير من قيام ليلة وقال الفضيل التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ٭ ففى كل شىء له عبرة

وقال الحسن فى قوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) قال أمنعهم التفكر فيها وقال بعض العارفين لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ماقدر فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ولم تقر لهم فيها عين وقال الحسن طول الوحدة أتم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ما طالت فكرة أحد قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو فكر الناس فى عظمة الله ماعصوه وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب وقال أبو سليمان الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة وتجلى القلوب وقال ابن عباس التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به وقال الحسن ان أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر والفكر على الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ومن كلام الشافعى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف من الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح . وأيضا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لايوقعه عليه العمل المجرد فان التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتميز مراتبها فى الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ومايقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد امكانها وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول فما قطع

العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذى هو مركبها بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك إذا فكر فى عواقب الأمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فاذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللذة والفرحة ومن فكر فى ذلك فانه لا يكاد يقدم عليه وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة وكذلك إذا فكر فى منتهى ما يستعبده من المال والجاه والصور ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره استحى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك كما قيل :.

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

وكذلك إذا فكر فى آخر الأطعمة المفتخرة التى تفانت عليها نفوس اشباه الأنعام وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلى الإعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذى إليه يتوجه وله يرضى ويغضب ويسعى ويكدح ويوالى ويعادى كما جاء فى المسند عن النبى ﷺ أنه قال إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير أو كما قال ﷺ فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرة أبية ربأ بها أن يجعلها عبداً لما آخره أنتن شيء وأخبثه وأفحشه .

فصـــل

إذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثال ذلك إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علماً ثالثاً وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة ثم له فى معرفة الآخرة حالتان : إحداهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعى العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس وداعى الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع

لم يباشر قلبه اليقين به ولا كالطه حقيقته العلمية فاذا ترك العاجـلة الآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم فلسان الحال ينادى عليه لا أدع ذرة منقودة لدرة موعودة وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وأن يسعى لها سعيها وهى من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له إنه مسموم فانه لا يقدم عليه لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرة على لذة أكله فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ماذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك إذا كان سائراً فى طريق فقيل له إن بها قطاعاً ولصوصا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه فانه لا يسلكها إلا على أحد وجهين إما أن لا يصدق الخبر وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم وإلا فمـع تصديقه للخبر تصديقا لا يتمارى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فانه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً

(الحالة الثانية) أن يتيقن ويجزم جزما لاشك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ومعاداله خلق وإن هذه الدار طريق الى ذلك المعاد ومنزل من منازل السائرين اليه ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل اليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم ثم ينزعها فالذى تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة الى الآخرة فيثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسمى تفكراً وتذكراً ونظرا وتأملا واعتبارا وتدبرا واستبصارا وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء وتتفرق فى آخر ويسمى تفكرا لأنه استعمال الفكرة فى ذلك وإحضاره عنده ويسمى تذكرا لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعـالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) ويسمى نظرا لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمى تأملا لأنه مراجعة للنظر كرة بعد كرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى اعتبارا وهو افتعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة وهى المقصود من الاعتبار ولهـذا يسمى عبرة وهى على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة إيذاناً بأن هذا العلم والمعرفة قدصار حالا لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به وقال الله تعالى (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار). ﴿ويسمى تدبراً﴾ لأنه نظر فى أدبار الأمور وهى أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول وقال

تعالى أفلم يدبروا القول أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً وتدبر الكلام أن ينظر فى أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين ﴿ وسمى استبصارا ﴾ وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ماعلمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ماليس حاصلا عند القلب فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكر والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السلف ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر فانه لا بد من تفكر وعلم يكون نتيجته الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لابد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له إرادة وتلك الإرادة توجب وقوع العمل فهاهنا خمسة أمور الفكر وثمرته العلم وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب وثمرة ذلك الارادة وثمرتها العمل فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فالفكر هو الذى ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافى عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور (وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هى الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الأفكار الردية فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فاذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيم هىء له وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعا وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا فارغاً فتمكنا

﴿ فان قيل ﴾ فقد ذكرتم الفكر ومنفعته وعظم تأثيره فى الخير والشر فما متعلقه الذى

ينبغى أن يوقع عليه ويجرى فيه فانه لايتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذى يقع الفكر فيه والا ففكر بغير متفكر فيه محال (قيل مجرى الفكر) ومتعلقه أربعة أمور (أحدها) غاية محبوبة مرادة الحصول (الثانى) طريق موصلة إلى تلك الغاية (الثالث) مضرة مطلوبة الإعدام مكروهة الحصول (الرابع) الطريق المفضى اليها الموقع عليها فلا تتجاوز أفكار العقلاء هذه الأمور الأربعة وأى فكر تخطاها فهو من الافكار الردية والخيالات والامانى الباطلة كما يتخيل الفقير المعدم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطى وينعم ويحرم وكما يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف فى البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار القلوب الباطولية التى من جنس أفكار السكران والمحشوش والضعيف العقل فالافكارالردية هى قوت الانفس الخسيسة التى هى فى غاية الدناءة فانها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ثم لاتزال هذهالأفكار تقوى بها وتتزايد حتى توجب لها آثارا ردية ووساوس وأمراضاً بطيئة الزوال وإذا كان الفكر النافع لايخرج عن الاقسام الأربعة التى ذكرناها فله أيضاً محلان ومنزلان (أحدهما) هذه الدار والآخر دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة فى هذه الدار فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابح من المغبون وخسر هنالك المبطلون وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها (ونحن نفصل ذلك) بعون الله وفضله فنقول : كل طالب لشيء فهو محب له مؤثر لقربه ساع فى طريق تحصيله متوصل اليه بجهده وهذا يوجب له تعلق أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته التى يحب لأجلها وتعلقها بما يناله به من الخير والفرح والسرور ففكره فى حال محبوبه دائر بين الجمال والاجمال والحسن والاحسان فكلما قويت محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره بل يصير بين الناس بقالبه وقلبه كله فى حضرة محبوبه فان كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق الذى لا تنبغى المحبة إلا له ولا يحب غيره إلا تبعا لمحبته فهو أسعد المحبين به وقد وضع الحب موضعه وتهيأت نفسه لكمالها الذى خلقت له والذى لا كمال لها بدونه بوجه وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التى تفنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع المحبة فى غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها (وإذا عرف هذا عرف) أن تعلق المحبة بغير الاله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه فافكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهى مضرة عليه فى حياته وبعد موته والحب الذى قد ملك المحبوب أفكار قلبه لايخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره فى محبوبه لايخرج عن حالتين

احداهما فكرته فى جماله وأوصافه . والثانية فكرته فى أفعاله واحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وان تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضاً عن حالتين . إما أن يفكر فى أوصافه المسخوطة التى يبغضها محبوبه ويمقته عليها ويُسقطه من عينه فهو دائماً يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها . والثانية أن يفكر فى الصفات والأخلاق والأفعال التى تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوبه له واقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وايثاره على غيره فالمحبة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . فالفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله المعبود سبحانه وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتها وما يمنع من السير فيها اليه فتفكره فى صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور أحدها ان هذا الوصف هل هو مكروه مبغوض لله أم لا الثانى هل العبد متصف به أم لا والثالث إذا كان متصفاً به فما طريق دفعه والعافية منه وان لم يكن متصفاً به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز منه وكذلك الفكرة فى الصفة المحبوبة تستدعى ثلاثة أمور أحدها ان هذه الصفة هل هى محبوبة لله مرضية له أم لا الثانى هل العبد متصف بها أم لا . الثالث أنه إذا كان متصفاً بها فما طريق حفظها ودوامها وإن لم يكن متصفابها فما طريق اجتلابها والتخلق بها ثم فكرته فى الأفعال على هذين الوجهين أيضا سواء ومجارى هذه الأفكار ومواقعها كثيرة جداً لا تكاد تنضبط (وانما يحصرها ستة أجناس) . الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصى الظاهرة والباطنة والصفات والأخلاق الحميدة . والأخلاق والصفات الذميمة (فهذه مجارى) الفكرة فى فى صفات نفسه وأفعالها وأما الفكرة فى صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك والاقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام (ومجارى هذه الفكرة) تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغى له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله فى أوليائه وأعدائه التى قصها على عباده وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على انه الههم الحق المبين الذى لا تنبغى العبادة إلا له ويستدلوا بها على انه على كل شىء قدير وانه بكل شىء عليم وانه شديد العقاب وانه غفور رحيم وانه العزيز الحكيم وانه الفعال لما يريد وانه الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً وان أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شىء منها عن ذلك وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها الا بتدبر كلامه والنظر فى آثار أفعاله (وإلى هذين الأصلين) ندب عباده فى القرآن فقال فى

الأصل الأول (أفلا يتدبرون القرآن . أفلم يدبروا القول . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون) وقال فى الأصل الثانى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون إلى قوله ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) ونوع سبحانه الآيات فى هذه السور فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم فى العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته وجعل خلق الأزواج التى تسكن إليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون فان سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التى صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذى أقرت الفطر بربوبيته وإلاهيته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف فى المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف فى معاشهم فهذه الآية انما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون فان هذه أمور مرئية بالأبصار مشاهدة بالحس فاذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وامكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت له آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فتبارك

الذى جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما فى الصدور. وبالجملة فلا شىء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذى يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التى بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التى بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس ما فى قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها فى شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهى قوله « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فقراءة القرآن بالتفكر هى أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لاتهذوا القرآن هذا الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة وروى أبو أيوب عن أبى جمرة قال قلت لابن عباس إنى سريع القراءة إنى أقرأ القرآن فى ثلاث قال لأن أقرأ سورة من القرآن فى ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقرأ (والتفكر فى القرآن نوعان) تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه وتفكر فى معانى ما دعا عباده إلى التفكر فيه فالأول تفكر فى الدليل القرآنى والثانى تفكر فى الدليل العيانى الأول فكر فى آياته المسموعة والثانى تفكر فى آياته المشهودة ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه قال الحسن البصرى أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا.

فصـــل

وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه فى كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر فى آياته . ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه فى كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكر فيه والنظر فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى (فلينظر الانسان مم خلق) وقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقال تعالى (يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم

شيئاً) وقال تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) وقال (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وقال (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا كثير فى القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر فى مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شىء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر فى نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالى (قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما فى موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل اليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة فى شكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها (وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحماً ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهى محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر

المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة فى تركيب العظام قواما للبدن وعماداً له وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها فى بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر فى الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد فى حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفى العظم والصق أحد طرفى العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة عنه وفى الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة مافيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظماً مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عالياً علو الراكب على مركوبه ولما كان عالياً على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الادراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر فى مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والاجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جملهما بالاجفان غطاء لها وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغبار ويكنانهما من البارد المؤذى والحار المؤذى ثم غرس فى أطراف تلك الاجفان الأهداب جمالا وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذى يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية مافوقها من الكواكب وقد

أودع سبحانه هذا السر العجيب فى هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه وجعل فيها غضوناً وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لإمساكه وفيه أيضاً حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا فى غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة فى رجوعه وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظها فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظاً وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هى عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته كما ان من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرة كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبة الأنف فى الوجـــه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون ماجعل فى الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعاً اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد فى مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لايضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحـد المنفذين فى الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجرى فيهما فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضاً فانه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحداهما أوعرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل

منفعة هذا الجنس جملة وكان وجود أنفين فى الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤدياً عنه كما جعل الأذن رسولا مؤدياً مبلغا إليه فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد (واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة فى إبرازه لانه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضا) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر وأيضا فانه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التى هى جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها فى الحركة وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه اليه وزين الوجه بما

أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما يتحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة (وكذلك خلقه سبحانه) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس ماله معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والابهام باثنتين ووضع الأصابع الأربعة فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا اليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فان بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رؤسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الإنسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته اليه ولم يقم مقامه شىء فى حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة فى جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها فى الثخانة والصلابة لأنها محمولة (ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقناً حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها فى بعض هى مجمع أضلاعه والتى تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الإنسان

يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فى هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين (ثم انه سبحانه ربط تلك) الاعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة فى الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضـــاء رباطات هن له كالآلات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) مافيه من الأمور الباطنة التى لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال لجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هى جند من أجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذى يكشف له المرئيات فان رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا استقر فيه شىء ظهر فيها فهى مرآته المترجمة للناظر مافيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى للسمع مافيه ولهذا كثيرا مايقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقوله (وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة) وقوله (صم بكم عمى) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) وقوله فى حق رسوله محمد ﷺ (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال مازاغ البصر وما طغى) (وكذلك) الاذن هى رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال النبى ﷺ ألا ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهى القلب (وقال أبو هريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرئة له كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء

-حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فانه جعل بارداً واختلف فى حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التى فى القلب ليردها عن الافراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لوكان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغى أن يحيط به كالرئة أو يكون قريباً منه فى الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى بعد الدماغ من القلب لا يمنع ماذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فانه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا فى ذلك صالحا له ولذلك تجــود هذه الأفعال فى الليل وفى المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهى أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) مبدؤها كلها القلب وهى مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التى هى آلات الحواس لها اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الاعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتى إلى كل واحد من هذه الاجسام التى فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئاً أدته بالآلة التى فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتا أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا (ان قيل كيف) يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التى فى البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة فما من عرق ولا عضو الا وله اتصال بالقلب اتصالا قريباً أو بعيداً قالوا وينبعث منه فى تلك العروق والمجارى إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين مايدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذى قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأى الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا بل العقل

فى الرأس (فالصواب ان مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته فى الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد مافيه من العقل واللب ونازعهم فى ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وانكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهى قوة معنوية لا تحتاج فى وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فان وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الإنسان والأمر أضعاف أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التى هى كل شىء بالنسبة إلى ماوراءها التنبيه وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط فى مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صغاراً ثم طاحون يطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهى خزانته وموضع اجتماعه ولها بابان باب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه ثفله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام فى موضعه فاذا انتهى الهضم فان ذلك الباب ينفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متكيسا فاذا استقر فيها انماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدر بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ماهو مستحجر كالحصاو غيره حتى يتركه مائعا فاذا أذابته علا صفوه الى فوق ورسى كدره الى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف مافى ذلك وألطفه وأخفه الى الأرواح فيبعث الى البصر بصرا والى السمع سمعا والى الشم شما والى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف مايتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه الى الدماغ مايناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقى الى الأعضاء فى تلك المجارى بحسبها وينبعث منه الى العظام والشعر والاظفار مايغذيها

ويحفظها فيكون الغذاء داخلا الى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها الى الاعضاء من طرق ومجار هذا وارد اليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء اذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى ان جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجتمع فيه ولا ينبعث الى الاعضاء الشريفة الا أكمله فوضع المرارة مصبا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف مافى ذلك وهو الدم ثم تبعثه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل الى كل واحد من الشعور والاعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم اذا نظرت الى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة فى أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وزوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والإرادة وكذلك القوى المتصرفة فى غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فصـــل

فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أوعلما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذى أتقن كل شىء فى قطرة من ماء مهين فمن هذا صنعه فى قطرة ماء فكيف صنعه فى ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع مافى الأرض الى عجائب السموات قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون) فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وهذا كثير فى القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ماتحت السموات بالإضافة الى السموات كقطرة فى بحر ولهذا قل ان تجىء سورة فى القرآن الا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما اقساما بها وإما دعاء الى النظر فيها وإما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة

بأنهار وأفعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذى لا اله الا هو وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم فى القرآن بها كقوله (والسماء ذات البروج . والسماء والطارق . والسماء وما بناها . والسماء ذات الرجع والشمس وضحاها والنجم إذا هوى . والنجم الثاقب. فلا أقسم بالخنس) وهى الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها جوار فى مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فاقسم بها فى أحوالها الثلاثة ولم يقسم فى كتابه بشىء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ فى الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التى فى السماء فإن اسم النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها وأيضا فانه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم فى آيات القرآن ولا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم فى قوله (والنجم إذا هوى) وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى (ص والقرآن ذى الذكر. يس والقرآن الحكيم .ق والقرآن المجيد . حم والكتاب المبين)ونظائره(والمقصود انه سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المتفكرين فى خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبعا شدادا) وقال تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها)وقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها

فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ولا تغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قدر تبت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها و بديعها وانظر إلى كثرت كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى (ثم انظر) إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة وكيف قدر لها السميع العليم سفرين متباعدين أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثانى سفرها هابطة إلى حضيضها تنتقل فى منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهوى وظهر الشتاء وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهى إلى ابداره وكماله وتمامه ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد فى معاشهم وعباداتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع مافى ذلك من الحكم والآيات والعبر التى لا يحصيها إلا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى فى خلقه حكم كثيرة ثم فى مقداره ثم فى شكله ولونه ثم فى موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذى يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت إما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وماخلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفاً وستين مرة والكواكب التى نراها كثير منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفى حديث أبى هريرة الذى رواه الترمذى أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة ، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار فى اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة فى لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل

عنه وعن آياته وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا نعم فبين اللفظتين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ثم أنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها (الله الذى خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين)

(فصل) والنظر فى هذه الآيات وأمثالها نوعان : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر الثانى أن يتجاوز هـذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة لملهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى أقطار العوالم لا يشغله سمع شىء منها عن سمع غيره ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقا لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدى الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعته وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب

(فصل) وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد

بهم ووسع أكنافها ودحاها فدها و بسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتا للاحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ما توا فظهرها وطن للاحياء و بطنها وطن للاموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض فى كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون . الله الذى جعل لكم الأرض قراراً . الذى جعل لكم الأرض فراشا . أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) وهذا كثير فى القرآن فانظر اليها وهى ميتة هامدة خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخبر بهيج للناظرين كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية ومراعى الدواب والطير (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحداً فتنبت الازواج المختلفة المتباينة فى اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فكيف كانت هذه الاجنة المختلفة مودعة فى بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد صنع الله الذى أتقن كل شىء لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى (وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) فجعل النظر فى هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الارض لئلا تضمحل على تطاول السنين وترادف الامطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شىء منه ولا قدرة عليه (ومن آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والارض يدرك بحس اللمس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجرى بين السماء والارض والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها فى أمواجه كما تسبح حيوانات البحر فى الماء وتضطرب جوانبه

وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فاذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ولا قحاً للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما فى البحر والعقيم والصرصر وهما فى البر وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذاباً أليماً وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً ونحساً وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه وهى مختلفة فى مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحمله على متونها وريح تغذى النبات . ولما كانت الرياح مختلفة فى مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فانه ريح واحدة ترسل من وجــه واحد لاهلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذى لا يقاومه شىء يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر وأما فى البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان) فان السفن إنما تسير بالريح الواحدة التى تأتى من وجه واحد فاذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر إذ المقصود فى البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شىء فأفردت هنا وجمعت فى البر . ثم أنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذى يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس مايقلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه فانظر اليه مع لطافته وخفته إذا دخل فى الزق مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه فى المـاء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجــه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص فى فى الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق وهذا كالذى يهوى فى قليب فيتعلق بذيل رجل قوى شـــديد يمتنع عن السقوط فى القليب فينجو بتعلقه به فسبحان من علق هـذا

المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد (ومن آيته السحاب المسخر بين السماء والأرض) كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقح ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدمماينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح وفى الترمذى وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لايشكرونه ولا يذكرونه فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى سحابة إسق حديقة فلان فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسحى الماء بها فقال ما اسمك يا عبد الله قال فلان الإسم الذى سمعه فى السحابة (وبالجملة) فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلقه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى ارسال مامعه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمزج بها بل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانى فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى فيصل اليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا وكذا . ثم كيف أودعه فى الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات فهذا النبات يغذى وهذا يصلح الغذاء وهذا ينفذه وهذا يضعف وهذا اسم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال اليها وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل

إليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب الغم إلى غير ذلك من عجائب النبات التى لاتكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع، تعجز عقول البشر عن الأحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء فى تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التى لايكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لاينالها البصر ، ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هى أثبت من الاولى ثم أطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها فى تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء . هذا وكم لله من آية فى كل مايقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الأحاطة بها وبجميع تفاصيلها .

فصل

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبديه كقوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار) وقوله (وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) وقوله عزوجل (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقوله عز وجل (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت الى معايشها وتصرفها جاء فالق الأصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره

ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف فى قدرة القادر التام القـــدرة ولا قصور فى حكمته ولا فى علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل .

فصـــل

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التى هى خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء ولهـذا حار عقلاء الطبيعيين فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التى اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضى فى الأرض وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا محيص عنه . وفى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم . وهذا أحد الأقوال فى قوله عز وجل (والبحر المسجور) أنه المحبوس حـــكاه ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهى القلادة من عود أو حديد التى تمسكه وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض فى البحر كبيت فى جملة الأرض وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى أن فيها حيواناً أمثال الجبال لا يقوم له شىء وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفى البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعـير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر أصلا هـذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فـترى اللؤلؤة كيف أودعت فى كن كالبيت لها وهى الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذى فى صدفه لم تمسه الأيدى وتأمل كيف نبت المرجان فى قعره فى الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس

التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها فى البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التى يسخرها الله لاجرائها فاذا حبس عنها القـــائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء قال الله تعالى (ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شكور) وقال الله تعالى (الله الذى سخر لـكم البحر لتأ كلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضـــله ولعلـكم تشكرون) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها فى كتابه كثيراً وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه وقال الله تعـالى (إنا لمـا طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لـكم تذكرة وتعيها أذن واعية) .

فصـــل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه المـاشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ومنه ماجعل سلاحه فى رجليه وهو ذوالمخالب ومنه ماجعل سلاحه المناقير كالنسروالرخم والغراب ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصى وهى القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فإن سلاحه قوته ومنه ما سلاحه فى ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلـكه ونحن نذكر هنا فصولا منثورة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التـكرار وترك الترتيب فى هذا المقام الذى هو من أهم فصول الـكتاب بل هو لب هذا القسم الأول ولهذا يكرر فى القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبديها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبـــال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) وقال الله تعالى (أولم ينظروا فى ملـكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) وقال تعـــالى (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلـكم الله فأنى تؤفـكون فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لـكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات

كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه) فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم فى خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها ثم تلى(انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه) ولو أردنا نستوعب مافى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذى لااله إلا هو الذى ليس كمثله شيء وانه الذى لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولاالطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشارذلك ولكن مالا يدرك جميعه لاينبغى ترك التنبيه على بعض مايستدل به على ذلك وهذا حين الشروع فى الفصول .

فصـــل

تأمل العبرة فى موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فانك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه فالسماء سقفه المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن والشمس والقمر سرجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتنقل فى طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهيأ لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات ومنها الحرس الذى وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مماهومستعد لإهلاكه وأذاه فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لاإله إلاهو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً وإنه لوكان فى السموات والأرض إله غيرالله لفسدأمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئتان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذالله من ولدوما كان معه من إله إذاً لذهب

كل إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتابا مستقلا لادلة التوحيد .

فصــــل

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات فى علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هى ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى ان من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بادمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك .

فصــــل

ثم تأمل حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتى الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسعون فى معائشهم ويتصرفون فى أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة فى غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطانها فى النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل ﴿ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار

سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع فى النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم به وقوله أفلا تبصرون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة وقال تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) فذكر تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفة أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لايجامعه ولايحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثاً حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

فصـــل

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحـــدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاء لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكثف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التى انعقدت فى الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فاذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من

الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجدأذاه ويعظم ضرره فاذا انتقل اليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء يستعد لقبول ماهو أشد منه حتى تأتى جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا الى حر هذا بتدريج وترتيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

فصــــل

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتمام مصالح حساب العالم الذى لا غناء لهم فى مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلوك الشمس والقمر فى تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شىء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا فى غير موضع من كتابه كقوله (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة فى طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه فانها لو كانت تطلع فى موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها الى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم والنهار سرمدا على من هى طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية ان قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ماقابلها من الأفق الغربى ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهى الى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة فى مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد فى أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وفيه قولان أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك وضياء هذا فى مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما فى موضع صاحبه وعلى هذا فهى عامة فى كل ليل ونهار والقول الثانى

أنه يزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج فى الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار فى غير زمن الاعتدال فهى خاصة فى الزمان وفى مقدار ما يلج فى أحدهما من الآخر وهو فى الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم فى الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهى إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه والمواضع التى يعيش فيها الحيوان والنبات هى التى تطلع عليها الشمس وتغيب وأعدلها المواضع التى تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين .

فصل

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب فى ظلمة الليل والحكمة فى ذلك فان الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشىء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شىء من الحركة ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج فى الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل فى الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أعمال أهل الحروث والزروع فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والتفاوت الذى قدره العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذى اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شىء خلقه .

فصل

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث

يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه أن لاتخرج عنه لجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها مايخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديراً واحداً ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها فى شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها فى عام ومنها مايقطعها فى عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسباباً لما يحدثه سبحانه فى هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التى تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التى تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة الآلهية وانها بمنزلة الأعلام التى يهتدى بها الناس فى الطرق المجهولة فى البر والبحر فهم ينظرون اليها وإلى الجـــدى والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤا .

فصـــل

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته ولا يفرد عنهم سيره أبداً بل لا يسيرون إلا جميعا وبعضها يسير سيراً مطلقا غير مقيد برفيق ولا صاحب بل إذا اتفق له مصاحبته فى منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فبينا تراه ورفيقه وقرينه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فلكها وسير خاص تسير هى فى فلكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة فى ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلكها وبمنزلتها إلى جهة الغرب فسل الزنادقة والمعطلة أى طبيعة اقتضت هذا وأى فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارىء المصور الذى ليس كمثله شىء أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها اليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر (ان ربكم الله الذى خلق السموات

والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) فان قلت فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلا . قيل إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التى نشأت من تنقلها فى منازلها ومسيرها فى بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التى يمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التى فى اختلافها ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذى هى عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

فصـــــل

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام وما فى طى ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما فى ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذى بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أممهم مخاطبة من لا شك عنده فى الله وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الاقرار به فقالت لهم (أفى الله شك فاطر السموات والأرض) فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شىء على الاطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات) الآية . وقال تعالى (ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة) إلى قوله (وآياته يؤمنون) وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة إلى قوله فى ضلال مبين) . وقال تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) إلى قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب إلى آخرها) وختمها بأصحاب الفكرة فأما

توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذى أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه اقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التى ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب فى حكمه ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهى آيات متعددة مختلفة فى أنفسها وخلقها وكيفياتها فان إظلام الجو لغروب الشمس ومجىء الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية أخرى ثم فى الشمس التى هى آية النهار آية أخرى وفى القمر الذى هو آية الليل آية أخرى وفى النجوم آيات أخر كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التى هى أعظم منها إلى العقل الذى هو فوق الفكر فتأمله . فأما قوله فى الآية الثالثة (ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون) فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء فان ما ذرأ فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله فى محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى أنبتنا وفيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فالتبصرة التعقل والتذكرة التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فاذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وأخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل . فان قلت فما الفرق بين التذكر والتفكر فاذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكر والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام فى التفكر فى هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة اليه قال الحسن ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فاذا لها أسماع وأبصار . فاعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل

منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه فاذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادى التى عنده إلى المطلوب الذى يريده فاذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فاذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلا لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمى القلب ويتذكر بها من غفلته فان المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شىء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتتبع ذلك انفذ الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولكن مالا يدرك جملة لايترك جملة وأحسن ماأنفقت فيه الأنفاس التفكر فى آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شىء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد فى هذه الدار

فصـــل

فسل المعطل الجاحد ماتقول فى دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا فى مادته ولا فى صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفى تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شىء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أفترى ما يقول لك عقلك فى ذلك لو كان وما الذى يفتيك به وما الذى يرشدك إليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياً لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق أعيناً لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهى لا تراها فما ذنبها أن أنكرتها وجحدتها فهى تقول فى ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لايعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل

وهبنى قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء

فصــــل

ثم تأمل الممسك للسموات والأرض الحافظ لها أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يصلحه وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة فى رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس لجعل عليهم الليل سرمدا من الذى كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها فى الأفق ولم يسيرها فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فمن ذا الذى كان يمسكها من بعده .

فصــــل

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة فى الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكر فى دخول أحدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط فى البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك . فان قلت هذا التدريج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس فى ارتفاعها وانخفاضها . قيل لك فما السبب فى ذلك الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب فى ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب فى بعد المسافة ولا تزال المسألة متوجهة عليك كما عينت سببا حتى تفضى بك إلى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السموات والأرضين والدخول فى زمرة أولى العقل من العالمين ولن تجد بين القسمين واسطة أبداً فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين فانها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين والله متم نوره ولو كره الكافرون .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ماهى عليه من الكمون والظهور فانها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع

والسلامة من الضرر قال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون) إلى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هى الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفى والإنس وغير ذلك .

فصـــل

ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلاحاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فانه لو فقـــدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ونذبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ماشاؤا من ليلهم ولو هـذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً فى ظلمة الليل الداجى وكيف كانت تكون حال من عرض له وجـــع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف وأما منافع النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف مالا ينتفع إلا بجفافه وتحليل مالا ينتفع إلا بتحليله وعقد مالا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا فمن أعطى هذا القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

فصـــل

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فانه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهرا وباطناً وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذى شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتى العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه الأصوات وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمل منفعة الريح وما يجرى له فى البر والبحر وما هيئت له من الرحمة

والعذاب وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التى تحمله على متنها كالجمل الذى يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقاً واحدا ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذى يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لاماء فيه ثم سخرت له المزجية التى تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التى تبثه وتفرقه فى الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا وكذلك الرياح التى تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التى تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ومن منافعها انها تبرد الماء وتضرم النار التى يراد اضرامها وتجفف الأشياء التى يحتاج إلى جفافها . وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فانه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذى لو دام لأتلف النفوس وأسقم الحيوان وأمرض الأصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء فى الجو فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتى بروحه ورحمته ولطفه ونعمته كما قال النبى ﷺ فى الرياح إنها من روح الله تأتى بالرحمة . وتنبه للطيفة فى هذا الهواء وهى إن الصوت اثر يحدث عند اصطكاك الإجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة فان ما يلقى من الكلام فى الهواء اضعاف ما يودع فى القرطاس فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحى باذن ربه فيعود جديدا نقيا لا شىء فيه فيحمل ما حمل كل وقت .

فصــــل

ثم تأمل خلق الأرض على ماهى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتمكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بنــــاء ولا أمكنهم عليها صناعة

ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) وقوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً) وقوله (الله الذى جعل لكم الأرض مهداً) وفى القراءة الأخرى مهاداً . وفى جامع الترمذى وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يبسها فانها لو أفرطت فى اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ماجاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

فصـــل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تتحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب فى البحر فكما أن البانى إذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا الماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فافسده كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى أتقن كل شىء .

فصـــل

ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لاحاجة إليها وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها وفى حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبى ﷺ بالذى نصب الجبال وأودع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذ قال اللهم نعم ، فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلا لشراب الناس إلى حين نفاذه وجعل

فيها ليذوب أولا فأولا فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأدوية التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان فى انحلاله جملة السيول التى تهلك مامرت عليــــه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولادفعه لاذيته (ومن منافعها)ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع وهى أيضاً اكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها . ومن منافعها مايوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها مايكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ماتحتها ولهذا فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن . ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال (ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام) فالجوارى هى السفن والأعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء .

وأن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منافعها أيضا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون فى السهول والرمال كما أن ماينبت فى السهول والرمال لا ينبت مثله فى الجبال وفى كل من هذا وهــذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن . ومن منافعها ماذكره الله تعالى فى كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ورواسى بمنزلة مراسى السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة هذا وإذا تأملت خلقتها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة فانها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصــل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والاكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول

ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها واليقها وأوقمها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ولقد دعانا الله سبحانه فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقها فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت) نخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه . ومنها الجبل الذى تجلى له ربه فساخ وتدكدك . ومنها الجبل الذى حبب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه . ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا فى ذيل أحدهما والمروة فى ذيل الآخر وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معمو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفا لربهم مستكينين لعظمته خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى اكرمه الله برسالته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فانه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الأرض بينهم .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وانها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم الدرداء رضى الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ما أسمعها فتقول (ويسألونك

عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فياعجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فان أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

فصـــــل

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل لينتفع بكل ذلك فى وجهه ويحصل منه ماخلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التى تحمل فى بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد اليها ماخرج منها وجعلها سبحانه كفاتاً فالأحياء مادامو على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم فى بطنها فكانت كفاتاً لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفى بطنها أمواتاً فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى اليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتنى وتخرج كنوزها باذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

فصـــــل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل فى تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض أن ربكم يستعتبكم وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة فخطبهم ووعظهم وقال لئن عادت لا أساكنكم فيها .

فصـــــل

(ثم تأمل حكمة الله عز وجل) فى عزة هذين النقدين الذهب والفضة وقصور خبرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله اياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم فى ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ماخلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة فى الناس حتى صارا

كالسعف والفخار وكانت تتعطل المصلحة التي وضعا لاجلها وكانت كثرتهما جداً سبب تعطل الانتفاع بهما فانه لا يبقى لها قيمة ويبطل كونهما قيما انفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها فى الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما فى العزة كالكبريت الأحمر الذى لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما فى العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده . وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الانباري قال أخبرنى بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا فى طلبها إلى بعض نواحى الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصبباً بماء غزير لا يدرك ولا حيلة فى عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وانها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبينا فسادها من أربعين وجهاً فى رسالة مفردة والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الامتعة كان نفيساً عزيزاً مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فاذا فشى وكثر فى أيدى الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول القائل نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

فصـــــل

وتأمل الحكمة البديعة فى تيسيره سبحانه على عباده ماهم أحوج اليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج اليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك فى أن سخر له الرياح فاذا تصاعد إلى الجو احالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك

ويقلبوه سحاباً أو ضبابا أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

فصــــل

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم . فان قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة . فاعلم أن فيها معايش مالا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مَطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء سملق صارت قصوراً وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم إلى النقلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه فى الأودية والانهار لضاق عن حاجة الناس اليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان اليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة ان كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت وأما النار فقد تقدم أن الحكمة اقتضت كونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهى وان لم تكن مبثوثة فى كل مكان فانها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج اليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الارض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشىء سبحانه السحاب وهى روايا الارض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الانثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفى هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

وفى الموطأ مرفوعا وهو أحد الاحاديث الاربعة المقطوعة إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة فالله سبحانه ينشىء الماء فى السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الارض للحكم التى

ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الارض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقى إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقى لأجزائها فصاعده سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف. والحكمة التى لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض.

فصـــل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو توالت الأمطار، لأهلكت ماعلى الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وأرخت الأبدان وحثرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح.

فصـــل

ثم تأمل الحكمة الألهية فى اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها فان كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل فى فصله موافق المصلحة لا يليق به غير ماخلق فيه. ثم أنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع أخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والأوانى وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذى يتشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف. ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعومها وروائحها ومنافعها وما يراد منها ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم

فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف إبرازهذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفائقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق . فمن الذى تولى ذلك كله ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فان الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليـــه فى مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب مايحتاج إليـــه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته . فسل الجاحـــد من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعه فيها فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا باشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريـكة   وتسـكينة أبداً شاهـــد
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحـــد

فصـــل

ثم تأمل إذا نصبت خيمة أو فسطاطاً كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج . هـكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة فى الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل فى الجهات . ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف . وتأمل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقها أطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكى بها الشجرة .

فصـــل

ثم تأمل الحـكمة فى خلق الورق فانك ترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق

الممتدة فيها المبثوثة فيها مايبهر الناظر . فنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة فى عام كامل ولاحتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم فى أيام قلائل من ذلك مايملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ان هى إلا ارادته النافذة فى كل شيء وقدرته التى لا يمتنع منها شيء (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فتأمل الحكمة فى تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة فى الأبدان التى توصل الغذاء إلى كل جزء منه وتأمل مافى العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهى بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق فى طولها وعرضها لتتماسك فلايعرض لها التمزق .

فصـــل

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فى كونها جعلت زينة للشجر وستراً ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التى تمنع كمالها ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فاذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى إذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديداً أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذى يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهى تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) فالنجم ماليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً) ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب الى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجها قد ذكرنا أكثرها فى موضع آخر . وفى أى لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشيته كما ذكر تعالى ذلك فى كتابه فتارة يخبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحا وفرق بينهما وعطف أحدهما

على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله (ياجبال أوبي معه) وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت كالعشى والاشراق أفترى دلالتها على صانعها انما يكون فى هذين الوقتين ؟ . وبالجملة فبطلان هـذا القول أظهر لذوى البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه والحمد لله .

فصـــل

ثم تأمل حكمته سبحانه فى إبداع العجم والنوى فى جوف الثمرة وما فى ذلك من الحكم والفوائد التى منها أنه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمرة بمنزلة اللحم الذى يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها أن فى ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذى يغرس فيعود مثلها . ومنها مافى تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصباغ وضروب أخر من المصالح التى يتعلمها الناس وما خفى عليهم منها أكثر فتأمل الحكمة فى إخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهيا يتفكه به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة البديعة فى أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التى يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فاذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

فصـــل

ثم تأمل خلقة الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فانك ترى داخل الرمانة كأمثال القلال شحما متراكما فى نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدى أن تنضده وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج وألطفه وأدقه على غير منوال الا منوال (كن فيكون) ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن ضم فتأمل هذه الحكمة البديعة فى الشحم المودع فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضاً إذ لو مد بعضه بعضاً لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزة فى ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فانه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل مجرى الغذاء فى ذلك العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه فى مجارى الحبوب كلها فينبعث منه فى كل مجرى غذاء تلك

الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنه لف ذلك الحب فى تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه و يمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظاً و يمسكا له باذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا منبه على ماوراءه واللبيب يكتفى ببعض ذلك. وأما من غلبت عليه الشقاوة (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) غافلون عن موضع الدلالة فيها.

فصـــل

ثم تأمل هذا الريع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعمائة حبة ولو أنبتت الحبة حبة واحدة مثلها لايكون فى الغلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع بريع هذا الريع ليفى بما يحتاج اليه للقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والنخيل وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفاً فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يبذرونه فيهم وما يقيتهم إلى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون.

فصـــل

ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الأسنة فلا يتمكن جند الطير من افسادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسدوعاب وعاث وأكب عليه أكلا مااستطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فانه أولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

فصـــل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهى دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتبست الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ

تكوين النطف فتعمل المادة فى أجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء فى أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق ماتتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر حملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة فى بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت اليك افنانها كأنما تناولك ثمرة درها فاذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن منا ولا يناولك إياهم بيده ولاسيما قطوف جنات النعيم الدانية التى يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضطجعاً وكذلك ترى الرياحين كأنها تحييك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصاً لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف إذا استعنت بها على معاصيه وصرفتها فى مساخطه فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره فى هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها . ما هو ولأى شىء خلق ولماذا هيء وأى أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى (واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لايزيده إلا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة وشهود تقصيره بل تفريطه فى القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فصـــل

ثم تأمل الحكمة فى شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حمله ثمارا كبارا جعل نباته منبسطاً على الأرض إذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولتقصفت قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها أن يبسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطاً على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها أجراؤها فهى ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والباذنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبته الله منتصباً قائما على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

فصــــل

ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقته المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح.واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف انما يوافى فى الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى مافى ربيعها فى الخريف أو ما فى خريفها فى الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ . ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التى لا يخل بها الحكيم الخبير .

فصــــل

ثم تأمل هذه النخلة التى هى إحدى آيات الله تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك فانه لما قدر أن يكون فيه اناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان واناثه ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبى ﷺ وذلك من وجوه كثيرة (أحدها) ثبات أصلها فى الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار (الثانى) طيب ثمرتها وحلاوتها وعمـــوم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره (الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه تعالى (الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقى والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم (الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العالم فانه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتا وأدما وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل فى الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار . وقد اختلف الناس فى أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ فى المحاكمة بينهما مجلداً فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين . وفصل النزاع فى ذلك أن النخل فى معدنه ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعا وأجدى على أهله كالمدينة والحجاز والعراق والعنب فى معدنه ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التى لا تقبل النخيل . وحضرت مرة فى مجلس بمكة فيه من أكابر البلد فجرت هذه المسئلة وأخذ بعض الجماعة الحاضرين يطنب فى تفضيل النخل

وفوائده وقال فى أثناء كلامه ويكفى فى تفضيله انا نشترى بنواه العنب فكيف يفضل عليه تمر يكون نواه ثمنا له وقال آخر من الجماعة قد فصل النبى ﷺ النزاع فى هذه المسئلة وشفى فيها بنهيه عن تسمية شجر العنب كرما وقال الكرم قلب المؤمن فاى دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون فى تقرير ذلك . فقلت للأول ماذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل فان هذا له أسباب . أحدها حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته . الثانى ان نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع . الثالث ان الاعناب عندكم قليلة جداً والتمر أكثر شىء عندكم فيكثر نواه فيشترى به الشىء اليسير من العنب وأما فى بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شىء ولا قيمة لنوى التمر فيها . وقلت لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فانه يؤكل رطبا ويابساً وحلوا وحامضاً وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك فسموه كرما لكثرة خيره فأخبرهم النبى ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التى وضعها الله فى قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب ولم يرد النبى ﷺ إبطال مافى شجر العنب من المنافع والفوائد وان تسميته كرماً كذب وانها لفظة لامعنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر براً والبخيل سخيا ألا ترى أنه لم ينف فوائد شجر العنب وانما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائد وأعظم منافع منها . هذا الكلام أو قريب منه جرى فى ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبى ﷺ الكرم قلب المؤمن وجدته مطابقا لقوله فى النخلة مثلها مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم فى حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم فى الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن وقد قال بعض الناس فى هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرما لأنه يقتنى منه أم الخبائث فيكره أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع فى الألفاظ وهذا لا بأس به لولا أن قوله فان الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهى والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه فالذى قصده هو الحق . وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والأعناب فساقها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فان أم الخبائث تتخذ من كل ثمر كالنخيل كما قال تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا) وقال أنس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الأعناب شىء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر فلو كان نهيه ﷺ عن تسمية شجر العنب

كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم (الوجه السادس) من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فكذلك المؤمن صبور على البلاء لاتزعزعه الرياح. السابع أن النخلة كلها منفعة لايسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع مالا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ماهو معلوم عند الناس وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك والمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (الثامن) أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله (التاسع) إن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب. العاشر انها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولا وشره مأموناً. فى الترمذى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة فى خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشتد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها فى السقوف والجسور والأوانى وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلد بل ترى بعضه كانه داخل بعضاً طولا وعرضا كتداخل أجزاء اللحم بعضها فى بعض فان ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه فانه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى الآلات والأبواب والأوانى والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها ومن بديع الحكمة فى الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحمل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة

ونقلها من بلد إلى بلدمن حيث لو نقلت فى البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

فصــــل

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التى يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور فى المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب النوم ويعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرح القلب إذا تراكمت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يحد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفيته كيفية غيره فيعتدلان فيعتدل المزاج بتناولهما وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطى اللون إشراقا ونضارة وهذا يزيد فى أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك مما لا يحصيه العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى فى هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأى عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا انعام الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فمن الذى فطن لها البهائم فى أشياء كثيرة منها مالا يهتدى إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فمن الذى جعله يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئا من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء فى مبادىء الطب فى كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك ومن أرشدها إليه ومن دلها عليه أفيجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز عليم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته العقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذى لا إله إلا هو الخالق البارىء المصور الذى لا تنبغى العبادة إلا له وإنه لو كان معه فى سمواته وأرضه إله سواه لفسدت السموات والأرض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . ولعلك أن تقول ماحكمة هذا النبات المبثوث فى الصحارى

والقفار والجبال التى لا أنيس بها ولا ساكن وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة فى خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم لباريه وخالقه فيه من حكمة وآية من طعم اوحش وطيرودواب مساكنها حيث لاتراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقى كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف لسعة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه

فصـــل

ثم تأمل الحكمة البالغة فى اعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول على كبر خلقها التى للانسان ليتم تسخيره اياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأعطيت من التمييز والادراك ماتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان وليظهر أيضاً فضيلة التمييز والاختصاص . ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره قال الله تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين) أى مطيقين ضابطين وقال تعالى (أولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضوا عضوا فسل المعطل من الذى ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك التسخير النوع الإنسانى لمصالح معاشه ومعاده فانه لو كان يزاول من الأعمال والاحمال مايزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسى يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التى لايحصيها إلاالله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأوانى والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال .

فصـــل

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الإنسان وغيره فالإنسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة . وغيرها خلق له كف

مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الاكف والأصابع بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله فى أكلة اللحم من الحيوان وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لاتصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلافا تقيها خشونة الأرض إذا جالت فى طلب المرعى ولبعضها حوافرململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتهيأ للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن ولا أنيابا لأن غذاءها لايحتاج إلى ذلك .

فصل

ثم تأمل الحكمة فى خلقة الحيوان الذى يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد وبراثن شداد وأشداق مهروتة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالكلاليب ولهذا حرم النبى ﷺ كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطاير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيه بالغاذى فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها مايشابهها به فحرم على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبع وان كان ذا ناب فإنه ليس من السباع عند أحد من الامم والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب وأن يكون من السباع ولايقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدا فصلوات الله وسلامه على من أوتى جوامع الكلم فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام . فانظر حكمة الله عز وجل فى خلقه وأمره فيماخلقه وفيماشرعه تجدمصدر ذلك كلهالحكمة البالغة التىلايختل نظامهاولا ينخرم أبدا ولا يختل أصلا ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما أحكمه وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان ومصلحة أريدت بالعباد فى معاشهم ومعادهم وهم فى ذلك درجات لا يحصيها إلا الله ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة وليس لهم نصيب فى حكمة الأمر إلاكما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التى بهرت العقول فى هذا وهذا فاذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيمانا ومعرفة وتصديقا بما جاءت

به الرسل وإذا نظر إلى أمره وما تضمنه من الحكم الباهرة ازداد إيمانا ويقينا وتسليما لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمى بصره وغلظ عن الله حجابه ولو أعطى عله حقه لكان من أقوى الناس إيمانا لأنه أطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفى عن غيره ولكن من حكمة الله أيضاً أن سلب كثيراً من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ماله نسبة إلى الخافى عنهم منه أبداً بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للاعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراءه .

فصـــل

ثم تأمل أولا ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه أولاد الإنس فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ماعند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والقبج يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ماتمج به الطعم فى أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه فى أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذى وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة فاذا استقل بنفسه وأمكنه الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانه أتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكراً وقوتا فلا وكرلك عندنا ولا قوت فسل المعطل أهذا كله عن إهمال ومن الذى ألهمها ذلك ومن الذى عطفها على الفراخ وهى صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذ استغنت الفراخ رحمة بالامهات تسعى فى مصالحها إذ لو دام لها ذلك لاضر بها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثار

والحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالامهات أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت ادلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحوداً إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) وإنما يكون الشك فيما تخفى أدلته وتشكل براهينه فاما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لااله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجا لا فرداً إما اثنتين وإما أربعاً ليتهيأ له المشي والسعي وتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه بخلاف مشية الطبيعي الذي هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه واقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين ثم نقل الآخريين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشي وأخفه على الحيوان .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة عليها ثم خولف هذا في الإبل لجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل . وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضاً طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها

ولو جعل فى أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة وقد ذكر فى كتب الحيوان أن فروج الفيلة فى أسفل بطنها فاذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعل فى الفيلة على خلاف ما هو فى سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذى به دوام النسل .

فصـــل

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة كالسلحفاة وبعضها من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها فانها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعينت بملابس وكسوة لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت باظلاف واخفاف وحوافر لما عدمت الاحذية والنعال فهما حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجرى وجعل لها ذلك أيضاً سلاحاعندا نتصافها من خصمها عوضاً عن الصياصى والمخالب والأنياب والبراثن فتأمل هذا اللطف والحكمة فانها لما كانت بهائم خرصاً لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التى أريدت بها ومنها وأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل فهى تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة . منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة . ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء فان كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة . ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته . ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والإبريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هى فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكمل وأجل وأبلغ فى النعمة . ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما

ميزه عنه فى مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه . ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وظعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته فى هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان .

فصــــل

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها لا يرى منها شىء وليست شيئاً قليلا فتخفى لقلتها بل قد قيل أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه فى الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التى هى أضعاف أضعاف بنى آدم لا تكاد ترى منها شيئاً ميتاً لا فى كناسه ولا فى أوكاره ولا فى مساقطه ولا فى مراعيه بطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا ما عدا عليه عاد إما افترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بنى جنسه عن احراز جسمه وإخفاء جيفته فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البسين بها ولولا ذلك لامتلأت الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلا إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى فى قصة ابنى آدم (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدرة الانسان على نقله واحتياله فى دفع أذيته منع مما جعل فى الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذى حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعا فى البهائم وكيف تعلموه من الطير . وتأمل الحكمة فى ارسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه وهو من الطيور التى تنفر منها الانس ومن نعيقها وتستوحش بها فأرسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستفيد ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبى ﷺ إذا بعثتم إلى بريدا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديبية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفى ذريته ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره

أنه جمرة بن شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات لظى قال له أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال . وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكرها هاهنا وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيرا ما أولع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب واستدلالهم به على البين والاغتراب وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم فكان جديرا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذى ألزمه فى عنقه وطار عنه من عمله ولا تظن أن ارسال الغراب وقع اتفاقا خاليا من الحكمة فإنك إذا خفى عليك وجه الحكمة فلا تنكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرفها والله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة .

فصــــل

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين فيه شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقى أن تصدم حائطا أو تتردى فى حفرة فجعلت عيناها كعينى المنتصب القامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا فى أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوقها فى مقدم الخطم كما أنه من الإنسان فى مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئا من الأرض ألا ترى الانسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفله لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهى لها كالشفة للانسان لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة فمنها انه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها يواريهما ويسترهما ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب والبعوض فيؤذى الدابة فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك ومنها أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها فى تحريك الذنب راحة وعسى أن يكون فيها حكم أخر تقصر عنها افهام الخلق ويزدريها السامع إذا عرضت عليه فانه لا يعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض فى الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها.

فصــــل

ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد فى تناول العلف

والماء وإيرادها إلى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئا من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسدل مسده وجعل قادراً على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمله ماأراد إلى جوفه ويحبس فيه مايريد ويكيد به إذا شاء ويعطى ويتناول إذا أراد فسل المعطل من الذى عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعهمايقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأتىذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه وبارئه ومبدعه وفاطره لاإله إلا هو العزيز الحكيم. (فإن قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة فى ذلك. قيل والله أعلم بحكمته فى مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه ملصقا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسبحان من فاتت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

فصـــل

ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن أصنافا من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذى هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذباً عليها وعلى الخلقة إذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنفا آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقه ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولاالوحوش يلقح بعضها بعضاً ولا الطيور وإنما يقع هذا نادراً فيما يتقارب كالبقر الوحشى والأهلى والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول الفقهاء هل تجب الزكاة فى المتولد من الوحشى والأهلى فيه وجهان هذا إنما يتصور فى واحد واثنتين وثلاثة يكمل بها النصاب فأما نصاب كله متولد من الوحشى والأهلى فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر فى الزكاة وجزاء الصيد والأضاحى والأحوط يتغلب فى كل باب ففى الأضاحى يتغلب عدم الأجزاء وفى الإحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفى الأطعمة يتغلب جانب التحريم وفى الزكاة اختلاف مشهور . وسئل شيخنا أبو

العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبلها فهل يكون لبن الفرس حلالا أو حراماً . فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل فى اللبن فى هذا الموضع بخلاف الاناسي لأن ابن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسر وطيء الفحل إلى هذا اللبن فإنه لاحرمة هناك تنتشر بخلاف ابن الفحل فى الاناسى فانه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل لا إلى الولد خاصة فانه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وإنما تكون من العلف فلم يكن حراما هذا بسط كلامه وتقريره والمقصود ابطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضا عند الموارد فتكون الزرافة وإنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذى يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ماذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمعز عضومن كل واحدمن أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده فى البغل فانك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطا بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل منخلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذى أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التى لا يعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفى أى لون شاء . فمنها المتشابه الخلقة المتناسب الأعضاء . ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة فى خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على انه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها فمنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنسانى . ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهى أمهم التى خلقت من ضلع آدم . ومنه ماخلق من أنثى بلاذكر وهو المسيح ابن مريم : ومنه ماخلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنسانى فيرى عباده آياته ويتعرف اليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . وأما طول عنق الزرافة ومالها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها فى غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذى هناك وثمارها وهذا ماوصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

فصـــل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة اوالحيلة فى جمـــع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى فى ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز

القوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقاً من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا ورفقة خارجة من بيوتها إليه لاتخالط تلك في طريقها بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق والجماعة الراجعين من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تتساعد الفئة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت . ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يوما عجباً . قال رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فزاولته فلم تطق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفعت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئا فرجعن فوضعته ثم جاءت فصادفته فزاولته فلم تطق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعته فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئا فذهبن فوضعته فعادت فجاءت بهن فرفعته فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئا تحلقن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعنها عضواً عضواً وأنا أنظر . ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا فإذا أصابه ندأ وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشز من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكفي في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها لجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة . النداء . والتنبيه . والتسمية . والأمر . والنص . والتحذير . والتخصيص . والتفهيم . والتعميم . والاعتذار فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة . ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكا منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه. من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة .

فصـــل

ومن عجيب الفطنة فى الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيداً تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فيقع عليه ليأكل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه . ومن عجيب الفطنة فى هذه الذبابة الكبيرة التى تسمى أسد الذباب فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه يسكن ملياً حتى كأنه موات لاحراك فيه فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيبا رفيقاحتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه . ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركاللصيد ثم يكمن فى جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه فهذا يحكى صيد الأشراك والشباك والأول يحكى صيد الكلاب والفهود ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استكبرت عقولهم ضرب الله تعالى فى كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأنزل الله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) فما أغزر الحكم وأكثرها فى هــــذه الحيوانات التى تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف فى اقتناص صيدها الذى جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ماسلبها من القوة والقدرة فأغناها ماأعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

فصـــل

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائرا فى الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ثم خلق ذا جؤجؤ محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمله ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحا واللحم غريضا أعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذى يدلك على قوة الحرارة التى أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحا وينطبخ فى جوف الطائر حتى لايرى له أثر. ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضا ولا يلد ولادة لئلا يثقل عن

الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكث حمله فى جوفه حتى يستحكم ويثقل لأثقله وعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة فى كون الطائر المرسل السائح فى الجو يلهم صبر نفسه أسبوعا أو أسبوعين باختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب فى حوصلته ويزق فراخه وليس بذى روية ولا فكرة فى عاقبة أمره ولا يؤمل فى فراخه مايؤمل الإنسان فى ولده من العون والرفد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعلة لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

فصـــل

ثم تأمل خلقة البيضة وما فيها من المخ الأصفر الخاثر والماء الأبيض الرقيق. فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يغتذى منه إلى أن يخرج من البيضة وما فى ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشو الفرخ فى تلك البشرة المنخفضة التى لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه فى جوف البيضة من الغذاء مايكتفى به إلى خروجه .

فصـــل

وتأمل الحكمة فى حوصلة الطائر وما قدرت له فإن فى مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لاينفذ فيه الطعام إلا قليلا فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى جوفه لطال ذلك عليه فمتى كان يستوفى طعامه وإنما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليوعى فيها ماازدرد من الطعم بسرعة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفى الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعم من قرب ليسهل عليه .

فصـــل

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التى تراها فى كثير من الطير كالطاووس والدراج وغيرهما التى لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدى لم يكن هذا فمن أين فى الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط والمركب الذى لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم فتأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفاع جدا قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسج إذا مددته ينفتح قليلا قليلا ولا ينشق ليتداخله الهواء فيقل الطائر إذا طار فترى فى وسط الريشة عموداً غليظاً متينا قد نسج عليه ذلك الثوب التى كهيئة الشعر

ليمسكه بصلابته وهو القصبة التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر فأي طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللطف ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها ممن خلقها وأبدعها فما كذب به المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثلها يزداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء .

فصـــل

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين وأعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرعى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئا من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله ولو كان قصير القائمتين كان إذا خطا نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء فيثيره ويذعر الصيد منه فيفر فخلق له ذلك العمودان ليدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليمكنه تناول الطعم من الأرض ولو طال ساقاه وقصرت عنقه لم يمكنه أن يتناول شيئا من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكانا . . ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعي فلا يشاركها فيه غير بني جنسها من الطير ولو كان ما تقتات به يوجد معداً مجموعا كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معداً مجموعا لأكبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعت حتى تبشم وتهلك وكذلك الناس لو جعل طعامهم معداً لهم بغير سعي ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغي في الأرض فسبحان اللطيف الخبير الذي لم يخلق شيئاً سدى ولا عبثاً (وانظر) في هذه الطير التي لا تخرج إلا بالليل كالبوم والهام والخفاش فان أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراش وأشباههما مما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوي إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراش وأشباههما مبثوثة في الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن تضع سراجا بالليل في سطح أو عرصه الدار فيجتمع عليه من هذا

الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك فجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكفل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها أصلا وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلقة بين خلقة الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشزتين وأسنان ودبر وهو يلد ولدا ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمي ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل . وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئاً وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلقة لأنه يبول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قولين هما روايتان عن أحمد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أقيس الأقوال إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين . والمقصود أنه لو كان لا يأكل شيئاً لم يكن له أسنان إذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئا ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضراس التي تطحنه وليس في الخليقة شيء مهمل ولا عن الحكمة بمعطل ولا شيء لا معنى له وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما انتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأكحال فإذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بجملته ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه أنه رأى نخلا وهو طائر معروف قد عشش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه

فاتحة فاها لتبتلعه فبينماهو يضطرب فى حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة فى العش فحملها فألقاها فى فم الحية فلم تزل تلتوى حتى ماتت .

فصـــل

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر إليها وإلى اجتهادها فى صنعة العسل وبنائها البيوت المسدسة التى هى من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا) إلى قوله (لآيات لقوم يتفكرون) فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها فى هذه الامكنة الثلاثة فى الجبال الشقفان وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون أى يبنون العروش وهى البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة . وتأمل كيف أكثر بيوتها فى الجبال والشقفان وهو البيت المقدم فى الآية ثم فى الأشجار وهى من أكثر بيوتها ومما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما فى الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولا فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعر عليها شىء ترعى ثم تعود ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهى مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهى وهى رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى انها إذا آوت إلا بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تتقدم عليها فى العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم كما يفعل الامير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه الا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس فى مقدورها ولا هو من ذاتها فإن هذه أعمال محكمة متقنة فى غاية الاحكام والإتقان فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله وأجهله بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة . ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان فى بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد

من غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة وجنداً واحداً .

فصـــل

ومن أعجب أمرها ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه وهو النتاج الذى يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم يعسوبها على بيته مبتدئاً منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التى قل من يتفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحى الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج فسل المعطل من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ومن الذى سهل لها سبله ذللا منقادة لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها ومن الذى هداها لشأنها ومن الذى أنزل لها من الطل ما اذا جنته ردته عسلا صافياً مختلفاً ألوانه فى غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرآة وسمه لى من جاء به وقال هذا أنفس ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه ألذ شىء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله فى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور فى كتبهم أصلا وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل وهو المذكور فى كتب القوم ولعمر الله انه لأنفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط واقمع لها وأذهب لضررها وأقوى للمعدة وأشد تفريحاً للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجىء فى شىء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلا ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرد إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على

السكر من طرق عديدة لا تمنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغما ويذيب خلطا أو يشفي من داء وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته وأما الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمه الله كثيرا من الناس حتى صاروا يذمونه ويخشون غائلته من حرارته وحدته ولا ريب أن كونه شفاء وكون القرآن شفاء والصلاة شفاء وذكر الله والإقبال عليه شفاء أمر لا يعم الطبائع والأنفس فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم الشفاء وما أقل المستشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءة ولا يزيد الظالمين إلا خساراً وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والانابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفي به من عليل وكم قد عوفي به من مريض وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء وأنت ترى كثيراً من الناس بل أكثرهم لا نصيب لهم من الشفاء بذلك أصلا ولقد رأيت في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب. وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية، رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الألم فقال له الطبيب أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض فإنه عدوها فإذا قويت عليه قهرته فقال له الطبيب بلى فقال إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام. والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء بالعسل لا يخرجه عن كونه شفاء كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب لا يخرجه عن كونه شفاء لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما قال تعالى ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعرفة فهو نفسه شفاء استشفى به أو لم يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاآن هذا شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها وأخلاطها وآفاتها. ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفي بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من الشفاء أمراً عجيباً وتأمل أخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن العسل (فيه شفاء للناس) وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه.

فصـــل

ثم تأمل العبرة التى ذكرها الله عز وجل فى الأنعام وماسقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنىء المرىء الخارج من بين الفرث والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دما بإذن الله وما يسرى فى عروقها وأعضائها وشعورها ولحومها فإذا أرسلته العروق فى مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم فى تلك الخزائن التى له إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلا ثم ينقلب باقيه لبنا صافياً أبيض سائغا للشاربين فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثقل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد وصار دما وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خاط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له من المرارة والطحال والكلية وباقى الدم الخالص يدخل فى أوردة الكبد فينصب من تلك العروق إلى الضرع فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرث والدم فسل المعطل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير.

فصـــل

ثم تأمل العبرة فى السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لايحتاج إلى المشى إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه لأنه ينغمس فى الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبى السفينة وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر فى بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحرى كالهواء للحيوان البرى فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر بحر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بحره إلى البحر الآخر مات فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء يختنق الحيوان البحرى فى الهواء فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل أن علموا فيها وجهاً جهلوا منها أوجها . فتأمل الحكمة البالغة فى كون السمك أكثر الحيوان نسلا. ولهذا ترى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) أن يتسع لما

يغتذى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها فى حافات الاجام جاثمة تعكف على الماء الصافى فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاختطفته فلما كانت السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبار تأكله ودواب البر تأكله وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ولو رأى العبد مافى البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التى لا يحصيها إلا الله ولا يعرف الناس منها إلا الشىء القليل الذى لا نسبة له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأى العجب ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التى لا يعلمها إلا هو (وهذا الجراد) نثرة حوت (١) من حيتان البحر ينثره من منخريه وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنداً لا مرد له ولا يحصى منه عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته ويسد وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه فسل المعطل من الذى بعث هذا الجند الضعيف الذى لايستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق ويذر الأرض قفراً منها وهم لا يستطيعون أن يردوه ولا يحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذى لا مؤنة له على القوى فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك رداً ولا صرفا قال الله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته فى كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغى ويتمتع فى خفارة ذنوب المظلوم المبغى عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة فى حق ظالمه كما أن المسئول إذا رد السائل فهو فى خفارة كذبه ولو صدق السائل لما أفلح من رده وكذلك السارق وقاطع الطريق فى خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم وهذا أيضا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له فى كل شىء حكمة

---

(١) — (قوله نثرة حوت الخ) فى هامش الأصل بخط بعض الفضلاء ما نصه ليس كذلك بل المراد من كونه نثرة حوت اتحاد حكمها فى حل أكل ميتتها كما صرح بذلك شراح الحديث اه وهو مقبول اه مصححه.

بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس فى أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش فى خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شىء . ولعل هذا الفصل الاستطرادى أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فأتى فى منامه فقيل له أتعجب من أخذ السيل غنمك أنه تلك القطرات التى شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلا فقس على هذه الحكاية ما تراه فى نفسك وفى غيرك . تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة . والأثر الإسرائيلى معروف أن رجلا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقيه دينارا فى الماء ودينارا فى المركب كأنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك . وتأمل حكمة الله عز وجل فى حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعتم الحق فمنعتم الغيث فهلا استنزلتموه ببذل مالله قبلكم . وتأمل حكمة الله تعالى فى صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصدهم عنه كما صدوا عباده صدا بصد ومنعاً بمنع . وتأمل حكمته تعالى فى محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا جوزوا إتلافا باتلاف فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة . وتأمل حكمته تعالى فى تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها . وتأمل حكمته تعالى فى أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت فى صور ولاتهم وملوكهم فان استقاموا استقامت ملوكهم ، وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم مالهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه فى معاملتهم أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت فى صور أعمالهم وليس فى الحكمة الآلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم ولما كان الصدر الأول خيار

القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شابت لهم الولاة لحكمة الله تأبى أن يولى علينا فى مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلا عن مثل أبى بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له فطنة إذا سافر بفكره فى هذا الباب رأى الحكمة الالهية سائرة فى القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما فى الخلق والأمر سواء فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ولا زمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى فى عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ‹ إلى قوله يظلمون ﴾ وتأمل حكمته تعالى فى مسخ من مسخ من الأمم فى صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكراً وخداعا وفسقاً فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهى تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيعه فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستعانوا فى كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم فأى شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه

النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين . وأما الأخبار التى تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيراً فأكثر من أن تذكر هاهنا وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسى كتاباً وتأمل حكمته تعالى فى عذاب الامم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارا وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدى المؤمنين فكانت الحكمة فى كل واحد من الأمرين مااقتضته فى وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى فى إرسال الرسل فى الأمم واحدا بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكمل الأمم عقولا ومعارف وأصحها أذهانا وأغزرها علوما وبعثه بأكمل شريعة ظهرت فى الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله لأمة بكمال رسولها وكمال شريعته وكمال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتى بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبى ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان قبلكم فى الأمم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فعمر فجزم بوجود المحدثين فى الأمم وعلق وجوده فى أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان فى الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلى محدث بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد لا أنه عمدة لأنها فى غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون . ولا تظن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبى بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدى الرسالة استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره فالذى يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذى يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل مافيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل خلقه وأكملهم شريعة وإن أمته أكمل الأمم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب وهو المرجو لتمام نعمته ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فصــــل

فأعد الآن النظر فيك وفى نفسك مرة ثانية من الذى دبرك بألطف

التدبير وأنت جنين فى بطن أمك فى موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك. ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ولا فى دفع الضرر فمن الذى أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به فى أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضـــياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدى والتقلب على الغبراء هاج الطلق بأمك فازعجك إلى الخروج أيما ازعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والإخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فمن الذى أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضعيفاً لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك فى بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفاً فى طرقه ومجاريه حتى تستوفى ما فى الخزانة فيجرى وينساق إليك فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك فى طرق لا يهتدى إليها الطواف ولا يسلكها الرجال فمن رققه لك وصفاه وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل إحكام لا بالحار المؤذى ولا بالبارد الردى ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان فى البطن فوافاك فى أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغـــذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدى المعلق كالإداوة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك ثم جعل فى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها ثم نقب لك فى رأسها نقباً لطيفا بحسب احتمالك ولم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق

الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تزاد فى حياتك فمن الذى وضع ذلك فى قلبها حتى إذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك وخشنت عظامك واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك . وضع فى فيك آله القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانا إليك ولطفا بك فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ولو أنك منعتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التى لا تسيغها إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان فى أكل المطاعم المختلفة زيد لك فى تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ثم إذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التى هى آخر الأضراس . فمن الذى ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم أنه اقتضت حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك . واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبى صغيرا من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فانه لا يؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه وأصعب حتى إذا كان عاقلا فلا تراه إلا كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلا فهما كحالك فى كبرك تنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك محمولا رضيعا معصبا بالخرق مربطا بالقمط مسجونا فى المهد عاجزا ضعيفا عما يحاوله الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام فى هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك من الحلاوة واللطافة والوقع فى القلب والرحمة بك ما يوجد للمولود الطفل بل تكون أنكد خلق الله وأثقلهم وأعنتهم وأكثرهم فضولا وكان دخولك هذا العالم وأنت غبى لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير لها والإتقان لها . وفى ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ما ذكرناه . فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب والآلات فى وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم أنه أعطاك الأظفار

وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان برؤس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالاظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذى لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهى إليه ثم خص الذكر بأن جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الإناث وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالماء واحدوالجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد فمن الذى أعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثية. ولا تلتفت إلى مايقوله الجهلة من الطبائعيين فى سبب الإذكار والإيناث واحالة ذلك على الامور الطبيعية التى لا تكاد تصدق فى هذا الموضع إلا اتفاقا وكذبها أكثر من صدقها وليس استناد الاذكار والايناث إلا إلى محض المرسوم الإلهى الذى يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول يارب ذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيوحى ربك مايشاء ويكتب الملك فاذا كان للطبيعة تأثيراً فى الإذكار والإيناث فلها تأثير فى الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا اذ مخرج الجميع مايوحيه الله إلى الملك ونحن لا ننكر ان لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الأسباب التى استأثر الله بها دون البشر قال الله تعالى (لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور)إلى قوله قدير . فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال أحدها من تلد الإناث فقط . الثانية من تلد الذكور فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى . الرابعة العقيم التى لا تلد أصلا . ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحى ماروى مسلم فى صحيحه من حديث ثوبان قال كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فقال السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى فقلت ألا تقول يارسول الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى قال اليهودى جئت أسألك فقال رسول الله صلى عليه وسلم أينفعك شىء إن حدثتك قال أسمع بأذنى فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال سل فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله ﷺ هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن أول الناس إجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد حوت ذى النون قال فما غذاؤهم على أثرها قال

ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين تسمى سلسبيلا قال صدقت وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبى أو رجل أو رجلان قال ينفعك إن حدثتك قال أسمع بأذنى قال جئت أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإن علا منى المرأة منى الرجل آنثى بإذن الله قال اليهودى لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد سألنى عن هذا الذى سألنى عنه ومالى علم به حتى أتانى الله به والذى دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعاً فالذكر يقذف ماءه فى رحم الأنثى وكذلك هى تنزل ماءها إلى حيث ينتهى ماؤه فيلتقى الماآن على أمر قد قدره الله وشاءه فيخلق الولد بينهما جميعا وأيهما غلب كان الشبه له كما فى صحيح البخارى عن حميد عن أنس قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبى ﷺ فأتاه فقال إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى قال ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله ﷺ أخبرنى بهن آنفا جبريل فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ أما أول اشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها فقال أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث وفى الصحيحين عن أم سلمة قالت يارسول الله إن الله لا يستحى من الحق هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت قال نعم إذا رأت الماء الأصفر فضحكت أم سلمة فقالت أو تحتلم المرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فبم يشبهها الولد فهذه الأحاديث الثلاثة تدل على أن الولد يخلق من الماءين وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين وقهره الآخر وعلوه عليه وان الشبه يكون بالسبق فمن سبق ماؤه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحى وليس فى صناعتهم أيضا ما ينافيها على أن فى النفس من حديث ثوبان مافيها وانه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغى وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث كما سأل عنه عبد الله بن سلام ولذلك لم يخرجه البخارى وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى بكر عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول يارب نطفة يارب علقة يارب مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى شقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإيناث على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض الملك لكتبه الذى للطبيعة فيه مدخل أولا ترى عبدالله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذى يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإيناث

مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يبطل مازعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث والله أعلم.

فصل

فانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والأنثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت فى حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المنى إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئاً فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه فى قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم إنضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج غلظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحكم ولو كان الماآن رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وإنضاجه فيها ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله. ومنها أنها لما كانت محلا للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه.

فصل

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة والدفع. والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب وانتصاف القامة والعينان للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية مافى السموات والأرض وآياتهما وعجائبهما. والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك. والأنف للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه. واللسان للبيان والترجمة عنك. والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك. واللسان يبلغ عنك. والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه إصلاحا آخر وطبخا آخر غير الإصلاح والطبخ الذى توليته من خارج فأنت تعانى إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإنضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعانى من نضجه وطبخه مالا تهتدى إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب مالا تذيبه النار وهى فى ألطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهى أشد حرارة من النار وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها ماء ذائبا وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وألطفه ثم رتب منها مجارى

وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل والأبواب لإدخال ما ينفعك وإخراج مايضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك فهذه خزانة للطعام وهذه خزانة للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخر فجعل خزائن للمرة السوداء وأخرى المرة الصفراء وأخرى للبول وأخرى للمني فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسري منها في البدن فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاء رقيقا كالمصفات الضيقة الأنحاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجار مهيأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمها بالسقي ثم يبعث ما بقي من الخبث والفضول إلى مغايض ومصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة فمن ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأني بك أيها المسكين تقول هذا كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهديك لسألت نفسك بنفسك وقلت أخبريني عن هذه الطبيعة أهي ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك بل هي ذات قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارىء المصور فلم تسمينه طبيعة ويالله من ذكر الطبائع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمى به نفسه على ألسن رسله ودخلت في جملة العقلاء والسعداء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت لك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا مالا يصدقه ذو عقل سليم كيف تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة عليها ممن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا إلا دخول في سلك المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما أدعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي إذا من أدل الدلائل على بارئها وفاطرها وكمال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تعطيلك رب العالم وجحدك لصفاته وأفعاله إلا مخالفتك العقل والفطرة ولو حاكمناك إلى الطبيعة لرأيناك أنك خارج عن موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك جهلا وضلالا فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدبير

متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قيل لك فإذا أقررت ويحك بالخلاق العظيم الذى لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلا فعالا أو موجبا بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارىء المصور رب العالمين وقيوم السموات والأرضين ورب المشارق والمغارب الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن ما صنع فمالك جحدت أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقه إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولابد والحمدلله رب العالمين على أنك لو تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لدلك على الخالق البارىء لفظها كما دل العقول عليه معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أى مطبوعة ولا يحتمل غير هــــذا البتة لأنها على بناء الغرائز التى ركبت فى الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهى التى طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ الطبيعة على البارى تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله مسخر مربوب وهى سنته فى خليقته التى أجراها عليه ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارىء المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وإن الطبيعة التى انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هى خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسى من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها خلقه وصنعه مسخرة بأمره (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

فصــــل

فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة فى تنميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ولو أن صائغا أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينمى جسم الطفل وأعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا ينقص . وأعجب من هذا كله تصويره فى الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدى ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه

من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ومافى ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين فى قطرة من ماء مهين وما كرر عليك فى كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فيه إلا لما بك من العبرة والمعرفة ولا تستطل هذا الفصل ومافيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائماً وتستوى جالساً وتستقبل الأشياء ببدنك وتقبل عليها بجملتك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تمييز واختصاص ولم يتهيأ منك ما تهيأ من هذه النسبة.

فصــــل

قال الله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم الآية) فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقد المعتدل واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة فى داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه فى جنات عدن (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالدنيا قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع فى مصالحه والكل قد أقيم فى خدمته وحوائجه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون فى رزقه ويعملون فيه والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته والعالم الجوى مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلى كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره وثماره ونباته وحيوانه وكل مافيه كما قال تعالى (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره) إلى قوله يتفكرون وقال تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) إلى قوله كفار فالسائر فى معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملأ صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم فى بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بنى جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول لى أسوة بهم ٭ وهل

أنا إلا من ربيعة أو مضر ، وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب فاستلان مااستوعره البطالون وأنس بما استوحش منه الجاهلون .

فصـــل

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض الآفات بمباشرة الأعمال والحركات ولاجعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس صومعة الحواس . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة فجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفات والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات واللمس في مقابلة الملموسات فأي محسوس بقي بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت عليها ألسنة العامة والخاصة حيث يقولون في المفكر المتأمل . ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

فصـــل

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئاً . وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئاً . وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا . وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الزائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده . وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء

من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة .

فصـــل

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يناله من الخلل فى أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحدساً وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف. هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينيه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألفه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحى كميت وقريب كبعيد . وقد اختلف النظار فى أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطرش وذكروا فى ذلك وجوهاً وهذا مبنى على أصل آخر وهو أى الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيهما فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأدلتهم والتحقيق فى ذلك فأى الصفتين كانت أكمل فالضرر بعدمها أقوى . والذى يليق بهذا الموضع أن يقال عادم البصر أشدهما ضرراً وأسلمهما ديناً وأحمدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضرراً فى دنياه وأجهلهما بدينه وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها فضرره فى دينه أكثر وضرر الأعمى فى دنياه أكثر ولهذا لم يكن فى الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل أن يبتلى الله أولياءه بالطرش ويبتلى كثيراً منهم بالعمى. فهذا فصل الخطاب فى هذه المسئلة فمضرة الطرش فى الدين ومضرة العمى فى الدنيا والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه .

فصــــل

وأما من عدم البيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هى أحسن حالا منه فإن فيها ماخلقت له من المنافع والمصالح التى تستعمل فيها وهذا يجهل كثيرا مما تهتدى إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الإنسان وهى النطق اشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذى يرى ماهو محتاج إليه ولا تمتد إليه يده ولا رجله فكم لله على عبده من نعمة سابغة فى هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التى فيه فهو لايلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئاً منها لتمنى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب فى نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو عرضت عليه الدنيا بمافيها بزوال واحدة منها لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن (إن الإنسان لظلوم كفور).

فصــــل

ثم تأمل حكمته فى الأعضاء التى خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما فى ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحدا فقط إذلا مصلحة فى كونه أكثر من ذلك ألاترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج إليها مجتمعة فى رأس واحد ثم أن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاما واحداً وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لافائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان فى فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا وإن تكلم بأحــــدهما دون الآخر فكذلك وان تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له عنوان وفان لكان مع قبح الخلقة أحدهما فضلة لامنفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التى خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضرورى للإنسان لاتتم مصلحته إلا بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجليه كيف تبقى حاله وعجزه فلوأن النجار والخياط والحداد والخباز والبناء وأصحاب الصنائع التى لاتتأتى إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته فاقتضت الحكمة

أن أعطى من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين وكذلك أعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الأعضاء الثلاثة فهى جوانب أنفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التى هى بمجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجفان العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هى عليه من العدد والشكل والهيئة فلو زادت أو نقصت لكان نقصا فى الخلقة ولهذا يوجد فى النوع الإنسانى من زائد فى الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد فى خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما يراه فى غيره فهو أجدر ان لم يزداد شكرا وحمداً لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

فصل

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل فى النوع الإنسان بين صورهم فقل أن يرى إثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر مافى العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الإبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان فى صفة واحدة وخلقة واحدة بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة والحكمة البالغة فى ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلاهم لما يجرى بينهم من المعاملات فلولا الفرق والاختلاف فى الصور لفسدت أحوالهم وتشتت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشترى ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ولا هى تعرف بعلها من غيره وفى ذلك أعظم الفساد والخلل فمن الذى ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل فى الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق فى النوع وأين قول الطبائعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة فى نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . ربما وقع فى النوع الإنسانى تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة فى

معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يعرض فى التشابه فى الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى فما الظن لو وضع التشابه فى الخلقة والصورة . ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها . فتبارك الله أحسن الخالقين الذى وسعت حكمته كل شىء .

فصل

ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا أدركا اشتركا فى نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيما على المرأة وجعلها كالخول له والعانى فى يديه ميزه عليها بما فيه له المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ومتعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتراكا فى سائر الشعور للحكمة والمنفعة التى فيها .

فصل

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة الباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله فمنه المضحك ومنه المبكى ومنه المؤيس ومنه المطمع ومنه المخوف ومنه المرجى والمسلى والمحزن والقابض للنفس والجوارح والمنشط لها والذى يسقم الصحيح ويبرىء السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالى به بين المتعاديين ومنه ما هو بضد ذلك ومنه الكلمة التى لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب والكلمة التى لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها فى أعلا عليين فى جوار رب العالمين فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لايدرى ما يراد به ولا أين ينتهى ولا أين مستقره هذا إلى مافى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التى لا يحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته

فتسمع لغات مختلفة ، كلاما منتظما مؤلفا ولا يدرى كل منهم مايقول الآخر واللسان الذى هو جارحة واحد فى الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه فى كتابه أن فى كل منهما آيات فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) وقال (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد) الآية فانظر الآن فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنغمات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفتين والأسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأنخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذات من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويا بعد ما بينهما ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب فإذا رأت مالا نسبة له اليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ماهو أعظم من ذلك بما لا يدركه القياس ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والأسنان فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم .

فصل

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق وفى الأسنان من المنافع ماهو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وامساكهما

عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخي شفتاه وفي الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى إليه ينتهي إليه مايخرج من الجوف ومنه يبتدى مايلج فيه فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء. وهما أيضا جمال وزينة للوجه وفيهما منافع أخرى سوى ذلك وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التى تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التى على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانة وجعلها معدن الحواس والادراكات ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشفار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها اذا فتحت ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعاً وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ومن شقهما فى الوجه أحسن شق وأعطاهما أحسن شكل وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسا للبدن ورائداً يرسله كالجند فى مهماته فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ومن أودع النور الباصر فيه فى قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات وجعلهما فى أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيئة للبدن ومن حجب الملك فى الصدر وأجلسه هنالك على كرسى المملكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة فى خدمته وذللها له فهى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى فى مرضاته فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجا عن أمره فمنها رسوله ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لايتعداه ولايتصرف فى غير عمله حتى إذا أراد الراحة أوعز إليها بالهدو والسكون ليأخذ الملك راحته فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده

بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لا نفتر فلو شاهدته فى محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر فى خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التى لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فدعا عباده إلى التفكر فى أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وبارئها ولولا هذا لم نوسع الكلام فى هذا الباب ولأطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به ولله ما خلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب فأما على سرير الملك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير فى السجن الأعظم بين أطباق النيران فى العذاب الأليم فلو عقل هذا السلطان ماهيأ له لضن بمملكه ولسعى فى الملك الذى لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

فصــــل

ومن جعل فى الحلق منفذين ، أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة والآخر للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لا تنى ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائما فتفسد على الإنسان عيشه وتمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضا . ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها فلو كانت لحما غضاً لانطبخت هى ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التى تحتها . ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعملها هو ألطف من عمل المعدة . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق فى أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولا تذوب . ومن جعل الدم السيال محبوساً محصوراً فى العروق بمنزلة الماء فى الوعاء لينضبط فلا يجرى . ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات . ومن جعــــل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه وليتعذر على الهوام النفوذ إليه قبل أن يمسك ويمسك

ما عساه أن يغشاها من القذى والوسخ ولغير ذلك من الحكم ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثرها على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحاً يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها . ومن جعل باب الخلاء فى الإنسان فى أستر موضع كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلى فى أستر موضع فى الدار وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان فى أستر موضع ليس بارزاً من خلفه ولا ناشزا بين يديه بل مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حداداً لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه . ومن سلب الإحساس الحيوانى الشعور والأظفار التى فى الآدمى لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ما شاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها فى إحدى البليتين أما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وأما مقاساة الألم والوجع عند أخذها . ومن جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التى تباشر بالكف ولهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لإنباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضى إنباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا أيضا القدم أخمصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان وليس هذا للإنسان وحده بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة ولما اجتهد الطاعنون فى الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الأنف وشعر الركبتين وقالوا أى حكمة فيها وأى فائدة . وهذا من فرط جهلهم وسخافة عقولهم فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها بل لا نسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى فى خلقه وأمره إلى ماخفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور فى البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحمقى النوكى إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع

والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها فى شىء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم لخفيت عليه لجعل كل ما خفى عليه منها شىء قال هذا لا فائدة فيه وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم فى صنائعهم ويفوقهم فيها فما الظن بمن بهرت حكمته العقول الذى لا يشاركه مشارك فى حكمته كما لا يشاركه فى خلقه فلا شريك له بوجه فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين ولله فى كل ماخفى على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولاتنكر. فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة مااقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبت فى مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهى أقبل لنبات الشعر وأهيأ فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعراً ولو حبست فى داخل البدن لأضرته وآذت باطنه فخروجها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكمالها ولهذا يكون احتباسه لفساد فى الطبيعة ونقص فيها . ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب فإذا شاهدت ذلك فى الشعر الذى عرفت بعض حكمته فالك لاتعتبره فى الشعر الذى خفيت عليك حكمته . ومن جعل الريق يجرى دائماً إلى الفم لا ينقطع عنه ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام ويسيغ الطعام . قال بقراط الرطوبة فى الفم مطية الغذاء فتأمل حالك عند مايجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لايستغنى عنه.

فصـــل

ثم تأمل حكمة الله تعالى فى كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا فى أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت فى أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح . وأيضاً فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوى الأعصاب وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه فإذا كانت هذه الحكمة فى البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا ايلام الأطفال فيه وفى أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام فى حكمه اضطراب الأرشية وسلكوا فى هذا الباب مسالك . فقالت

طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية وإنه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لايفعل شيئاً سدى ولا خلق شيئاً عبثاً وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى إلى قوله ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لايسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية والإلهية وقوله وهم يسألون في صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان فهذا الذي سيق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب. وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم تعويضهم في الآخرة بالثواب التام فقيل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام فأجابوا بأن توسط الإيلام في حقهم كتوسط التكاليف في حق المكلفين فقيل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار فأجابوا بأنا لا نقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسئلة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم مالا جواب لهم عنه وهو إيلام أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فإن هذا لاتعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفا وتعجيلا فحاروا في هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل. وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه إلزام مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكا عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز فالسؤال عن حكم الحاجة الى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند الظمأ وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقاً آخر وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة فلو لم يخلق كذلك لكان خلقاً آخر فيرى

أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحر دون ذلك أو فوقه وما خلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة. قالوا فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه فى عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهى عرضة للآفات وركبه تركيباً معرضاً الأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التى لاقوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهى لا محالة توجب امتزاجاً واختلاطاً وتفاعلا يبغى بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك موجب الآلام قطعاً ووجود الملزوم بدون لازمه محال ثم أنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه فى طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة فأحوج النوع بعضه إلى بعض لحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض لحدث من ذلك الآلام والشرور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض والآلام لا تتخلف عن هذا الامتزاج أبداً إلا فى دار البقاء والنعيم المقيم لا فى دار الابتـــلاء والامتحان فمن ظن أن الحكمة فى أن تجعل خصائص تلك الدار فى هذه فقد ظن باطلا بل الحكمة التامة البالغة إقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها وراحتها بعنائها ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهى دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض كما قال القائل :

أصبحت فى دار بليات أدفع آفات بآفات

ولقد صدق فإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرها ومن هنا قال بعض العقلاء إن لذاتها لنا هى دفع الآلام لا غير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحـــل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن الحكمة التى إقتضت ذلك هى أولى باقتضاء دارين دار خالصة للذات لا يشوبها ألم ما ودار خالصة الآلام لا يشوبها لذة ما والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار أفلا ترى كيف دلك ذلك مع ما أنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينهما عيانا وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار فتأمل كيف قاد النظر فى حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا

به تفصيلا يدل عليه العقل بحملافأين هذا من مقام من أداه عقله إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فحالت بها عساكر الخذلان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤل تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة فى مسألة إيلام الأطفال لعلك لا تظفر بها فى أكثر الكتب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر فى هذه الأفعال الطبيعية التى جعلت فى الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها فى الطبع المجرد والداعى الذى يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء واجمام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل وقضاء الوطر وتمام اللذة فتجد هذه الدواعى تستحث الإنسان لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه إلى شىء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء أهلكه فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزاً إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم أنظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التى بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التى تقتضى معلومها من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ثم أعطى القوة الممسكة التى تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه ثم أعطى القوة الهاضمة التى تصرفه فى البدن وتهضمه عن المعدة ثم أعطى القوة الدافعة وهى التى تدفع ثفله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك اليها ومن جعلها خادماً لك ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت فى شخص واحد ومحل واحد ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا فمن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب فى الجوف حتى تهضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ولولا الدافعة كيف كان الثفل المؤذى القاتل لو انحبس يخرج أولا فأولا فيستريح البدن فيخف

وينشط . فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقواماً يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وايرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه الى أن يهيأ ويصلح وبعضهم بقبضه فيهيؤه ويصلحه ويدفعه الى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكنسها من المزابل والأقذار فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التى ذكرناها .

(تنبيه) فرق بين نظر الطبيب والطبائعى فى هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر فى حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظار فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خالقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التى دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى الحفظ والنسيان الذى خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم وماللعبد فيهما من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التى خص بها لدخل عليه الخلل فى أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ولا من ضره فينأى عنه ثم كان لا يهتدى إلى الطريق الذى سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علماً ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على ما مضى بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا فتأمل عظيم المنفعة عليك فى هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشىء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا نقمة من حاسد فتأمل نعمة الله فى الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله فى كل واحد منهما ضربا من المصلحة .

(تنبيه) ثم تأمل هذا الخلق الذى خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء الذى هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً بل هو خاصة الإنسانية فمن لاحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شىء ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من الناس لولا الحياء الذى فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لمخلوق

حقاً ولم يصل له رحماً ولا بر له والداً فإن الباعث على هذه الأفعال إما دينى وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوى علوى وهو حياء فاعلها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها . وفى الترمذى وغيره مرفوعاً استحيوا من الله حق الحياء قالوا وماحق الحياء قال أن تحفظ الرأس وماحوى والبطن وماوعى وتذكر المقابر والبلى وقال ﷺ إذالم تستح فاصنع ماشئت وأصح القولين فيه قول أبى عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى (إعملوا ماشئتم) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلا) وقالت طائفة هو إذن وإباحة والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح . وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو فى قوة قولهم من لا يستحى صنع مايشتهى فليس إذن ولاهو مجرد تهديد وإنما هو فى معنى الخبر . والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ماشاء وإخراج هذا المعنى فى صيغة الطلب لنكتة بديعة جداً وهى أن للإنسان آمرين وزاجرين آمروزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل مايشتهى وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ولابد فإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحى صنع مايشتهى .

(تنبيه) ثم تامل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطق والبيان الخطى وقد اعتد بهما سبحانه فى جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ (إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) فتأمل كيف جمع فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة وفى سائر المواضع يذكر ماهو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار أومادة الفرع وهو الماء المهين وذكر فى هذا الموضع أول مبادىء تعلق التخليق وهو العلقة فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذى هومن أعظم نعمه على عباده إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبطت الأحكام ولم يعرف

الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم لجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنه الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة فى خلقه وفضله فهو الذى علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم فإنه علمه فتعلم كما أنه دلمه الكلام فتكلم . هذا ومن أعطاه الذهن الذى يعى به واللسان الذى يترجم به والبنان الذى يخط به ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذى دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعلم بالقلم فقف وقفة فى حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطاب والنظم والنثر وجوابات المسائل فمن الذى أجرى فلك المعانى على قلبك ورسمها فى ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيباً معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدى عليك مالا يجدى من ترسله سوى من علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهنى والوجود اللفظى والوجود الرسمى فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب ودل قوله خلق على أنه يعطى الوجود العينى فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعليما وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقا خاصا وتعليما خاصا وتعليما عاما وذكر من صفاته هاهنا إسم الأكرم الذى فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفا ومنه كل خير فعلا فهو الأكرم فى ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعته إلى ذلك وهو الغنى الحميد وقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجى العينى وخص الإنسان بالخلق لما تقدم ۵ وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلمى الذهنى فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنسانا بخلقه فهو الذى خلقه وعلمه ۵ ثم قال علمه البيان والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانا . أحدها البيان الذهنى الذى يميز فيه بين المعلومات . الثانى البيان

اللفظى الذى يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث البيان الرسمى الخطى الذى يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين للسامع معانى الألفاظ فهذا بيان للعين وذاك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله (صم بكم عمى) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وقد تقدم بسط هذا الكلام .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده ومنع عنه علم مالا حاجة له به لجهله به لايضر وعلمه به لا ينتفع به انتفاعا طائلا ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس فى العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس فى طرق العلوم التى تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكلما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكلما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس فى العلوم أجلى منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل لأممهم أفى الله شك فخاطبوهم مخاطبة من لاينبغى أن يخطر له شك مافى وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطيق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك فى الفطرة ووضعه فى العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى (فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وقوله (فذكر إن نفعت الذكرى) وقوله (إنما أنت مذكر) وقوله (فما لهم عن التذكرة معرضين) وهو كثير فى القرآن ومفصلين (١) لما فى الفطرة والعقل العلم به جملة فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته فى خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته مودعاً فى الفطرة مركوزاً فيها فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته فى أفعاله وبالثواب والعقاب ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت

---

(١) — قوله ومفصلين — معطوف على قوله مذكرين من قوله ثم بعث الرسل مذكرين اهـ .

عليـــه أنكرت ما أنـكرت وجحدت ماجحدت. فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعانا بما جمل من شواهد ذلك فى قلوبهم حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها دعوة حق برهانها فيها ومعذرين (١) ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا تحتج على الله بأنه ما أرشدها ولاهداها فيحق القول عليها بإقامة الحجة فلا يكون سبحانه ظالما لها بتعذيبها وأشقائها وقد بين ذلك سبحانه فى قوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد واثبات أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة فى الفطر ولم يكن ليعرف بها أنها ثابتة فى فطرته فلما ذكرته الرسل ونبهته رأى ما أخبروه به مستقرا فى فطرته شاهدا به عقله بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم ما يكون من الإيمان وهو الذى كتبه سبحانه فى قلوب أوليائه وخاصته فقال (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان) فتـــدبر هذا الفصل فإنه من الكنوز فى هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثنى عليـــه الخناصر ولله الحمد والمنة . والمقصود أن الله سبحانه أعطى العبـــد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم يعطه من غيرها لعظم حاجته فى معاشه ومعاده إليها ثم وضع فى العقل من الإقرار بحسن شرعه ودينه الذى هو ظله فى أرضه وعدله بين عباده ونوره فى العالم مالو اجتمعت عقول العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئا أحسن منه ولاأعدل ولا أصلح ولاأنفع للخليقة فى معاشها ومعادها فهو أعظم آياته وأوضح بيناته واظهر حججه على أنه الله الذى لا إله إلا هو وإنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل عيب ومثال فضلا عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى وقطع المعذرة وازاحة العلة والشبهة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة وان الله لسميع عليم) فأثبت فى الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد والنصيحة للخلق ورحمة المسكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصفح والصبر فى مواطن الصبر والبذل فى مواطن البذل والانتقام فى موضع الانتقام والحلم فى موضع الحلم والسكينة والوقار والرأفة والرفق والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد وستر العورات وإقالة العثرات والإيثار عند الحاجات واغاثة اللهفات وتفريج الكربات والتعاون على أنواع

---

(١) — قوله ومعذرين — عطف على مذكرين أيضاً اهـ .

الخير والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة فى الحق واللين لأهله والشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم والإصلاح بين الناس والسعى فى إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الإهانة وتنزيل الناس منازلهم وإعطاء كل ذى حق حقه وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ولإرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريبهم وبعيدهم فى الحق فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيداً وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وان كان حبيباً قريباً إلى غير ذلك من معرفة العقل الذى وضعه بينهم فى المعاملات والمناكحات والجنايات وما أودع فى فطرهم من حسن شكره وعبادته وحده لاشريك له وان نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم فى شكره والتقرب إليه وإيثاره على ماســـواه وأثبت فى الفطر علمها بقبيح اضـــداد ذلك ثم بعث رسله فى الأمر بما أثبت فى الفطر حسنه وكماله والنهى عما أثبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكملة مطابقة التفصيل بجملته وقامت شواهد دينه فى الفطرة تنادى للايمان حى على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجى ظلم الإباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متهم ولا معرض للجراح .

فصـــل

وكذلك أعطاهم من العلوم المتعلقة بصلاح معاشهم ودنياهم بقدر حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والغراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصنعة الأطعمة ومعرفة ضروب الحيل فى صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف فى وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معايشهم ثم منعهم سبحانه علم ماسوى ذلك مما ليس فى شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل مايكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومساقط الأوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم مافوق السموات وماتحت الثرى ومافى لجج البحار وأقطار العالم ومايكنه الناس فى صدورهم وماتحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد إلى سائر ماعزب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد فى أكثر أمره وجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صواباً فترى عند من لا يرفعون به رأساً من الحكم والعلم الحق النافع مالايخطر ببالهم أصلا وذلك من حكمة الله فى خلقه وهو العزيز الحكيم ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ماعند القوم من أنواع الخيال

وضروب المحال وفنون الوساوس والهوى والهوس والخبط وهم يحسبون أنهم على شيء إلا إنهم هم الكاذبون فالحمد لله الذى من على المؤمنين (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

فصـــل

ومن حكمته سبحانه مامنعهم من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم وفى ذلك من الحكمة البالغة مالايحتاج إلى نظر فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت فلولا طول الأمل لخربت الدنيا وانما عمارتها بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالى بالانهماك فى الشهوات والمعاصى وأنواع الفساد ويقول إذا قرب الوقت أحدثت توبة وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا تصلح عليه أحوال العالم ولا يصلح العالم إلا على هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه فلو أن عبداً من عبيدك عمل على ان يسخطك اعواماً ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك وكذا سنة الله عز وجل ان العبد اذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا اقلاع قال تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن) وقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى خلت فى عباده) والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى نفسه فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له وأنه يرى كل وقت مالا صبر له عليه فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج فى صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعى النفس تاره وداعى الايمان تارات فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح مسرور يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب فهذا الذى يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة ولا يوفق لها فإنه من معاصيه وقبائحه على نقد عاجل يتقاضاه سلماً وتعجيلا ومن توبته وإيابه ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار على ذلك شديد على النفس صعب عليها أثقل من الجبال ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة ولا عاجلا بآجل كما قال بعض هؤلاء وقد سئل أيما أحب اليك درهم اليوم أو دينار غدا فقال لاهذا ولا هذا ولكن ربع درهم من أول أمس لحرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله فإذا بلغ

العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة فى غيه وضعفا فى إيمانه صارت كالملكة له بحيث لا يتمكن من تركها فإن كثرة المزاولات تعطى الملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة فى الغى والمعاصى وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثرا زائدا على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلم جرا فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدرانه لم يتطهر للقدوم على الله فما ظنه بربه ولو أنه تاب وأناب وقت القدرة والامكان لقبلت توبته ومحيت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شىء أشهى لمن انتقل الى الله على هذه الحال من التوبة ولكن فرط فى أداء الدين حتى نفذ المال ولو أداه وقت الامكان لقبله ربه وسيعلم المسرف والمفرط أى ديان أدان وأى غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات فإن فنيت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه فينكف عما يضره فى معاده ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم ۰ فإن قلت فها هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله وهو يترقب الموت فى كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم فأى فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه ۰ قيل لعمر الله أن الأمر كذلك وهو الموضع الذى حير الألباب والعقلاء وافترق الناس لأجله فرقا شتى ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة وقالوا بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا لا تعلل أفعال الرب تعالى ولاهى مقصود بها مصالح العباد وإنما مصدرها محض المشيئة وصرف الإرادة فأنكروا حكمة الله فى أمره ونهيه . وفرقة نفت لأجله القدر جملة وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطلب لها وجوه الحكمة وإنما هى خلقهم وابداعهم فهى واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها فهاتان الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل فالأولى غلت فى الجبر وانكار الحكم المقصودة فى أفعال الله . والثانية غلت فى القدر وأخرجت كثيرا من الحوادث بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فأثبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشيئة وأنه تعالى أن يكون فى ملكه مالا يشاء أو يشاء مالا يكون وأن أهل سمواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا مالا يخلقه الله أو يحدثوا مالا يشاء بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته ومالم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له وأنه لا حول ولا قوة الا به ولا تتحرك فى العالم العلوى والسفلى ذرة الا بإذنه ومع ذلك فله فى كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا لحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته

والطائفة الأولى جحدت الحكمة والثانية جحدت القدرة والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكمال القدرة فالفرقة الأولى تشهد فى المعصية بجرد المشيئة والخلق العارى عن الحكمة ور بما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها . والفرقة الثانية تشهد فى المعصية بجرد كونها فاعلة محدثة مختارة هى التى شاءت ذلك بدون مشيئة الله والأمة الوسط تشهد عز الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها فى كل شىء وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها فيوجب الشهود الأول لها سؤال ربها والتذلل والتضرع له أن يوفقها لطاعته ويحول بينها وبين معصيته وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب الشهود الثانى لها اعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها وأنها هى الظالمة المستحقة للعقوبة وتنزيه ربها عن الظلم وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على مالم تعمله فيجتمع لها من الشهودين شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة . وقد ذكرنا فى الفتوحات القدسية مشاهد الخلق فى مواقعة الذنب وأنها تنتهى إلى ثمانية مشاهد . أحدها المشهد الحيوانى البهيمى الذى شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط وهو فى هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها فى اللذة وكثرة التمتع . والثانى مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره ولا ذنب له هو وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل . الثالث مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقه وهذا مشهد القدرية المجوسية . الرابع مشهد أهل العلم والإيمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقــدم . الخامس مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويوفقه فهو هالك والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر . السادس مشهد التوحيد وهو الذى يشهد فيه إنفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس أن صاحبه شاهد لكمال فقره وضعفه وحاجته وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع وأنه لا حول ولا قوة إلا به . السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل فى قضائه وتخليته بين العبد والذنب ولله فى ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها وذكرنا منها فى ذلك الكتاب قريباً من أربعين حكمة وقد تقدم فى أول هذا الكتاب التنبيه على بعضها . الثامن مشهد الأسماء والصفات وهو أن يشهد ارتباط الخلق والأمر والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته وأن ذلك موجبها ومقتضاها فأسماؤه الحسنى اقتضت ما اقتضته من التخلية بين العبد وبين الذنب فإنه الغفار التواب العفو الحليم وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولابد فلولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وهذا المشهد والذى قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها وأرفعها قدراً

وهما لخواص الخليقة فتأمل بعد ما بينهما وبين المشهد الأول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحان له من المعارف والعلوم أموراً لايعبر عنها وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من استفتحه من الناس وهو شهود الحكمة البالغة فى قضاء السيئات وتقدير المعاصى وإنما استفتح الناس باب الحكم فى الأوامر والنواهى وخاضوا فيها وأتوا بما وصلت إليه علومهم واستفتحوا أيضاً بابها فى المخلوقات كما قدمناه وأتوا فيه بما وصلت إليه قواهم وأما هذا الباب فكما رأيت كلامهم فيه فقل أن ترى لأحدهم فيه مايشفى أو يلم وكيف يطلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخلة تحت مشيئته أصلا وكيف يتطلب لها حكمة أو يثبتها أم كيف يطلع عليها من يقول هى خلق الله ولكن أفعاله غير معللة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل أصلا وإن جاء شىء من ذلك صرف إلى لام العاقبة لا إلى لام العلة والغاية فأما إذا جاءت الباء فى أفعاله صرفت إلى باء المصاحبة لا إلى باء السببية وإذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتان فإنهم لا يرون الحق خارجا عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير إذا رأى بعض أقوالهم الفاسدة ولا يدرى أين يذهب . ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس إذا رأى أقوال المتكلمين الضعيفة وقد قالوا إن هذا هو الذى جاء به الرسول قطع القنطرة وعدى إلى ذلك البر وكل ذلك من الجهل القبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم فما أكثر خروج الحق عن أقوالهم وما أكثر مايذهبون فى المسائل التى هى حق وصواب إلى خلاف الصواب. والمقصود أن المتكلمين لو أجمعوا على شىء لم يكن إجماعهم حجة عند أحد من العلماء فكيف إذا اختلفوا والمقصود أن مشاهدة حكمة الله فى أقضيته وأقداره التى يجريها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هى من ألطف ماتكلم فيه الناس وأدقه وأغمضه وفى ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ونحن نشير إلى بعضها . فمنها أنه سبحانه يحب التوابين حتى أنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدوية المهلكة إذا فقدها وأيس منها وليس فى أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح كما سنوضح ذلك ونزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح . ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه ممتنع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه أو غاية بدون وسيلتها وهذا معنى قول بعض العارفين ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه فالتوبة هى غاية كمال كل آدمى وإنما كان كمال أبيهم بها فكم بين حاله وقد قيل له إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى وبين قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالحال الأولى حال أكل وشرب

وتمتع والحال الأخرى حال اجتباء واصطفاء وهداية فيما بعد ما بينهما ولما كان كماله بالتوبة كان كمال بنيه أيضا بها كما قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) فكمال الآدمى فى هذه الدار بالتوبة النصوح وفى الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة وهذا الكمال مرتب على كماله الأول . والمقصود أنه سبحانه لمحبته التوبة وفرحه بها يقتضى على عبده بالذنب ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه .

فصـــــل

ومنها أنه سبحانه يحب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويريهم مواقع بره وكرمه فلمحبته الأفضال والأنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها فى سائر الوجوه الظاهرة والباطنة ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عمن ظلم ويغفر لمن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذر من اعتذر إليه وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له فى تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول فسبحانه وبحمده . وحكى بعض العارفين أنه قال طفت فى ليلة مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف وطابت نفسى فوقفت عند الملتزم ودعوت الله فقلت اللهم اعصمنى حتى لا أعصيك فهتف بى هاتف أنت تسألنى العصمة وكل عبادى يسألونى العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر قال فبقيت ليلتى إلى الصباح أستغفر الله حياء منه . هذا ولو شاء الله عز وجل أن لا يعصى فى الأرض طرفة عين لم يعص ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجهل بالله ممن يقول أنه يعصى قسرا بغير اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً

فصـــــل

ومنها أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار فى الخلق والأمر لابد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتب المرئيات والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك فى جميع الأسماء فلو لم يكن فى عباده من يخطئ ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها فى الخليقة كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها فكما أن اسم الخالق يقتضى مخلوقا والبارىء يقتضى مبروأ والمصور يقتضى مصوراً ولا بد فأسماؤه الغفار التواب تقتضى مغفوراً له ما يغفره له وكذلك من يتوب

عليه وأموراً يتوب عليه من أجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق الحلم والعفو فإن هذه الأمور متعلقة بالغير ومعانيها مستلزمة لمتعلقاتها . وهذا باب أوسع من أن يدرك واللبيب يكتفي منه باليسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد :

وان كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفي شيحه من خزامه

فتأمل ظهور هذين الإسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليقة ترى ومايعجب العقول وتأمل آثارهما حق التأمل في أعظم مجامع الخليقة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما كان له من قيام أصلا فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فإما متصلا بنشأته الثانية وإما مختصاً بهذه النشأة .

فصـــل

ومنه أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضائه وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه لامحيص للعبد عما قضاه عليه ولامفر له منه بل هو في قبضة مالكه وسيده وأنه عبده وابن عبده وابن أمته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه.

فصـــل

ومنها أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيانته وأنه كالوليد الطفل في حاجته إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولابد وقد مدت الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله إفساد شأنه كله وان مولاه وسيده إن وكله الى نفسه وكله الى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أدنى إليه من شراك نعله. فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكل الله العبد إلى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينه وبين نفسه.

فصـــل

ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وأنواع من كمالات العبد تبلغ نحو المائة ومنها مالاتدركه العبارة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملقى على باب مولاه بعد أن كان نائيا عنه وهذا الذي أثمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة لله أفرح بتوبة عبده وأسرار هذا الوجه يضيق عنها

القلب واللسان وعسى أن يجيئك فى القسم الثانى من الكتاب ما تقر به عينك ان شاء الله تعالى فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شامخ بأنفه كلما طلب منه أوصاف العبد قامت صور تلك الأعمال فى نفسه فحجبته عن معبوده وإلهه وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرعونات والحماقات والخيالات فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً كما لا يرى ربه إلا محسنا فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدراؤه على نفسه قلبه وذلل لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما ارتفع من غيره فقلبه واقف بين يدى ربه وقوف ناكس الرأس خاشع خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادىء الحركات قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكفى به حكمة والله المستعان .

فصـــل

ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته فإن تمام العبودية هو بتكميل مقام الذل والانقياد وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلا لله وانقيادا وطاعة والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وانعامه عليه فان من أحسن اليك فقد استعبدك وصار قلبك معبدا له وذليلا تعبد له لحاجته إليه على مدى الأنفاس فى جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره . وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما أحدهما ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولبها بل روحها وقوامها وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لو فطن وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد والتملق والايثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتذلل وتحمل العظائم مالا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبى من طاعته مالا يستخرجه خوفه أو كما قال فهذا ذل المحبين .الثانى ذل المعصية فاذا انضاف هذا إلى هذا هناك فنيت الرسوم وتلاشت الأنفس واضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرعونات وطاحت الشطحانات ومحى من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والهجر وتجرد الشهودان فلم يبق الاشهود العز والجلال الشهود المحض الذى تفرد به ذو الجلال والإكرام الذى لا يشاركه أحد من خلقه فى ذرة من ذراته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار فيشهد غاية ذله وانكساره وعزة محبوبه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهدها فيه بالفعل وقد شهد مقابلها هناك فلله أى مقام أقيم فيه هذا القلب إذ ذاك وأى قرب حظى به وأى نعيم أدركه وأى روح باشره فتأمل الآن موقع الكسرة التى حصلت له بالمعصية فى هذا

الموطن ما أعجبها وما أعظم موقعها كيف جاءت فمحقت من نفسه الدعاوى والرعونات وأنواع الأمانى الباطلة ثم أوجبت له الحياء والخجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعلمه بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والماحيات إلى أعظم من هذا فهو لا يزال محسناً وعند نفسه المسيء المذنب متكسرا ذللا خاضعاً لا يرتفع له رأس ولا ينقام له صدر وإنما ساقه إلى هذا الذل والذى أورثه إياه مباشرة الذائب فأى شيء أنفع له من هذا الدواء ..

لعل عتبك محمود عواقبه ورىما صحت الأجسام بالعلل

ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وتعاظمت نفسه وظن أنه وأنه أى عظيما فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت اليه نفسه وذل وخضع وتيقن أنه وأنه أى عبداً ذليلا .

فصـــل

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه وأنها الظالمة وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه إذ الجهل والظلم منبع الشر كله وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى هو الذى زكاها به وأعطاها إياه لا منها فإذا لم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعى ظلمه وجهله فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو وتأتى بأنواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والخبث . وكان من دعاء النبى ﷺ :اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتب له على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة . منها أنه يأنف من نقصها ويجتهد فى كمالها ومنها أنه يعلم فقرها دائما إلى من يتولاها ويحفظها . ومنها أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التى ادعاها أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها لم يقعوا فيها وقعوا فيه .

فصـــل

ومنها تعريفه سبحانه عبده سعة حلمه وكرمه فى ستره عليه وأنه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يطب له معهم عيش أبدا ولكن جلله بستره وغشاه بحلمه وقيض له من يحفظه وهو فى حالته تلك بل كان شاهدا وهو يبارزه بالمعاصى والآثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه التى لا تنام وقد جاء فى بعض الآثار يقول الله تعالى: أنا الجواد الكريم من أعظم منى جودا وكرما عبادى يبارزوننى

بالعظائم وأنا أكلوهم فى منازلهم . فأى حلم أعظم من هذا الحلم وأى كرم أوسع من هذا الكرم فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض فى أماكنها وتأمل قوله تعالى (أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) الآية هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة فلولا حلمه ومغفرته لزالتا عن أماكنهما ومن هذا قوله (لا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا).

فصــــل

ومنها تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وأنه رهين بحقه فإن لم يتغمده بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لامحالة فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج الى عفوه ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

فصــــل

ومنها تعريفه عبده كرمه سبحانه فى قبول توبته ومغفرته له على ظلمه واساءته فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألهمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولا وآخراً فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقاً وتوبة ثانية منه عليه قبولا ورضا فله الفضل فى التوبة والكرم أولا وآخراً لا إله إلا هو .

فصــــل

ومنها إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن لله عليه الحجة البالغة فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال من أين هذا ولا من أين أتيت ولا بأى ذنب أصبت فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جليلة إلا بما كسبت يداه وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهى من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه وإذا كان للذنوب عقوبات ولابد فكلما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير .

فصــــل

ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه فى إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به فى أساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزاء من جنس العمل فمن عفا عفى الله عنه ومن سامح أخاه فى إساءته إليه سامحه الله فى سيئاته ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه

ولا تنس حال الذى قبضت الملائكة روحه فقيل له هل عملت خيراً هل عملت حسنة قال ما أعلمه قيل تذكر قال كنت أبايع الناس فكنت أنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر أو قال كنت آمر فتيانى أن يتجاوزوا فى السكة فقال الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه فالله عز وجل يعامل العبد فى ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس فى ذنوبهم فإذا عرف العبد ذلك كان فى ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ماهو أنفع الأشياء له .

فصــــل

ومنها أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء اليه ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى وأنه سبحانه يقابل أساءته وذنوبه باحسانه كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه والله أوسع فضلا وأكرم وأجزل عطاء فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالاحسان فليقابل هو إساءة الناس اليه بالاحسان ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للانسان لم تعظم عنده إساءة الناس اليه فليتأمل هو حاله مع الله كيف هى مع فرط احسانه اليه وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له فاذا كان العبد هكذا لربه فكيف ينكران يكون الناس له بتلك المنزلة . ومنها أنه يقيم معاذير الخلائق وتتسع رحمته لهم ويتفرج بطانه ويزول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف وأكل بعضه بعضاً ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال الله أن يخسف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء فانه حينئذ يرى نفسه واحداً منهم فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والازدراء لا يجد فى قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة فالذنب فى حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمته ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحسانا إليهم إذ هو عين مصلحتهم لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

فصــــل

ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه وينزع عنه رداء الكبر والعظمة الذى ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة فى قلبه لخيف عليه ماهو من أعظم الآفات كما فى الحديث لو لم تذنبوا لخفت عليكم ماهو أشد من ذلك العجب أو كما قال صلى الله عليه وسلم فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار كما قيل ياآدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب وألبست رداء العبودية ياآدم لا تجزع من قولى لك أخرج منها

فلك خلقتها ولكن انزل إلى دار المجاهدة وابذر بذر العبودية فإذا كمل الزرع واستحصد فتعال فاستوفه .

لا يوحشنك ذاك العتب أن له لطفاً يريك الرضا في حالة الغضب

فبينما هو لابس ثوب الاذلال الذى لا يليق بمثله تداركه ربه برحمته فنزعه عنه وألبسه ثوب الذل الذى لا يليق بالعبد غيره فما لبس العبد ثوبا أكمل عليه ولا أحسن ولا أبهى من ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذى لا عزله بغيره .

فصـــل

ومنها أن لله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية من الخشية والخوف والإشفاق وتوابعها من المحبة والأنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها وهذه العبوديات لها أسباب تهيجها وتبعث عليها فكلما قيضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المهيجة له فهو من أسباب رحمته له ورب ذنب قدهاج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوجل والأنابة والمحبة والإيثار والفرار إلى الله مالا يهيجه له كثير من الطاعات وكم من ذنب كان سببا لاستقامة العبد وفراره إلى الله وبعده عن طرق الغى وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه وكان عنده أخلاط مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التى لو دامت لترامت به إلى الفساد والعطب وأن من تبلغ رحمته ولطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب وألطف منه لحقيق بان يكون الحب كله له والطاعات كلها له وأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر .

فصـــل

ومنها أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله فى توفيقه له وحفظه إياه فانه من تربى فى العافية لا يعلم مايقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم عليهم فى الحقيقة وإن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى فهم أهل النعمة المطلقة وإن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقدسقطمن عينه وهان عليه وإن ذلك ليس من كرامته على ربه وإن وسع الله عليه فى الدنيا ومد له من أسبابها فإنهم أهل الإبتلاء على الحقيقة فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه فى بلية وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وأنه لا نسبة لما كان فيه من النعم إلى ماطلبته نفسه من الحظوظ فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود إلى حاله وأن يمتعه الله بعافيته .

فصــــل

ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة من المقامات التى لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرقة واللطف وشكر الله وحمده والرضا عنه عبوديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب فى بركتها وآثارها مالم ينقضها ويفسدها .

فصــــل

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل فلا ينسى الفرحة التى يظفر بها عند التوبة النصوح وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحا وأنت لا تدرى بسبب ذلك الفرح ماهو وهذا أمر لا يحس به إلا حى القلب وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحاً غيره فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب فمن يشترى فرحة ساعة بغم الأبد وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر مايليق بك ويناسبك وكل يعمل على شاكلته وكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه .

فصــــل

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه فى حق ربه استكثر القليل من نعم ربه عليه ولا قليل منه لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسىء مثله واستقل الكثير من عمله لعلمه بأن الذى ينبغى أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به فهو دائما مستقل لعمله كائنا ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه وهو من ألطف الوجوه فعليك بمراعاته فله تأثير عجيب ولو لم يكن فى فوائد الذنب إلا هذا لكفى به فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغى أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها وأنه لا يقدر أن يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته بل هو مغرى بمعاندته لفضله وكماله وأنه كان ينبغى له أن ينال الثريا ويطأ بأخمصه هنالك ولكنه مظلوم مبخوس الحظ وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقتا عنده وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون فى سفال فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل لخلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والانقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمأنينة بذكره وقرة العين بخشيته والرضاء به فعياذا بالله من زوال نعمته وتحول عافيته

ونجاة نقمته ومن جميع سخطه .

فصــــل

ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكامنه ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكامنهم ومن أين يخرجون عليه وفي أي وقت يخرجون فهو قد استعدلهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرهم وكيدهم فلو أنه مر عليهم على غرة وطمأنينة لم يأمن أن يظفروا به ويجتاحوه جملة .

فصــــل

ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه معرضا عنه مشتغلا ببعض مهماته فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثاره إن كان قلبه حرا كريما كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بل تراه بعدها هائجا طالبا مقداما والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هاربا والجراحات في أكتافه وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق فلاخير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه فما شيء أشفى للقلب من أخذه بثاره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر وغاظ عدوه كل الغيظ وأضناه كما جاء عن بعض السلف أن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره .

فصــــل

ومنها أن مثل هذا يصير كالطبيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم والطبيب الذي عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطبيب الذي إنما عرفه وصفا هذا في أمراض الأبدان وكذلك في أمراض القلوب وأدوائها وهذا معنى قول بعض الصوفية أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات وقال عمر بن الخطاب إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاصيله وأبوابه وطرقه وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهاداً لأعدائه وتكلماً بأعلامه وتحذيراً من خلافه لكمال علمهم بضده فجاءهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة مما كانوا عليه فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهاداً بمعرفتهم بضده وذلك بمنزلة من كان في حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبته بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه وليس حال هذا كمن ولد في الأمن والعافية والغنى والسرور فإنه لم يشعر بغيره وربما قيضت له أسباب تخرجه عن

ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيراً من أسباب الهلاك والعطب تفضى به إلى السلامة والأمن والعافية فيكون هلاكه على يدى نفسه وهو لا يشعر وما أكثر هذا الضرب من الناس فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل كان أحرى أن تدوم له النعمة مالم يؤثر أسباب زوالها على علم وفى مثل هذا قال القائل .

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدهم منه فإذا تكلم فى الشر وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيته من أبر الناس والمقصود أن من بلى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

فصـــل

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الإنس والقرب ليمتحن عبده فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله بل اطمأنت وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه فى مرتبته التى تليق به وإن استغاث استغاثة الملهوف وتقلق تقلق المكروب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته ويعيد عليه مالا حياة له بدونه علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ماهو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتمت به نعمته واتصل به سروره وعلم حينئذ مقداره فعض عليه بالنواجذ وثنى عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لاتنالها عقول البشر .

فقل لغليظ القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالى

ولا تك ممن مد باعا إلى جنا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالى

فالعبد إذا بلى بعد الإنس بالوحشة وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة لحنت وأنت وتصدعت وتعرضت لنفحات من ليس لها منه عوض أبدا ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه فإن هذه الذكرى تمنعها القرار وتهيج منها البلابل كما قال القائل وقد فاته طواف الوداع فركب الأخطار ورجع إليه .

ولما تذكرت المنازل بالحمى ولم يقض لى تسليمة المتزود

تيقنت أن العيش ليس بنافعى إذا أنا لم أنظر إليها بموعد

وإن استمر أعراضها ولم تحن إلى معهدها الأول ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها

إلى مراجعة قربها من ربها فهى ممن إذا غاب لم يطلب وإذا أبق لم يسترجع وإذا جنى لم يستعتب وهذه هى النفوس التى لم تؤهل لما هنالك وبحسب المعترض هذا الحرمان فإنه يكفيه وذلك ذنب عقابه فيه .

فصـــل

ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الإنسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروفة إلى ما أعد له فى دار النعيم وغضبه حمية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروفة فى هواه وأمانيه العاجلة وغضبه مقصور على حظه ولو انتهكت محارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسننه بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير ونفوذ الكلمة وهذه حال أكثر الرؤساء . أعاذنا الله منها فلن يجعله الله هذين الصنفين فى دار واحدة فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصى فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلقا فى الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فأما من اكتنفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم أقل أفراد النوع الإنسانى وهم خلاصته ولبه .

فصـــل

ومنها أن الله سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعـــاته ورفعها من قلبه ولسانه فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ونسى طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه إمامه أن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة فى حقه كما قال بعض السلف أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله وذل له وانكسر وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة فى حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراها ويعتدبها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى

تقوى عليه آثارها فتدخله النار فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان .

فصـــل

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياه موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضـــلا ولاله على أحد حقا فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم أياها ويذمهم على ترك القيام بها فإنها عنده أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويعظم ويقدم لأجلها فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له مالا يستحقه فاستراح هذا فى نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقرعينه وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط .

فصـــل

ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها فإنه فى شغل بعيب نفسه فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة .

ومنها أنه إذا وقع فى الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين وشهد أن المصيبة واحدة والجميع مشتركون فى الحاجة بل فى الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضاً ينبغى أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هجيراه رب اغفرلى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه وردا لا يخل به وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلا عظيما لا أحفظه وربما كان من جملة أوراده التى لا يخل بها وسمعته يقول أن جعله بين السجدتين جائز فإذا شهد العبد أن أخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا أن لا يساعد فإن الجزاء من جنس العمل وقد قال بعض السلف إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وامتحن هاروت وماروت بما امتحنهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبنى آدم وتدعو الله لهم .

فصـــل

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئاً خاطئاً مفرطا مع فرط إحسان الله إليه فى كل طرفة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه نفساً واحداً وهذه حاله معه فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريد ولا يعصونه ولا يخلون بحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب له أن يستغفر لمسيئهم ويعفو عنه ويسامحه ويغضى عن الاستقصاء فى طلب حقه فهذه الأثمار ونحوها متى اجتناها العبد من الذنب فهى علامة كونه رحمة فى حقه ومن اجتنى منه أضدادها وأوجبت له خلاف ما ذكرناه فهى والله علامة الشقاوة وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه خلى بينه وبين معاصيه ليقيم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه وتتداعى السيئات فى حق مثل هذا وتتألف فيتولد من الذنب الواحد ماشاء الله من المتالف والمعاطب التى يهوى بها فى دركات العذاب والمصيبة كل المصيبة الذنب الذى يتولد من الذنب ثم يتولد من الإثنين ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا ومن لم يكن له فقه نفس فى هذا الباب هلك من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض يتلو بعضها بعضا ويثمر بعضها بعض قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة بعدها وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد والله المستعان .

فصـــل

وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات التى لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذى لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج فى حقهم والكرامة فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتـــلاء والامتحان . فتأمل حال أبينا آدم وماآلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التى جرت عليه وهى إخراجه من الجنة وتوابع ذلك لما وصل إلى ماوصل إليه فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية فى نهايته . وتأمل حال أبينا الثانى نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره وأثنى عليه بالشكر فقال (أنه كان عبداً

شكورا) فوصفه بكمال الصبر والشكر . ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم وتأمل ماآلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلا لنفسه وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته . وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به فى محنته بذبح ولده فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك فى نسله وكثره حتى ملأ السهل والجبل فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمرا أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافا مضاعفة وجازاه بأضعاف مافعله لأجله أضعافا مضاعفة فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضاء منهما وتسليما وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بذبح عظيم وأعطاهما ماأعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه أن بارك فى ذريتهما حتى ملؤا الأرض فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية ولهذا قال إبراهيم (رب هب لى من الصالحين) وقال (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤا الدنيا وجعل النبوة والكتاب فى ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً ﷺ . وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بنى إسرائيل فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك فأوحى الله إلى داود أن قد علمت أنى وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمرى أن أبارك له فى ذريته حتى يصيروا فى عدد النجوم وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد أردت أن يحصى عددا قدرت أنه لا يحصى وذكر باقى الحديث فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصى عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم وفى السموات بين الملائكة فهذا من بعض ثمرة معاملته فتباً لمن عرفه ثم عامل غيره ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته .

فصل

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليما وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفعه إلى أعلى السموات واحتمل له مالا يحتمل لغيره فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبى الله هارون وجره إليه ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه وخاصم ربه ليلة الإسراء فى شأن

رسول الله ﷺ ورثه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه ولا سقطت منزلته عنده بل هو الوجيه عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام فى الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك . ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه واحتماله فى الله وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم فى الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر .

فصـــل

فإذا جئت إلى النبى ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره فى الله واحتماله مالم يحتمله نبى قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة فى وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبى ما أوذى ولم يحتمل فى الله ما احتمله ولم يعط نبى ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن إسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأسمعهم عنده شفاعة وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهى مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها إلى أعلا المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو فى دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو فى أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو فى واد وهم فى واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضى من رضى وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فلله سبحانه من الحكم فى ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كذا المعالى إذا مارمت تدركها ... فاعبر إليها على جسر من التعب

والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبداً إلى يوم الدين ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

فصـــل

وإذا تأملت الحكمة الباهرة فى هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التى لا

تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء. ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسنها وشهدت بفضلها وأنه ماطرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهى نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانا وآية وشاهدا على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادىء والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التى أنعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها ومن ارتضاهم لها فلهذا امتن على عباده بأن هداهم لها قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وقال معرفا لعباده ومذكرالهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) وتأمل كيف وصف الدين الذى اختاره لهم بالكمال والنعمة التى أسبغها عليهم بالتمام إيذانا فى الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شىء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل فى حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذانا بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام فى هذه الدار وفى دار القرار وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين اليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهى نعمته حقا وهم قابلوها وأتى فى الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شىء خصوا به دون الأمم وفى إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والاحاطة فجاء أتممت فى مقابلة أكملت وعليكم فى مقابلة لكم ونعمتى فى مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالا وإتماما للنعمة بقوله (ورضيت لكم الإسلام دينا). وكان بعض السلف الصالح يقول ياله من دين لو أن له رجالا وقد ذكرنا فصلا مختصراً فى دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنى وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب ثم رأينا أن نتبعه فصلا فى دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله إذ هذا من أشرف العلوم التى يكتسبها العبد فى هذه الدار ويدخل بها إلى الدار الآخرة وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهى إليه علومهم هو كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم ثم ينزعها فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من البلل وأين ذلك من البحر فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر وإنما هى صفة ما علق بالإصبع منه وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه وماذا عسى

أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها ولكن قد رضى الله من عباده بالثناء عليه وذكر آلائه وأسمائه وصفاته وحكمته وجلاله مع أنه لا يحصى ثناء عليه أبداً بل هو كما أثنى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى ولا وصف كتابه ودينه بما ينبغى له بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يثنى عليه بل هو فوق ما يثنون به عليه ومع هذا أن الله تعالى يحب أن يحمد ويثنى عليه وعلى كتابه ودينه ورسوله فهذه مقدمة اعتذار بين يدى القصور والتقصير من راكب هذا البحر الأعظم والله عليم بمقاصد العباد ودنياتهم وهو أولى بالعذر والتجاوز .

فصـــل

وبصائر الناس فى هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام . أحدها من عدم بصيرة الإيمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق فهو يجعل أصبعيه فى أذنه من الصواعق ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية فهذا القسم هو الذى لم يرفع بهذا الدين رأساً ولم يقبل هدى الله الذى هدى به عباده ولو جاءته كل آية لأنه ممن سبقت له الشقاوة وحقت عليه الكلمة ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه . القسم الثانى أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس فهم تبع لآبائهم وأسلافهم دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب أو منقادا للحق لا بصيرة له فى إصابة فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولاريب فهم على سبيل نجاة القسم الثالث وهو خلاصة الوجود ولباب بنى آدم وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم كما قال فيهم على بن أبى طالب أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق هذا علامة من عدم البصيرة فإنك تراه يستحسن الشىء وضده ويمدح الشىء ويذمه بعينه إذا جاء فى قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيما مخالفته ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفيا لما أثبته ومعاداة للقائمين بسنته وهذا من عدم البصيرة فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم فى درجات الفضل كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال إنما كانوا يعملون على البصائر وما أوتى أحد أفضل من بصيرة فى دين الله ولو قصر فى العمل قال تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسماعيل

وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار) قال ابن عباس أولى القوة فى طاعة الله والأبصار فى المعرفة فى أمر الله وقال قتادة ومجاهد أعطوا قوة فى العبادة وبصرا فى الدين وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً فى العمل وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به إلاضلالة والقسم الثانى ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله فى كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى (وما يتذكر إلا أولو الألباب) .

فصــــل

قدشهدت الفطر والعقول بأن للعالم ربا قادراً حليما عليما رحيما كاملا فى ذاته وصفاته لا يكون إلامريدا للخير لعباده مجريا لهم على الشريعة والسنة الفاضلة العائدة باستصلاحهم الموافقة لما ركب فى عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وما جبل طباعهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه المحيط بكل شىء علما وإذا عرف ذلك فليس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة فى ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم فى تعريفهم كلما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع مايعلمونه واطلاعهم على كل مايجرون عليه سياساتهم فى أنفسهم وفى منازلهم حتى لا يقيموا فى بلد فيها إلا أخبروا من تحت أيديهم بالسبب فى ذلك والمعنى الذى قصدوه منه ولا يأمرون رعيتهم بأمر ولا يضربون عليهم بعثاً ولا يسوسونهم سياسة إلا أخبروهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا تتصرف بهم الأحوال فى مطاعمهم وملابسهم ومراكبهم إلا أوقفوهم على أغراضهم فيه ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذى لا يشاركه فى علمه ولا حكمته أحد أبداً فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ماغاب عنها وتعلم أن له حكمة فى كل ماخلقه وأمر به وشرعه وهل تقتضى الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره فى كل مايريده وعلى حكمته فى صغير ماذرأ وبرأ من خليقته وهل فى قوى المخلوقات ذلك بل طوى سبحانه كثيرا من صنعه وأمره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا والمدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغاؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفا فى ذلك تتبع مقاصده فيمن يولى ويعزل وفى جنس مايأمر به وينهى عنه وفى تدبيره لرعيته

وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله اللهم إلا أن يبلغ الأمر فى ذلك مبلغاً لا يوجد لفعله منفذ ومساغ فى المصلحة أصلا فحينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم ولن يجد أحد فى خلق الله ولا فى أمره ولا واحدا من هذا الضرب بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها وأما أن ينفى ذلك عنها فمعاذ الله إلا أن يكون ماأخرجه كذب على الخالق الأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه. وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين والعالم بكل شىء والغنى عن كل شىء والقادر على كل شىء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد من معانى حكمته فى صنعه وابداعه وأمره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذى استأثر الله به فيكفيهم فى ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التى علموا ماخفى منها بما ظهر لهم هذا وأن الله تعالى بنى أمور عباده على أن عرفهم معانى جلائل خلقه وأمره دون دقائقهما وتفاصيلهما وهذا مطرد فى الأشياء أصولها وفروعها فأنت إذا رأيت الرجلين مثلا أحدهما أكثر شعرا من الآخر أو أشد بياضاً أو أحد ذهناً لأمكنك أن تعرف من جهة السبب الذى أجرى الله عليه سنة الخلقية وجه اختصاص كل واحد منهما بما اختص به وهكذا فى اختلاف الصور والأشكال ولكن لو أردت أن تعرف ماذا كان شعر هذا مثلا يزيد على شعر الآخر بعدد معين أو المعنى الذى فضله به فى القدر المخصوص والتشكيل المخصوص ومعرفة القدر الذى بينهما من التفاوت وسببه لما أمكن ذلك أصلا وقس على هذا جميع المخلوقات من الرمال والجبال والأشجار ومقادير الكواكب وهيآتها وإذا كان لا سبيل إلى معرفة هذا فى الخلق بل يكفى فيه العلة العامة والحكمة الشاملة فهكذا فى الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن الحكمة بالغة وأما تفاصيل أسرار المأمورات والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشر به ولكن يطلع الله من شاء من خلقه على ما شاء منه فاعتصم بهذا الأصل

(تم الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة ويليه الجزء الثانى)
(وأوله فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية)

فهرس

الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تم فهرس الجزء الأول من كتاب المفتاح ﴾